الصّاحبُ بن عبّاد

الوزيرُ الأديبُ العالم

بقلم

الدكتور بدوي طبانة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه سيرة علم كبير من أعــلام التاريخ فى القــرن الرابع الهجرى الذى إنقسمت فيه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف الى أجزاء وامارات أو دويلات ، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمل العرب ، وترفع راية الاسلام ، وتتخذ لها قاعدة واحدة فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فى دمشق فى بلاد الشام ثم فى دار السلام فى أرض العراق .

ففى الفترة التى لمع فيها نجم صاحب هذه السيرة كان السلطان فى شبه جزيرة أيبريا التى أصبحت تسمى بلاد الأندلس لخلفاء بنى أمية الذين أقاموا لهم هناك دولة عربية ، تنافس دولة بغداد ، وبينما كانت هذه الدولة الفتية تبنى معالم نهضة عربيــة مشرقة بخلفائها الذين احتفظوا بلقب « أمير المؤمنين » كانت خلافة بغداد قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف أمام قوة الجند من الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد ، وأصبحوا أصحاب الحــلّ والعقد ، وبين أيديهم خليفة عباسى لا يملك من سلطان الدولة شيئا .

وكان الملك ببلاد افريقية للعُبَيْديين الذين قامت دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة ، وكان كل خليفة من أولئك العبيديين يلقب نفسه باللقب الكبير المأثور ، لقب « أمير المؤمنين » .

وكانت مصر والشام فى يد الاخشيديين الذين احتفظوا بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين ، فكانوا يخطبون باسمهم على المنابر ، وكذلك كانت الجزيرة الفراتية تحت امارة بنى حمدان يحكمها منهم ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ، وكانت حلب والثغور فى يد أخيه سيف الدولة على ابن عبد الله بن حمدان الشيبانى ، وكان كل منهما يخطب على المنابر فى امارته باسم الخليفة العباسى .

أما القرامطة فامتد نفوذهم وسلطانهم على عمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة ، وكانوا يخطبون باسم المهدى .

وكان السامانيون يحكمون خراسان وما وراء النهر ، ومقر ملكهم مدينة بخارى ، وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى ..

وظلت جرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وبنو بويه وآل سامان .

وكان الأمر بالعراق للديلم ، والسلطان منهم معز الدولة أحمد ابن بويه ، وكان يخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ، ثم باسم معز الدولة ، وابنه ، وابن عمه من بعده . وكذلك كان سلطان بنى بويه بالاضافة الى ذلك يمتد على بلاد فارس والأهواز والجبل والرى[1] .. تلك هى القوى الكبرى التى كانت تحكم الرقعة الاسلامية ، بعد أن تفرق الحكم تفرقا غريبا ، وقد كان قبل ذلك متماسك الأعضاء ، يرجع كله الى دولة واحدة ، وحاضرة كبرى تجمع شتاته .

---

(١) راجع تاريخ الأمم الاسلامية ٣/٣٨٠ .

وقد ننظر الى نظام الحكم فى ذلك القرن الرابع ، فنأسى لذلك الشمل الشتيت ، وهذه الوحدة الممزقة ، وتلك القوى التى تبددت ، وذلك الصف المتين والركن الركين ، وقد استحال أركانا متنازعة ، وقوى متنافسة ، وقيادات موزعة .

وقد نطل من زاوية أخرى لنرى من بعض الجوانب الخلية الواحدة ، وقد انقسمت خلايا عاملة توالى الكفاح ، وتواصل التقدم ، فنرى عروشا تثبت دعائمها بقوة سلطانها ، وبعظمة الأمراء وسياسة الوزراء ، مواصلة السير فى ركب الحضارة التى رسمت طريقها ، وأقامت معالمها الدولة الموحدة ذات القيادة الموحدة ..

وهناك ظاهرة يقف أمامها الباحث حائرا مفكرا ، فان تلك الجهود التى بذلتها الامارات المتوزعة والقيادات المنقسمة فى تثبيت دعائمها ، وفى ترسيخ أقدامها ، وفى دعم سلطانها — وهى جهود جبارة كانت كفيلة بأن تقف عجلة السير فى طريق التقدم والاصلاح واشاعة الأمجاد — لم تستطع أن تثنى من عزم الرجال ، أو تفل من حدّهم ، أو توقف زحف الأبطال نحو مواطن العزة والقوة ، والوقوف فى وجه الغزاة والطامعين من أعدائهم الذين كانوا ينتهزون الثغرة فى الصف ، والفرقة فى الجماعة ..

فقد انقسمت الدولة الى امارات ودويلات ، والتسمية بالدويلات هنا لا تعنى ضعف السلطان ، ولا الضيق فى دائرة السطوة والنفوذ ، ولا القلة فى أعداد الرعايا والمحكومين ، وانما هى تسمية نسبية بالنظر الى الدولة الواحدة ، أو الدولة الأم ،

التى كانت أصلا لهذه الدويلات ، يضم شملها ، ويوحد كلمتها ، ويبسط شعارها من حدود الصين الى شاطىء المحيط فى آسيا وافريقية وأوربا وفى جزر البحر المتوسط . فقد كان بعض تلك الدويلات يبسط سلطانه على مساحات شاسعة من البلاد ذات الحضارة والثروة والتاريخ . بل ان كثيرا من تلك الدويلات كان يفوق كثيرا من الدول المستقلة فى العالم المتحضر وغير المتحضر اليوم من حيث سعة الرقعة ووفرة الثروة .

وهذه الدويلات كانت تقوم بعبء حراسة الأمن فى الداخل وحماية الحدود والثغور ، وكانت تقوم فى الوقت نفسه بعبء البناء واقامة معالم المجد . والحراسة عبء يستلزم توفير الحشود وبذل الجهود ، والبناء عبء يستلزم الأمن والاستقرار داخل الحدود وخارجها .

والقدرة على تحقيق هاتين الغايتين ، والنهوض بهذين العبئين، يدل أعظم الدلالة على قوة الروح فى هذه الأمة ، وصلابة عودها ، وصفاء معدنها ، ونقاء جوهرها ..

بل ان القرن الرابع — وهو القرن الذى تقع فيه أحداث هذه السيرة — يعد فى طليعة قرون الخصب والسعة فى تاريخ هذه الأمة فى ميادين العلم ومجالات التفكير ، وفى دنيا الآداب والفنون عند الأمة العربية ؛ فقد نبغ فيه من العلماء الأعلام فى مختلف مجالات النشاط الفكرى والفنى من لا يحصون كثرة ، ولا يدركون عمقا ، ومن الأدباء والنقاد من انتهت اليهم معالم العبقرية ، وخصائص الأدب والفن ، واجتمعت فيهم خلاصة

المعارف والأذواق ، حتى كان للفكر العربى صرح ثابت الدعائم قوى الأركان ، ينشر نوره شرقا وغربا ، ويشارك فى بناء الحضارة الانسانية مشاركة فعالة مذكورة ، بل لا نجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الفكر الذى ابتكره العرب أو الذى حملوه كان السراج الوهاج الذى بعث النور فى سائر الأرجاء .

وقد شارك فى بناء ذلك الصرح عقول وصلتها رابطة العروبة، ورجال أظلهم لواء الاسلام ، ووحدتهم أواصر العقيدة ، فكانت لهم قرابة ورحما جعلتهم يسيرون فى طريق واحد ، توجههم وحدة الهدف ، وتدفعهم وحدة التعاليم ، متخذين من كتاب الله اماما ، ومن الكعبة قبلة ، ومن العربية لسانا .

ومن هنا كان علينا فى هذا الدور الخطير من أدوار حياتنا ونهضتنا أن نحيى هؤلاء الرجال ، وأن نمجد هذه العقول ، وأن نقدم من سبقت به قدمه ، ومن تقدم به عمله ، وأن نعد فى جحفل العروبة كل من خدم العروبة وأسدى اليها يدا بما مكن لنهضتها، وأرسى من حضارتها ، وأعزّ من لغتها ، وأثرى من فنها ، وأذاع من أفكارها ومبادئها ، ودافع عن حياضها ، وبنى بكل هذا أو بشيء من هذا لها مجدا ، وجعل به لها فى العالمين ذكرا .

والعروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها المتألقة، وأمجادها السامقة فى تاريخها المجيد أن تصهر أفذاذا من أبناء الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزًا ومنعة وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من عقولهم وقلوبهم وغيرتهم ما يعزّ على الاحصاء ، وما يستعصى على النسيان،

فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة أبنائها ، وصهرت من هذه العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية متألقة وجوهرة فريدة فى جبين الزمان ، فأنساهم ذلك الاعزاز منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا فى بناء نهضة وحضارة تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها فى وجه الأحداث والعواصف والمحن .

والصاحب بن عباد الذى نعرض فى هذا الكتاب لدراسة بعض جوانبه يمثل احدى تلك الشخصيات البارزة التى أحالت بعض الأطراف الحائلة فى تاريخ العرب والمسلمين صحائف من نور أخاذ يكاد يذهب بالأبصار . فقد كان الصاحب وزيرا من الوزراء الذين لا يحصى عددهم كثرة ولا سيما فى ذلك الزمان ، وكان أولئك الوزراء معدودين دائما رجال الصف الثانى الذى يلى صف الملوك والخلفاء ، ولكنه استطاع أن يثب بقوته ، وأن ترقى به همته فيكتب فى التاريخ سطرا خالدا لامعا ، يرفعه الى الصف الأول بين بناة المجد ، بل ان مجده ليفوق أمجاد سادته الذين ارتقوا به الى ذلك المنصب الرفيع ، وبدل أن يتلاشى نوره فى أضوائهم ، أو أن يستمد هذا النور من أنوارهم ، توارت أسماؤهم وراء اسمه ، واحتجبت أنوارهم فى سطوع شمسه . وأكد بهذا أن الرجال لا يشرفون بما يقلدون من وظائف وما يتسنمون من مناصب ، وانما تشرف المناصب بالرجال ، وينصف التاريخ الرجال بالهمم والأعمال . وقد كان فى شرف

الصاحب شرف للعلم والمعــرفة ، وكان فى كرامته كرامة للفنّ والأدب والعلم ، أو للأدباء والعلماء فى شخصه .

وكان علم الصاحب وأدبه هما سرّ خلوده وبقاء اسمه على صفحات التاريخ وفيما خلف من آثار بقيت على الزمان ، فى حين أن الفرقة والتنــاحر بين تلك الدويلات وحكامها أودى بها ، ومحاها وعفّى على سلطانها فى الأذهان ، ولم يعد لها ذكر الا فى زوايا كتب حاولت أن تسد الثغرات فى حساب الزمان ، فلا يوقف عليها الا بعد عنت ومشقة ، وكان هذا النسيان ثمرة وجزاء لما اقترفوه من تشتيت الشمل ، وتمزيق الصــف ، فكان ما أشرنا اليه من معالم القوة أشبه بوميض البرق الذى يأتلق ، وسرعان ما ينطفىء فى فترات لا تذكر فى مراحل التاريخ التى لا تحصى بالسنين ، ولكن بعد أن هدت كيان الأمة واستنفدت جهودها ومقدراتها ، وأفنت فتوة أبنائها بما شغلتهم به فى سبيل الحفاظ على سلطان زائل ، ارضاء لشهوة السلطان ، واستجابة لنزوة الاستعلاء ، واشباعا للمطامع . وقد أدّى هذا التفكك فيما بعد الى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج ، فتكانفت عوامل الضعف والانحلال حتى طمع فى سيادة الأوطان أعداء هذه الأمة الذين انتهزوا فرصة الضعف والهوان ، فاستعمروا البــلاد ، وأذلوا أهلها ، واستنزفوا خيراتها ، وفى ذلك عبرة لمن تحركه الأطماع ، وتستبد به الشهوات على حساب الشعب العريق ، وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ولم يكن هدفنا فى دراسة الصاحب أبى القاسم اسماعيل بن

عباد تتبع حياته ، أو استقصاء أخباره ، أو العكوف على حوادث التاريخ بالسّرد والاحصاء ، وان كنا قد بذلنا فى سبيل ذلك الكثير من الجهد ، بقدر ما كان هدفنا ابراز أهم الجوانب الانسانية ، وأبرز السجايا النفسية للصاحب ابن عباد ، وللرجال أو الأحداث التى صحبها وعاش فيها ، وكان لها تأثيرها فى بناء شخصيته ، ثم البحث عن العوامل التى أشرقت بها شمسه ، واستطاع بها أن يكون علما من أفذاذ رجال السياسة والعلم والأدب ، له طابعه الخاص ، وسماته المتفردة التى احتل بها تلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم درسناه عالما مفكرا ، وأديبا كاتبا وناقدا وشاعرا ، وانسانا وضعته الأقدار فى موضع القيادة ، يعيش مع الناس ويخالطهم ، ويسوسهم ويصرف أمورهم .

ولذلك كان أكبر اهتمامنا بما يجلى هذه السمات ، ويبرز تلك الجوانب . ولم تمنعنا الرغبة فى انصافه من الخضوع لمنطق الحق وميزان العدل .

والله الموفق للصواب .

بدوى أحمد طبانة

مصر الجديدة ٩ شعبان ١٣٨٣ هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٦٣

الفصل الأول

بنو بُوَيْه

بنـــو بويه

ابتدأ الدور الثانى للخــلافة العباسية ، وهو الدور الذى انتزع فيه السلطان الحقيقى من أيدى الخلفاء العباسيين الذين كانوا يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف ؛ ولم يبق للخليفة العباسى فى بغداد من الخلافة الا اسمها ، أى أنه أصبح رمزا للسلطة الدينية فحسب يدعى باسمه على المنابر ، وليس له شىء من الأمر أو النهى ، بل لم يبق له وزير يدبر شئون الدولة باسمه ، وانما كل ما كان له كاتب يدبر شئونه المالية ويحصى نفقاته ودخــل اقطاعاته لاغير . أما ماعدا ذلك من شئون الحرب والسياسة وتدبير أمر الرعية فلم يكن لخليفة بنى العباس منها قليل أو كثير ..

ابتدأ هذا الدور فى أيام المستكفى بالله الذى تولى الخلافة ، أو أسند اليه منصب الخلافة ، أسنده اليه القائد « توزون » الديلمى بعد أن غدر بالخليفــة المتقى لله (٢٠ ربيــع الأول سنة ٣٢٩ — ٢٠ صفر سنة ٣٣٣) . وفى المدة التى ظهــر فيها بنو بويه (٣٣٤—٤٤٧ هـ) أسندت تلك الخلافة الاسمية الى خمسة من خلفاء بنى العباس ، هم المستكفى والمطيع والطــائع والقادر والقائم .

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التى تقع فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر « بحر قزوين » ..

وقد ظل الديالمة على وثنيتهم حتى بعـد أن فتح المسلمون بلادهم ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ؛ على الرغم من أن بلاد طبرستان التى كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالاسلام ، وكان بينهم وبين الطبريين سلم وموادعة .. وظل الديالمة على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن على الأطروش الذى كان لقبه « الناصر لله » وأقام بينهم مدة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، ويقتصر منهم على العشر ، ويدفع عنهم عدوهم ، حتى تبعه منهم خلق كثير ، دخلوا فى الاسلام ، وبنى فى بلادهـم المساجد لاقامة الصـلاة ..

* * *

وقد ساد من بنى بويه ثلاثة أشـقاء استطاعوا ببسـالتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش ، وأن يجمعـوا حولهم القلوب ، وأن ينشروا سلطانهم على رقعة كبيرة من الدولة الاسلامية ، حتى كانت لهم دولة مزدهرة فى تاريخ الاسلام حكمت مدة طويلة (٣٢٠—٤٤٧ هـ) = (٩٣٢—١٠٥٥ م) ..

وكان أبوهم بويه بن فناخسرو المكنى بأبى شجاع يدعى أنه من نسل ملوك ساسان القدماء ليكسب لأسرته نفوذا فى هذه البلاد . وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو اسحاق ابراهيم ابن هلال الصابى (ت ٣٨٤ هـ) فقد ذكر فى كتابه « التاجى »

أن بنى بويه يرجعون فى نسبهم الى بهرام جور بن يزدجرد الملك الساسانى ، وأن بويه هو ابن فناخسرو بن تمام بن كوهى بن شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سستان شاه بن سسن بن شيروزيل بن سسناد بن بهرام جورا الملك بن يزدجرد بن هرمز ...

وتدل الروايات على أن الصابى حين كان يكتب كتابه « التاجى » لم يكن متمتعا بتمام حريته ، وأنه حمل عليه حملا ، فقد ذكر ابن خلكان أن الصابى كان كاتب الانشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمى.. وكانت تصدر عنه مكاتبات الى عضد الدولة بما يؤلمه ، فحقد عليه ، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله فى سنة ٣٦٧ هـ ، وعزم على القائه تحت أيدى الفيلة ، فشفعوا فيه ، ثم أطلقه سنة ٣٧١ هـ ، وكان قد أمره أن يضع له كتابا فى أخبار الدولة الديلمية ، فعمل « الكتاب التاجى » فقيل لعضد الدولة ان صديقا للصابى دخل عليه فرآه فى شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض ، فسأله عما يعمل ، فقال : « أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها » .. فحركت ساكنه ، وهيجت حقده ، ولم يزل مبعدا فى أيامه [1] ..

فهل نستطيع أن نطمئن الى صحة هـذا النسب كما رواه الصابى ؟!

ليس من المعقول أن يصدق قول الصابى « أباطيل أنمقها ،

(١) وفيات الأعيان ١/١٠٩

وأكاذيب ألفقها » على كل ما كتب الصابى ، بل المعقول أن فى « التاجى » ، بل أن أكثر ما فيه صحيح ، فقد كتب على أرض الأحداث ، وفى مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها..
ولكن الأنساب الضاربة الى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد ، ومجال كبير للحدس والتأليف ، لا سيما أن تلك الأمم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب ، ولم يكن يعرف شيء من ذلك أى من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أبناؤه ملوكا وحكاما ..

على أن هذا النسب الذى ذكره أو اخترعه أو أمر بذكره واختراعه لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان ؛ وطعن بعضهم فى أخباره ، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقات منهم أبو القاسم على بن محمد الكرخى — وكان شديد الاختصاص بالصاحب — أن الصاحب كثيرا ما كان يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع » يعنى الصاحب به نفسه ..

ويقول ياقوت بعد ذلك : فأما الترجيح بين هذين الصدرين، أعنى الصاحب والصابىء فى الكتابة ، فقد خاض فيه الخائضون ، وأطنب المحصلون [1] ، ومن أشفى ما سمعته فى ذلك [2] أن

(١) حصل الكلام : رده الى مفاده ومعناه ، ويروى باليتيمة: واخب فيه المخبون ، أى افاضوا واختلفوا فى المقارنة بينهما ... والخبب : السير السريع .
(٢) أى مما يشفى الغلة فى هذا الباب .

الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو اسحاق يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد (١) .. !

ثم اننا لم نر اجماعا على صحة هذا النسب الى ملوك آل ساسان القدماء ، فقد اختلف المترجمون فى بهرام الذى رفع اليه نسب بويه ، فقد قال القائلون بنسبه الى الفرس هو بهرام جور ابن يزدجرد بن سابور (٢) ، وقال آخرون بنسبته الى العرب وقالوا عن بهرام انه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية ابن الديلم بن باسل بن ضبة بن أد(٣) ..

ويرى البيرونى أن هذا النسب مختلق لأن الأنساب قل أن تحفظ بالتوالى اذا طال الزمان وامتدت الأيام ، ويقول ان السبيل الى معرفة صحة الانتماء الى أصل مـا من باطله اتفاق الكافة واجماع الجيل على ذلك ، كسيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسَّلام ..

وقـال ابن خلدون ان هذا النسب مصنوع تقرب الى بنى بويه به من لا يعرف طبائع الأنساب فى الوجود ، واستبعد أن يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رياسة على الديلم ، ولو كان نسبهم الى الفرس ظاهراً امتنعت بذلك رياستهم على الديلم ، كما استبعدأن يختفى نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين يزدجرد

---

(١) معجم الأدباء ٥٢/١٥ .

(٢) ابن الأثير ٩١/٨ .

(٣) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى ٣٨ .

وانقطاع الملك الا ثلثمائة سنة ، فيها سبعة أجيال أو ثمانية [1]..

وبقى بعد ذلك أن بنى بويه كانوا من الديلم ، والباحثون عن تاريخهم القديم يختلفون فى أصل هذا الشعب كله ، فيذهب بعضهم الى أنهم من ولد ضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية الشمالية من بلاد نجد بجوار بنى تميم ، وأنهم قد هاجروا الى هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى ، وأنهم افترقوا فرقتين لأنهم كانوا ينتسبون الى أخوين « ديلم » و « جيل » فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين منسوبة اليه [2] ومعنى ذلك أنهم يرجعون الى أصل عربى ، وقد تشكك فى هذا القول أكثر المؤرخين .

وذهب آخرون الى أن الديلم من أصل فارسى كما مر ، فى حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنسا مستقلا وأن المناطق التى كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هى مواطنهم الأصلية ، وأن لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبائعهم المتميزة التى جعلت لهم شخصية مستقلة وهم شعب بدوى يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلة المبالاة كما يقول الاصطخرى [3] ولما أراد الحجاج أن يفتح بلادهم ، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها ، أمر برسم مصور لها، فلما عرف الديلميون ذلك قالوا : صدقوك عن بلادنا ، هذه صورتها ، غير أنهم لم يصوروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/٤٢٦ .
(٢) المنتزع من كتاب « التاجى » ـ الورقة !
(٣) الاصطخرى : مسالك الممالك ٢٠٣ .

العقاب والجبال ، وستعلم ذلك لو تكلفته[1] .. ولما علم الخليفة العباسى المعتضد خبر دخول أحد الديالمة قزوين وصفهم بأنهم شر أمة فى الدنيا ، وأتمهم مكراً ، وأشدهم بأسا ، وأقواهم قلوبا .. والله لو ملكوا قزوين لنبعوا علىّ من تحت سريرى هذا ، واحتووا على دار المملكة [2] ..

* * *

وقد ألحق بويه أولاده فى خدمة قراد الدولة ، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب ، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب « شذور العقود »أن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو واخواه البلاد [3] .. وفى حديث صاحب « تجارب الأمم » عن ركن الدولة الحسن بن بويه أنه كانيفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه ، وكان مضطرا الى فعل ذلك ، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك ، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمتثل جميع أمره ، وانما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه ، ومسامحة فى أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور [4] والذى يستفاد من كل هذا أن بنى بويه قد صنعوا أمجادهم بأنفسهم ، وبنوا

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ٢٨٣ .
(٢) التنوخى : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ١٥٥ .
(٣) وفيات الأعيان ٧٥/٢ .
(٤) تجارب الأمم ٢٧٩/٦ .

ملكهم بسواعدهم وحرابهم وسيوفهم وسخائهم وواسع حيلتهم .

وأولاد بويه الذين سميت دولتهم (دولة بنى بويه) أو (الدولة البويهية) ثلاثة هم :

١ — عماد الدولة ، على بن بويه ، الذى كان يحكم فارس والأهواز ، وكان أكبر بنى بويه ، ولذلك كان يلقب « أمير الأمراء » .

٢ — ركن الدولة ، الحسن بن بويه ، الذى كان يحكم الجبل والرى وجرجان وطبرستان .

٣ — معز الدولة ، أحمد بن بويه ، الذى حكم العراق .

وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة — عماد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة — على الاخوة الثلاثة فى يوم واحد ، وكان الذى أطلقها عليهم هو الخليفة العباسى « المستكفى بالله » .

* * *

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم جنوداً فى جيش (ماكان بن كالى) ولكنهم ارتقوا بسرعة الى مرتبة الأمراء ، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا الى قائد ديلمى آخر هو (مرداويج بن زيار) الذى خرج على (أسفار بن شيرويه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج ، فزاد نفوذه حوالى عام ٣٢٠ هـ ، وتحبب الى الرعية ، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه ، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده ، وامتدت سلطنته الى حدود العراق ، وأسس الدولة الزيارية وعزم على أن

يستولى على بغـداد ، وينقـل الدولة الى الفرس ويبطـل دولة العرب [1] .

ولما استقرت قدم (مرداويج) على هذا النحو ، قدم عليه أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قوادا فى جيش (ماكان بن كالى) وفارقوه لما ضاقت بهم الحال ، وكان معهم جماعة من قواد ماكان. وقد رحب مرداويج بأبنـاء بويه فخلع على علىّ والحسن ، وولى القواد الذين جاءوا معهم النواحى ، وولّى على بن بويه بلاد الكرج ، وكتب لهم بذلك العهود ، فساروا الى الرىّ ، وبها « وشمكير » أخو مرداويج ، ومعه وزير مرداويج « الحسين ابن محمد » الملقب بالعميد . وصادف أن كان لابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون ، فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار ، فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها ، فلما حمل الى علىّ أخذ منه عشرة دنانير ، ورد الباقى ومعه هدية جميلة ، فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه ..

ولكن مرداويج أحس بالخطأ فيما فعل ، وندم على ما كان من اطمئنانه الى هؤلاء ، فكتب الى أخيـه « وشمكير » والى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم ، وان كان بعضهم قد خرج يرد .

ولكن الكتب كانت تصل الى العميد فيقرؤها قبل وشمكير ، ثم يعرضها عليه . فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى

(١) الأدب فى ظل بنى بويه ٢٤ .

على ّ بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ، ويطوي المنازل ، فسار ابن بويه من ساعته ..

ولما أصبح العميد عرض كتاب مرداويج على وشمكير ، فمنع سائر القواد من الخروج من الرىّ ، واستعاد التوقيعات التى كانت معهم . وأراد أن ينفذ خلف علىّ بن بويه من يرده ، فقال العميد : « انه لا يرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ، ويخرج من طاعتنا » ! فتركه . ووصل علىّ بن بويه الى الكرج ، وأحسن الى الناس ، ولطف بعمال البلاد ، فكتبوا الى مرداويج يشكرونه، ويصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته ، وصرف كثيرا فى استمالة الرجال بالصلات والهبات ، فشاع ذكره ، وقصده الناس وأحبوه.

ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج ، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم ، فوصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه ، وأحبوا طاعته ، وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على انفاذ أولئك القواد ، فكتب اليهم والى على ابن بويه يستدعيهم اليه ، وتلطف بهم فى هذا الاستدعاء ما استطاع ..

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه ، واشتغل بأخذ العهود على قواده ، وخوّفهم سطوة مرداويج ، فأجابوه جميعا ، فجبى مال الكرج ، واستأمن اليه « شيرازاد » وهو من أعيان قواد الديلم ، فقويت نفسه ، وسار بمن معه الى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت ..

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه ، وبلغ مرداويج فأقلقه ،

وخاف على ما بيده من البلاد ، واغتم لذلك غما شديدا . ولكن مرداويج أراد أن يحتال فكتب الى ابن بويه يعاتبه ، ويستميله ، ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ، ولا يكلفه سوى الخطبة باسمه فى مساجد البلاد التى يستولى عليها . وفى الوقت نفسه جهز مرداويج أخاه وشمكير فى جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة ، فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين . وتوجّه الى أرجان وبها أبو بكر ابن ياقوت ، فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال ، وقصد رامهرمز ، فاستولى علىّ على أرجان سنة ٣٢٠ هـ واستخرج منها أموالا قوى نفسه بها ..

وقد جاءته وهو برامهرمز كتب من أبى طالب زيد بن على النوبندجانى يشير عليه بالمسير الى شيراز ، ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مئونته ومئونة أصحابه ، وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم ، فتردد علىّ أولا ، ثم عزم على المسير ، فسار نحو النوبندجان فى ربيع الآخر سنة ٣٢١ هـ فلقى بها مقدمة ياقوت فهزمها ، ثم سار منها الى اصطخر ، خوفا أن يقع بين ياقوت ومرداويج ، لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه ، فقابله ياقوت بجيوشه ، فكان النصر لعلىّ ، وانهزم ياقوت ومن معه .

وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره فى ذلك اليوم ، وهو صبى لم تنبت لحيته ، وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل علىّ الأسرى أحسن معاملة ، وخيّرهم بين المقام عنده واللحاق

بياقوت فاختاروا المقام عنده ، فخلع عليهم وأحسن اليهم . ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ، ونادى فى الناس بالأمان ، واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه استرضاء الجنود والتودد اليهم فأحبوه ، وثبت ملكه ..

وعند ذلك أحسّ على بن بويه بحاجته الى قوة روحية تسنده، وتثبت سلطانه ، فأرسل الى خليفة بغداد (الراضى بالله) والى وزيره (ابن مقلة) يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد ، وبذل ألف ألف درهم ، فأجيب الى ذلك، وأنفذت اليه الخلع واللواء .

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد ، وسار الى أصبهان للتدبير عليه ، وبها أخوه وشمكير ، فرأى أن ينفذ عسكرا الى الأهواز للاستيلاء عليها ، ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصده ، فلا يبقى له طريق الى الخليفة ، ويقصده هو من ناحية أصبهان ، ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم .

وسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج فى رمضان ، ثم استولت على رامهرمز فى شوال سنة ٣٢٢ هـ ، ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه ياقوتا .

ولما بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز كاتب نائبه يستميله اليه ، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ، ففعل، واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويج، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة ، وأنفذ اليه أخاه الأوسط الحسن ابن بويه ، ليكون رهينة بين يديه .

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويج الأتراك تمردوا عليه ، لأنه كان كثير الاساءة اليهم ، يفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره ، فاتفقوا على اغتياله فقتلوه سنة ٣٢٣ هـ . وكان رؤساء المتألبين على مرداويج من الأتراك « بجكم » و « توزون » وهما اللذان توليا امرة الأمراء بالعراق ، و «ياروق»و«ابن بغرا» و « محمد بن ينال » الترجمـان . ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش ، فأما الأتراك فافترقوا فرقتين : فرقة منهم لحقت بابن بويه ، وفرقة سارت نحو الجبل مع « بجكم » . وأما الديلم فقد ذهبوا الى وشمكير أخى مرداويج وهو بالرىّ وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده ، وسار الى أخيه بفارس .

وعلى هذا صارت القوى الكبرى التى تتنازع بلاد العجم ثلاثا : قوة على بن بويه بفارس ، وقوة وشمكير بالرىّ : وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر .

أما ياقوت الذى كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادرا على الاحتفاظ بما معه فضلا عن مصادمة غيره ..

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعا هى قوة ابن بويه الذى سيّر أخاه الأوسط « الحسن بن بويه » الى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان ، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير ، وبقى هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد ، وهى : أصبهان ، وهمذان ، وقم ، وقاشان ، وكرج، والرىّ ، وكنكور ، وقزوين ، وغيرها ؛ حتى تم للحسن بن بويه

الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة ، حتى استطاع أن يجلى عنها نواب وشمكير .

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الأهواز والعراق ، لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد ، وكان هو مشغولا بادارة اقليم فارس ، وكان أخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبـل ؛ أما أخوهما الأصغر « أحمد » فلم يكن له شغل ، فسيّره علىّ الى الأهواز ، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين « بجكم الرائقى » وانهزم بجكم الى واسط .

فتح العراق :

كان من أهم ما يتطلع اليه ابن بويه المسير الى العراق بعـد الاستيلاء على واسط ، فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم يعود عنها ، حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد ، وقد استجاب لهذا الطلب فسار الى بغداد حتى وصل اليها يوم ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ ، وكان الخليفة بها هو « المستكفى بالله » الذى قابله واحتفى به ، وبايعه أحمد . وحلف كل منهما لصاحبه ، هذا بالخلافة ، وذاك بالسلطنة.

وفى ذلك اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب :

فلقّب عليا صاحب فارس « عماد الدولة » وهو أكبرهم .

ولقّب الحسن صاحب الرىّ والجبل « ركن الدولة » .

ولقب أحمد صاحب العراق « معز الدولة » وهو أصغرهم[1].

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية (عصر الدولة العباسية) ٣٧٨/٣ .

ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم بنى بويه فى الاشراق واللمعان ، وان أخذت الدولة فى التدهور والانحلال ، واختلت أحـوال الرعايا أمام أحداث كثيرة لا مجال لتفصيلها فى هذه العجالة .

ولقد خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن بنى العباس ، ويوليها خليفة علويا ، لأن البويهيين كانوا شيعة زيدية ، وقد وصلت اليهم التعاليم الاسلامية على يد الحسن بن زيد ، ثم على يد الحسن الأطروش ، وكلاهما زيدى . فكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، وهم أبناء علىّ . ولقد حاول معز الدولة ذلك لولا أن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل ، وقالوا له : « انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا » ! فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس ، وانفرد هو بالسلطان ، ولم يبق بيد الخليفة شىء البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته (١) ..

وعلى الرغم من أن بنى بويه قد سلبوا السلطة كلها من يد خليفة بنى العباس ، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا الهوان ، لم يسلموا من سوء معاملة البويهيين وظلمهم ، ففى سنة ٣٣٤ ذهب معز الدولة الى دار الخلافة ، وذهب اليها سائر الناس على

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٦/٣١٥ .

عادتهم ، فلما جلس المستكفى على سريره ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ، ثم قبل يد المستكفى ، ووقف بين يديه يحدثه ، ثم جلس على كرسى ، فتقدم اثنان من الديلم ، ومدّا أيديهما الى المستكفى ، وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها اليهما ، فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ، ووضعا عمامته فى عنقه وجرّاه. فنهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، وارتفعت الزعقات ، وافتتنت دار السلطان ، وضربت الأبواق . وساق الديلميان المستكفى بالله ماشيا الى دار معز الدولة حيث خلع ، وسملت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة[1] ..

وطوال القرن الذى وصل فيه نفوذ البويهيين الى أقصاه (٩٤٥—١٠٥٥ م) واصل البويهيون سياستهم من عزل الخلفاء وتوليتهم وفق هواهم .. وكان لهم فى بغداد قصور عدة فخمة كان يجمعها اسم دار المملكة .. ولم تعد بغداد السيدة التى تحرك العالم الاسلامى بل زاحمتها ، وطغت عليها فى ذلك شيراز ، وغزنة، والقاهرة ، وقرطبة .. التى كانت كلها تتقاسم السيادة الدولية فى العالم الاسلامى [2] .

وكانت مدة ملك معز الدولة فى العراق احدى وعشرين سنة

---

(١) تجارب الأمم ٨٦/٦ .

(٢) فيليب حتى (تاريخ العرب) ٦١٠/٢ .

وأحد عشر شهرا ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ ببغداد ودفن فى داره ، ثم نقل الى مشهد له بنى له فى مقابر قريش[1] ..

وولى المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته « شاه زمان » على صداق مبلغه مائة ألف دينار .. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بويه منافسات فى الملك أدت الى التنازع وأفضت الى المحاربة ، فالتقيا يوم الأربعاء ١٨ شوال سنة ٣٦٧ هـ ، فقتل عز الدولة وكان عمره ستا وثلاثين سنة[2] .

وقد وصلت قوة البويهيين الى أقصاها فى عهد عضد الدولة (٣٦٧—٣٧٢ هـ) = (٩٧٩—٩٨٣ م) . ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهيين فحسب بل كان أيضا أعظم حاكم فى زمانه . لقد طوى تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التى ظهرت فى عهد الحكام البويهيين فى فارس والعراق ، فألف من المجموع امبراطورية كادت تصل فى الاتساع الى امبراطورية هارون الرشيد ، وقد تزوج من ابنة الخليفة (الطائع) ، وحمل الخليفة على الزواج من ابنته . وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق فى الخلافة نفسها .

---

(١) هى مقبرة مشهورة ببغداد ومحلة فيها خلق كثير ، وبها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأول من دفن بها جعفر الأكبر بن ابى جعفر المنصور سنة ١٥٠ هـ . والمنصور هو أول من جعلها مقبرة لما ابتنى مدينة بغداد سنة ١٤٩ هـ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/١١ .

وكان عضد الدولة أول حاكم فى الاسلام حمل لقب (شاهنشاه)[1] . ولم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما ، وكان عاقلا فاضلا ، حسن السياسة ، شديد الهيبة بعيد الهمة ، ثاقب الرأى محبا للفضائل ، واهبا باذلا فى مواضع العطاء ، مانعا فى مواضع الحزم ، ناظرا فى عواقب الأمور ، وهو الذى بنى على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللعب واللهو ، وكان شاعرا أديبا ، ومن شعره :

ليس شرب الكأس الا فى المطر
وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى
ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها
ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها
ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير[2] . وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التى كانت قد طمست وأقام فى كثير من المدائن المساجد والمستشفيات

(١) شاهنشاه كلمة فارسية معناها « ملك الملوك » وقد صيغت على غرار اللقب القديم للملكية . وانظر تاريخ العرب ٦١١/٢ .

(٢) تاريخ الأمم الاسلامية ٣٩٦/٣ .

والمبانى العامة ، وخصص جزءا من أموال الدولة لأعمال الخير والاحسان ، ومن المبانى الهامة التى شيدها «مشهد الامام على» . ولكن أشهر مبانيه على الاطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسمى « البيمارستان العضدى » وكلف الخزانة مائة ألف دينار . وكان يعالج المرضى فى المستشفى أربعة وعشرون طبيبا كانوا أيضا بمثابة هيئة تدريس فى كليته الطبية .

وكثيرا ما تغنى الشعراء من أمثال المتنبى بمدح عضد الدولة ، كما أهدى اليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوى المشهور أبى على الفارسى الذى ألف كتاب « الايضاح » ورفعه اليه [(١)] .

وولى الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة الذى اجتمع القواد بعد وفاة أبيه على بيعته . وكان اخوته وبنو أعمامه متفرقين فى الولايات : فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة « بفارس » ، وعمه « مؤيد الدولة أبو منصور بويه » بجرجان ..

وقد مكث صمصام الدولة قائما بأمر العراق فى جو مضطرب من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه ، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل ، فانتهز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس ، وتجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق ، فسار بجيشه سنة ٣٧٥ هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه « أبى الحسن الملقب بتاج الدولة » ثم سار الى البصرة فملكها ، واصطلح

---

(١) تاريخ العرب ٢/٦١١ .

الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، فخطب لشرف الدولة بالعراق ، وسيرت اليه الخلع من الطائع لله ، فلما وردت عليه الرسل بذلك ليحلفوه رجع عن الصلح ، وسار الى واسط فملكها ، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند ، فقر رأيه على اللحاق بأخيه والدخول فى طاعته ، فسار اليه ، وقبض عليه شرف الدولة ، وسار الى بغداد فدخلها فى رمضان سنة ٣٧٦ هـ . وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً .

وفى عهد صمصام الدولة توفى عمه « مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة » صاحب جرجان ، وتولى أخوه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد ، والوزير الكبير « الصاحب ابن عباد » ..

ونقف عند هذا الحد من أخبار بنى بويه ، لنصل الى صاحبنا « الصاحب بن عباد » فان أحاديثهم تطول ، ولكن الحديث الذى لا مناص منه ، لشدة صلته بموضوعنا ، هو عناية بنى بويه بالعلم والأدب ، وحبهم للعلماء والأدباء ، على الرغم من تلك الأحداث الخطيرة والاضطرابات التى من شأنها ألا تدع لأصحابها فرصة للتفكير أو الافتنان الا فيما يثبت ملكهم ويحفظ حياتهم ، ويقيهم تربص أعدائهم وثورات جنودهم .

أدب بني بويه

كان بنو بويه يحبـون العلم والأدب ، ولا يسـتوزرون أو يستكتبون الا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان أشـهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم ، كابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وسابور بن أردشير .. فضلا عن الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة ..

على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحـد فى الأدب والشعر [١] .

وأشهر بنى بويه فى ذلك عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ) وكان كما يقول الثعالبى [٢] على ما مكن له فى الأرض ، وجعل اليـه من أزمة البسط والقبض ، وخص به من رفعة الشأن ، وأوتى من سعة السلطان يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شـعرا كثيرا .. ووصـف الصاحب بن عباد بعض شعره فى قوله : .. « وأما قصيدة مولانا فقد جاءت ومعها عزة الملك ، وعليها رواء الصدق ، وفيها سيما العلم ، وعندها لسان المجد ، ولها صـيال الحق » .. وفى قوله: « لا غرو اذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين

---

(١) جرجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) ٢/٢٢٤ .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٢/٢١٦ .

وقعت على مثله ، ولا أذن سمعت بشبهه » .. وقوله « لو استحق شعر أن يعبد لعذوبة مناهله ، وجلالة قائله ، لكانت قصيدته هى . الا أنى اتخذتها عند امتناع ذلك قبلة أوجه اليها صلوات التعظيم، وأقف عليها طواف الاجلال والتكريم » .. وفى قوله : شعر قد حبس خدمته على فكره ، ووقف كيف شاء على أمره ، فهو يكتب فى غرة الدهر ، ويشدخ جبهتى الشمس والبدر » . وقال أبو بكر الخوارزمى : كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء الظرفاء ، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ، ولا يحضر شىء من الطعام والشراب وآلاتهما الا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شعرا حسنا . فبينما هو ذات يوم معه على المائدة ينشد كعادته بهطة « أرز يطبخ باللبن والسمن » فنظر عضد الدولة كالآمر اياه بأن يصفها ، فأرتج عليه ، وغلبه سكوت معه خجل ، فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها يا مدعى الأوصاف بالزور
كأنها فى الجام مجلوّة لآلىء فى ماء كافور

ومن شعره فى وصف الخيرى (١) :

طيب رائحة من نفحة الخيرى اذا تمزق جلباب الدياجير
كأنما رشّ بالماورد أو عبقت فيه دواخن ند عند تبخير
كأن أوراقه فى القد أجنحة صفر وحمر وبيض من دنانير

وألف له أبو على الفارسى كتاب الايضاح والتكمله فى النحو ، وقصده فحول الشعراء فى عصره كالمتنبى والسلامى وغيرهما ،

(١) نبات ذو زهر عبق الرائحة .

ومن شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير ، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنبارى التى مطلعها :

علوّ فى الحياة وفى الممات　　لحق أنت احدى المعجزات

ومن نكاته الأدبية أن « أفتكين التركى » صاحب دمشق كتب اليه : ان الشام قد صفا وصار فى يدى .. وان قويتنى بالأموال والعدد حاربت القوم فى مستقرهم » ! فكتب عضد الدولة جوابه كلمات متشابهة فى الخط لا تقرأ الا بعد الشكل والنقط والضبط وهى « غرّك عزّك ، فصار قصار ذلك دلّك ، فاخش فاحش فعلك ، فعلك بهذا تهدا » !

ومن آدب بنى بويه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار ابن معز الدولة ، ومن شعره :

فيا حبذا روضتا نرجس　　تحيى الندامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا　　عقارا بكأس كأجفانها
ومسنا من السكر ما بيننا　　نجرّ ريطا[1] كقضبانها

ومن خمرياته قوله :

اشرب على قطر السماء القاطر
فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها
درّا نثيرا بين نظم جواهر

---

(1) الريط جمع ريطة وهى الملاءة اذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين .

من كفّ أغيد يستبيك اذا مشى
بدلال معشوق ونخوة شاطر

والماء ما بين الغصون مصفق
مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعره الغزلى :

وفاؤك لازم مكنون سرّى
وحبّك غايتى والشوق زادى

وخالك فى عذارك فى الليالى
سواد فى سواد فى سواد

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة ، ويقال انه كان آدب آل بويه وأشعرهم وأكرمهم ، وكان يلى الأهواز ، فأدركته حرفة الأدب ، فأدت الى نكبته وحبسه من جهة أخيه أبى الفوارس . وكل شعره رائق عذب جميل ، ومنه قوله :

سلام على طيف ألمّ فسلّما
وأبدى شعاع الشمس لما تكلما

بدا فبدا من وجهه البدر طالعا
لدى الروض يستعلى قضيبا منعما

وقد أرسلت أيدى العذارى بخده
عذارا من الكافور والمسك أسحما[1]

---

(١) العذارى جمع عذراء وهى البكر ، والعذار جانب اللحية والسحمة السواد والأسحم الأسود .

وأحسب هـاروتا أطـاف بطـرفه

فعلّمـه من سـحره فتعلّمـا

ألمّ بنا فى دامس الليـل فانجـلى

فلمـا انثنى عنّـا وودّع أظلمـا

وأنشد له بديع الزمان الهمذانى هذين البيتين :

هب الدهـر أرضانى وأعتب صرفه

وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر

فمن لى بأيام الشـباب التى مضت

ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

ومن شعره الفاخر الحماسى :

ألا شـفيت علتى	من العـداة بالتى
وصـارم مهنـد	ماض رقيق الشـفرة
وليـلة أحييتهـا	منـوطة بليـلة
كأنمـا نجـم الثريـ	ـا فى الدجى ومقـلتى
جوهرتا عقـد على	نحـر فتـاة طفـلة
أفكـر فى بنى أبى	وفعل بعـض اخوتى
تظن أنى أحمل الضيـ	ـم فأين همـتى
تقنـع بالأهـواز لى	وواسـط والبصرة
لست بتـاج الدولة	سـليل تاج المـلة

ان لم تزر بغداد بى   عما قليــل كبّتى[1]
وعســكر عــرمرم   يمــلك كل بــلدة
حشو الجبال والفلا   مــواكب من غلمتى
نصرتهــم منى ومن   ربّ السماء نصرتى

ومن قوله فى النكبة :

حتى متى نكبات الدهر تقصدنى
لا أستريح من الأحــزان والفكر
اذا أقول مضى ما كنت أحذره
من الزمان رمانى الدهر بالغــير
فحسبى الله فى كل الأمور فقــد
بدلت بعد صفاء العيش بالكدر

ويكفى هذا القدر من الاستشهاد لهذا الشعر الرائع الجميل ، يتفجر من شاعرية ثرة مطبوعة . ومن شعراء بنى بويه أبو العباس خسر وبن فيروز بن ركن الدولة ، أنشد له الثعالبى فى اليتيمــة هذه الأبيات من خمرياته :

أدر الــكأس علينـــا   أيهــا الســاقى لنطرب
من شــمول مثل كأس   فى فم الندمان تغرب[2]
فحكت حــين تجلت   قمـــرا يلثــم كوكب

---

(١) الكبة بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء ـ الدفعة فى القتال والجرى ، والحملة فى الحرب ، والزحام ، وافلات الخيل .
(٢) الشمول الخمر .

ورد خـــديه جـنىّ   لكن الناطور عقرب [1]
فاذا ما لــدغت فالــر   يق درياق مجــرب [2]

ولا شك أن ملوكا هــذا أدبهم ، وتلك آثار شاعريتهم ، لجدير بالأدب أن يزدهر فى دولتهم ، وأن يعز بنصرتهم ، وأن يطلب الزلفى به اليهم ، كل صاحب موهبة وفن ، وهكذا كان ..

---

(١) الناطر والناطور حافظ الكرم .

(٢) الدرياق ـ بالدال ـ والترياق ـ بالتاء ـ بالكسر فيهما دواء السموم ، وهو فارسى معرب .

الفصل الثاني

الصاحب بن عباد

الصاحب بن عباد

هو أبو القاسم اسماعيل بن أبى الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ادريس الطالقانى ..

و « الطالقان » التى ينسب اليها — بفتح الطاء واللام — كما ذكر ابن خلكان ، اسم لمدينتين احداهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوين . وأصل الصاحب من طالقان قزوين ، لا طالقان خراسان (١) ..

وذكر ياقوت أن الصاحب من أهل « الطالقان » وهى ولاية بين قزوين وأبهر ، قال : وهى عدة قرى يقع عليها هذا الاسم ، وبخراسان بلدة تسمى « الطالقان » غير هذه ، خرج منها جماعة من أهل العلم ، هكذا نسبه المحدثون (٢) ..

وكان أبوه عباد يكنى بأبى الحسن ، ويلقب « الأمين » ، قال أبو حيان فى « أخلاق الوزيرين » انه كان خيرا ، مقدما فى صناعة الكتابة .. وكان الأمين ينصر مذهب الأشنانى تدينا ، وطلبا للزلفى عند ربه ، وكان قبل ذلك معلما بقرية من قرى طالقان الديلم ، ثم كان من أهل العلم والفضل سمع أبا خليفة الفضل بن الخباب وغيره من علماء بغداد وأصفهان والرىّ ،

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٢٣٠ .
(٢) معجم الأدباء ١٦٩/٦ .

وصنف كتابا فى أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه ، وروى عنه جماعة فى مقدمتهم ابنه الوزير أبو القاسم بن عباد وابن مردويه الأصفهانى .. وكان عباد كاتبا ووزيرا لركن الدولة البويهى ، ومات سنة خمس وثلاثين وثلثمائة[1] .

وعلى هذا فقد كان عباد وزيرا قبل أن يكون ابنه الصاحب وزيرا . قال صاحب سلم الوصول فى ترجمة الصاحب : هو الوزير الأديب ابن الوزير الطالقانى .. وكان أبوه وزير ركن الدولة بن بويه[2] وحدث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى فى كتاب « مشارب التجارب » وذكر الصاحب ، فقال : أبو القاسم اسماعيل ابن عباد بن عباس ، الوزير بن الوزير ، كما قال الرستمى فيه :

ورث الوزارة كابرا عن كابر   موصولة الاسناد بالاسناد[3]
يروى عن العباس عباد وزا   رته واسماعيل عن عباد

وقال فيه أبو بكر الخوارزمى : الصاحب نشأ من الوزارة فى

(١) هكذا ذكر صاحب « سلم الوصول » . وتردد ابن خلكان بين سنتى ٣٣٤ و ٣٣٥ قال فى ترجمة الصاحب « وتوفى والده أبو الحسن عباد بن العباس فى سنة أربع أو خمس وثلاثين وثلثمائة رحمه الله تعالى ، وقال ابن الجوزى فى « المنتظم » : مات عباد فى السنة التى مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وفى كلام ابن الجوزى شك كثير ! اذ كان عباد على هذه المنزلة فكيف يطوى التاريخ ذكره طوال الزمن الذى سطع فيه نجم ابنه ، وهو زمان طويل ؟ وكل ما يذكر هو أن زوجته ــ أم الصاحب ــ توفيت فى المحرم سنة ٣٨٤ هـ .

(٢) سلم الوصول (مخطوط) الورقة ١٦٦ .

(٣) الاسناد فى الحديث رفعه الى قائله .

حجرها ، ودبّ ودرج من وكرها [1] ، ورضع أفاويق درّها[2] ، وورثه عن آبائه ، كما قال أبو سعيد الرستمى .. وأنشد البيتين[3].

* * *

وكانت ولادة الصاحب سنة ست وعشرين وثلثمائة فى ذى القعدة ، وتوفى ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة بالرىّ ، ثم نقل الى أصبهان ، ودفن فى قبة بمحلة تعرف بباب دَرِيه ..

وقد علم الصاحب أبوه ، ولقنه ما شاء من علم وأدب ، وقرآن وكلام ، ومنظوم ومنثور ، ليعدّه لما كان يرجو له من المنزلة بين العلماء والأدباء والوزراء ، وكان أبوه كما تقدم كاتب ركن الدولة بن بويه الديلمى ووزيره ، فكان يطمع أن يكون لابنه ما كان له من خدمة الملوك ، فينال بذلك مجد الدنيا وثواب الآخرة ، فقد كان دينا خيّرا يطلب الزلفى عند ربه ، وكان العميد يكتب لصاحب خراسان ، ولم يزل أبو الفضل بن العميد فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكور الجبل وفارس ، يتدرّج الى المعالى ، ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ،

---

(١) دب الماشى اذا سار على هينته ولم يسرع ، ودرج مشى ، ودرج الصبى والشيخ اذا مشى مشيا ضعيفا ، والوكر عش الطائر وموضعه الذى يبيض فيه ويفرخ .

(٢) الفيقة اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين ، وجمعه أفواق ، وجمع الجمع أفاويق . ومعنى العبارة أنه تربى فى بيئة الوزارة طفلا ونشأ فيها صغيرا .

(٣) وفيات الأعيان ٢١٩/٢ .

واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل ، وخدمة الكبراء . وانتجعه الشعراء ، وورد عليه أبو الطيب المتنبى عند صدوره من حضرة كافور الاخشيدى ، فمدحه بتلك القصيدة المشهورة السائرة التى منها :

من مبلغ الأعـراب أنى بعـدها
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكـا متبـــدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضـلين كأنمـا
ردّ الاله نفوسـهم والأعصرا

* * *

وكان الصاحب بن عباد فى بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل بن العميد عليّا خاصة ، فترقت به الحال الى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخى عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمى . وكان مؤيد الدولة حينئذ أميرا ، وأحسن فى خدمته ، وحصل له عنده بطول الخدمة قدم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافى الكفاة .

قال ابن خلكان : هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، فقيل له « صاحب ابن العميد » ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقى علما عليه. وذكر الصابى فى كتاب « التاجى » أنه انما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا ، وسماه الصاحب ،

فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به ، ثم سمى به كل من ولى الوزارة بعده ..

وكانت لأبى الفضل بن العميد فى نفس تلميذه الصاحب منزلة كبيرة ، فكان يجله ويكرمه ، ولعل الصاحب لم يمدح بشعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح به أستاذه أبا الفضل ، فمدحه فيه كثيرة استفرغ فيها جهده ، وألغى حميته ، فمن عيون شعره فيه قوله من قصيدة :

من لقلب يهيم فى كل واد	وقتيل للحب من غير واد
انما أذكر الغوانى والمقـ	ـصد سعدى مكثرا للسّواد
واذا ما صدقت فهى مرامى	ومنائى وروضتى ومرادى
وندى ابن العميد أنى عميد	من هواها ألية الأمجاد
لو درى الدهر أنه من بنيه	لازدرى قدر سائر الأولاد
أو رأى الناس كيف يهتز للجو	د لما عددوه فى الأطواد
أيها الآملون حطوا سريعا	برفيع العماد وارى الزناد
فهو ان جاد ضن حاتم طىّ	وهو ان قال قل قس اياد
واذا ما ارتأى فأين زياد	من علاه وأين آل زياد
أقبل العيد يستعير حلاه	من علاه العزيزة الأنداد
سيضحى فيه لمن لا يواليـ	ـه ويبقى بقية الأعياد
ومديحى وان لم يكن طال أبيا	تا فقد طال فى مجالى الجياد
ان خير المداح من مدحته	شعراء البلاد فى كل ناد

قال الثعالبى : ما أحسن ما أدمج الافتخار فى أثناء المدح[1] ..

---

(١) يتيمة الدهر ١٥٧/٣ .

ومن شعر الصاحب فى توديع أبى الفضل بن العميد ، وفيه يظهر حبّه واجلاله ، وحرصه على أن يكون معه أينما سار ؛ ويذكر بعض نعماه عنده :

أودّع حضرتك العاليه ونفسى لا دمعتى هاميه
ومن ذا يودع هذا الجناب فتهنئوه بعده العافيه
جناب رعيت به جنة قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا وعلّمت ما الهمم العاليه
كأنى ببغداد فى شوقها اليك وأدمعها الجاريه
وأنت المرجّى لاظفارها بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لى فى المسير اذا سرت فى جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطريق وسرت وفى يدى الغاشيه

وقد كان أبو الفضل بن العميد الأستاذ الذى خدم بفنه الصاحب ، وهو فن الكتابة الذى أوصله الى ما وصل اليه من منصب الوزارة ؛ فكان تعليمه التعليم المفيد النافع فى الحياة وفى العمل وفى الفن الكتابى الذى كان أستاذا فيه ، وصاحب منهج وطريقة متميزة .

* * *

ولابن عباد أستاذ آخر هو أبو الحسين أحمد بن فارس الذى حمل الى الرىّ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة على بن ركن الدولة بن أبى الحسن بويه الديلمى صاحب الرىّ فأقام بها قاطنا .

وكان أبو الحسين أستاذا لأبى الفتح على بن أبى الفضل بن

العميد ، كما كان أستاذا للصاحب بن عباد ، وكان الصاحب يكرم ابن فارس ، وكثيرا ما كان يقول : شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف .. !

وكان ابن فارس اماما فى علوم شتى ، وخصوصا اللغة ، فانه أتقنها وألف كتابه « المجمل » فى اللغة ، وهو على اختصاره جمع شيئا كثيرا ، وله كتاب حلية القراء ، وله رسائل أنيقة ، ومسائل فى اللغة تعانى[1] بها الفقهاء ، وله أشعار كثيرة حسنة[2] .

وقد وفى ابن فارس لتلميذه الصاحب بن عباد ، وفاء علميا كبيرا ، واعترف له بما بلغه من درجة عالية فى العلم والثقافة والأدب ، فضلا عما بلغه من رفيع المنزلة فى عالم السياسة والادارة ، وفرحة الأستاذ بتلميذه اذا ابتسمت له الحياة لا تعد لها فرحة أخرى ، لأنه يرى أنه شارك فى اقامة مجده ، وربما رأى أنه سبب من أعظم أسباب نجاحه وتفوقه ..

وآية هذا الوفاء ذلك الكتاب الممتاز الذى ألفه ابن فارس فى « فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » والذى لقبه بلقب تلميذه ، فسماه « الصاحبى » وأهداه اليه ، وكتب فى مقدمته : هذا « الكتاب الصاحبى » فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها . وانما عنونته بهذا الاسم لأنى لما ألفته أودعته خزانة « الصاحب » الجليل كافى الكفاة ، عمر الله عراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تجملا بذلك وتحسنا ، اذ كان

---

(١) تعانى بها الفقهاء : اهتموا بها واحتفلوا .
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٥٢ .

ما يقبله كافى الكفاة من علم وأدب مرضيا مقبولا ، وما يرذله أو ينفيه منفيا مرذولا ، ولأن أحسن ما فى كتابنا هذا مأخوذ عنه ، ومفاد منه (١) ..

ولم ينس ابن فارس أن يذكر الصاحب وأن يدعو له قبل أن يلقى القلم ، فكتب فى آخر كلماته فى الكتاب : « وهـذا تمام الكتاب الصاحبى » أتم الله على « الصاحب » الجليل النعم ، وأسبغ له المواهب ، وسنّى له المزيد من فضله ، انه ولىّ ذلك ، والقادر عليه . وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) ..

وفى هذا الاهداء الكريم من ابن فارس ، وفى ذلك الثناء الذى قرأناه للصاحب فى قوله « شيخنا أبو الحسين .. » دليل على الحب المشترك ، والتقدير المتبادل بين الأستاذ الكبير والتلميذ النبيل .

ولكن يبدو أن السياسة لعبت دورها فى التفريق بين الرجلين، وفى قطع أواصر الودّ وصلات التقدير بينهما ..

ذلك أن خلق الوفاء الذى تمكن من ابن فارس لتلاميذه ولمن أسدى اليه صنيعة جعله يبقى على وفائه وولائه لآل العميد كما كان على وفائه وولائه للصاحب ، وقد كان بين أبى الفتح بن العميد والصاحب من التنافس على السيادة ، ومحاولة كل منهما الانفراد بالأمر ، ما قطع بينهما حبال الود ، وانتهى بهما الى

(١) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢ .
(٢) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢٣٢ .

القطيعة ، فلم يرض الصاحب — فيما يظن — عن ابقاء ابن فارس على مودة ابن العميد والاخلاص لهم ، فانحرف عنه ..

وآية ذلك ما رواه الثعالبي عن أبي الحسين النحوي في قوله : « كان الصاحب منحرفا عن أبي الحسين بن فارس لانتسابه الى خدمة ابن العميد ، وتعصبه له ، فأنفذ اليه من همـــذان كتاب « الحجر » من تأليفه ، فقال الصاحب : ردّ « الحجر » من حيث جاءك ! ثم لم تطب نفسه بتركه ، فنظر فيه ، وأمر له بصلة[١] ..

وذكر هذا أيضا القفطي في انباه الرواة ، فقال عن ابن فارس انه كان شديد التعصب لآل العميد ، وكان الصاحب يكرهه لأجل ذلك ، ولما صنف كتاب « الحجر » وسيره اليه في وزارته قال : ردّوا الحجر من حيث جاء ! وأمر له بجائزة ليست سنية[٢] . وذلك أن ابن فارس استمر على صلته بتلميـــذه أبي الفتح بن العميد بعد وفاة أبيه أبي الفضل بن العميد ، فهل كان في استدامة الصلة بين الأستاذ وتلميذه ما يغضب الصاحب بن عباد ؟ وما أسباب ذلك السخط ؟ وما علاقة الصاحب بأبي الفضل ثم بابنه أبي الفتح ؟ ذلك ما نفصله في الكلمات التالية .

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٢٠٠ .

(٢) انباه الرواة على انباه النحاة ١/٥٣ .

الصاحب وابن العميد

ذكرنا فى شىء مما مضى كيف تلطف على بن بويه الذى لقب فيما بعد « عماد الدولة » مع الحسين بن محمد الملقب « العميد » الذى كان وزيرا لمرداويج بن زيار ، حين تنازل له عن ثمن البغلة الشهباء ، وأرسل اليه هدية جميلة ، وما كان من أثر هذا الصنيع فى قلب ابن العميد الذى ردّ الجميل ردًّا كأعظم ما يكون الردّ ، لأن هذا الردّ كان مفتاح مجد بنى بويه ، ولولاه لهلكوا جميعا على يد مرداويج أو على يد أخيه وشمكير بن زيار ، أو لبقوا فى الأقل كما كانوا من الدهماء المغمورين اذا كتبت لهم النجاة من يد مرداويج وأعوانه ، فالعميد هو الذى قرأ كتاب مرداويج قبل أن يقرأه أخوه وشمكير ، وهو الكتاب الذى يأمر فيه أن يمنع بنى بويه وسائر القواد الذين كانوا معهم من المسير الى ولاياتهم الذى تسرّع فى اسنادها اليهم ، ثم ندم على ما كان منه .

والعميد هو الذى أنفذ الى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ، ويطوى المنازل ، قبل أن يقرأ وشمكير كتاب أخيه وينفذ ما فيه .

ثم كان ما كان من أحـداث انتهت بذلك السلطان الكبير والملك الواسع ، والمجد التاريخى الذى كتب لبنى بويه .

ومن الطبيعى ألا ينسى أبناء بويه هذا الفضل العظيم وتلك المأثرة الخالدة التى طوق أعناقهم بها العميد .

والعميد (أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلة) أصله من قم ، وكان يكتب لما كان بن كالى فلما قتل ما كان فى المعركة واستبيح عسكره ، وحمل قواده وخواصه مقرنين فى الأصفاد الى الحضرة ببخارى ، وفى جملتهم أبو عبد الله الذى نفعته شفاعة فضله ونبله ، فأطلق عنه وأكرم ورتب فى الدار السلطانية ، وتقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر السامانى ملك بخارى ، ولكن بخارى لم تتسع له ، فذهب الى بلاد الجبل حيث بنو بويه الذين أكرموا وفادته ، وقدروا ما سلف من صنيعته فيهم ، فأغدقوا عليه كما أغدقوا على ابنه أبى الفضل الحسين بن محمد الذى اشتهر بابن العميد ، والذى كان يدعى الجاحظ الأخير ، والأستاذ ، والرئيس . وقد نشأ أبو الفضل شغوفا بتحصيل العلوم العقلية واللسانية ، فبرع فى علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ فى الأدب والكتابة نبوغا جعله واحد عصره . ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكور الجبل وفارس يتدرج الى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل وخدمة الكبراء ، وانتجعه الشعراء ..

وقد عرفنا أن الصاحب بن عباد أحد تلامذته ، وأنه كان أقرب تلاميذه اليه ، وأكثرهم صحبة له ، حتى كان لقب « الصاحب » الذى لقب به ابن عباد ثمرة لهذه الصحبة ، وقد عرف ابن عباد

فضل أبى الفضل عليه ، فهو الذى علّمه علمه وأدبه ، ولقنه طريقته فى الكتابة ، ودربه على أعمال الكتابة والوزارة .. وقد قرأنا بعض مدائح الصاحب فيه التى كانت فى حقيقتها اعترافا بفضله ، وتقديرا لحسن ما أسدى اليه . وفى الوقت نفسه كان الصاحب فى موضع الثقة من قلب أستاذه ، صان ودّه ، وحفظ سرّه ، وكان أبو الفضل يطمئن كل الاطمئنان الى الصاحب ، فكان حريصا على أن يوافيه بما يستطيع من ثمرة تجاربه وملاحظاته فى كل أمر يعنيه .

ومن أمثلة ذلك ما كتب الصاحب الى أبى الفضل فى العراق ، ليعرفه من أخباره وأخبار المهلبى أبى محمد الحسن بن محمد وزير معز الدولة ومن أخبار سياسته وأدبه ما يستطيع أن يعرف ، ونرى الصاحب يطنب لأبى الفضل فى وصف ما رأى ، ويذكر من التفاصيل ما يجعل ابن العميد كأنه حاضر يشهد بعينه كل صغيرة مما يدور فى مجالس الوزير المهلبى . ومن ذلك ما كتبه الصاحب الى ابن العميد أبى الفضل :

« وردت — أدام الله عز مولانا — العراق ، فكان أول ما اتفق لى استدعاء مولاى الأستاذ أبى محمد أيده الله ، وجمعه بين ندمائه من أهل الفضل وبينى .. وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف خفيف الروح أديب ، متقعر فى كلامه لطيف يعرف بالقاضى ابن فريعة ، فانه جارانى فى مسائل خفّتها تمنع من ذكرها ... ومنها أن كهلا تطايب بحضرة الأستاذ أبى محمد أيده الله سأله عن حد

القفا مريدا تخجيله ، فقال : هو ما اشـتمل عليه جربانك[1] ، ومازحك فيه اخـوانك ، وباسطك فيه غلمانك ، وأدّبك عليه سلطانك ، فهذه حدود أربعة .. فانصرفت وقد ورد الخبر بمضى أبى الفضل صاحب البريد — رضى الله عنه ورحمه ، وأنسأ أجل مولانا ومدّ فيه — فساعدت القوم على الجلوس للتعزية عنه لما كان يعرف من الحال بينى وبينه :

صلة غدت فى الناس وهى قطيعة

عجبـا ، وبرّ راح وهو جفـاء

فما تمكنت أن جاءنى رسول الأستاذ أبى محمد — أيده الله — يستدعينى ، فعرفته عذرى ، وحسبته يعفينى ، فعاودنى بمن استحضرنى ، فدخلت عليه وقد قعد للشرب فأكرهنى عليه ، ثم قال : أتعرف أحسن صنيعا منى بك ، وقد نقلتك عن «واحرباه» الى « واطرباه » [2] . وسمعت عنده خادمه المسمى « سلافا » وهو يضرب بالطنبور ويجيد ، ويغنى ويحسن ، وفيه يقول وقد شربنا عنده سلافا :

قد سـمعنا وقد شربنا سـلافا

وجمعنـا بلطفـه أوصـافا

وشاهدت من حسن مجلسـه وخفة روح أدبه وانشـاده

---

(١) جربان القميص ـ بضمتين أو كسرتين مع تشديد الباء ـ جيبـه .

(٢) أى من الحزن والندبة الى المسرة والطرب .

للصنوبرى وطبقته ما طاب به الوقت ، وهشّت له النفس ، وشاكل رقة ذلك الهوى ، وعذوبة ذلك اللمى ..

« قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض مستدير ينصب اليه الماء من دجلة بالدواليب ، وقد مدت الستارة، وفيها حسن العكبراوية فغنّت :

سلام أيها الملك اليمانى
لقد غلب البعاد على التدانى

فطرب الأستاذ أبو محمد بغنائها ، واستعاد الصوت مرارا ، واتبعته أبياتا وهى :

تطوى المنازل عن حبيبك دائما
وتظل تبكيه بدمع ساجم
هلا أقمت ولو على جمر الغضا
قلبت أو حد الحسام الصارم

وتبعتها جارية ابن مقلة ، ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها ، فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يا من له رتب ممكنة القواعد فى الفؤاد
أيحل أخذ الماء من متلهب الأحشاء صاد ؟

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا فى الشرب ، واشتغل فى الشدو ، وارتفع الأمر عن الضبط ، والأصوات عن الحفظ ، واتفقت فى أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات ومجاوبات ، وافترقنا[1] ..

---

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٢٩ وقال الثعالبى انه مستخرج من كتاب « الروزنامجة » للصاحب .

وهذا حديث ينبىء عن الودّ الصافى ، والوفاء الجميل ، والا ما كلف الصاحب نفسه هذا العناء فى الوصف والاستقصاء ليقف أستاذه على أحوال غيره من رجال الدولة ووزرائها .

* * *

وكان أبو الفضل بن العميد — فى أكبر الظن — هو الذى رشح الصاحب للكتابة لمؤيد الدولة ، وقد كتب بذلك كتابا يحث الصاحب على قبول ما رشحه له ، ويذكر ما دار حول اختياره ، وكان الصاحب يباهى بتلك الرقعة التى كتبها اليه أبو الفضل حين استكتبه لمؤيد الدولة ، وقد جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، مولاى ، وان كان سيدا ، بهرتنا نفاسته ، وابن صاحب تقدمت علينا رياسته[1] ، فانه يعدّنى سيدا ووالدا ، كما أعده ولدا واحدا ، ومن حق ذلك أن يعضد رأيى برأيه ، ليزداد استحكاما ، وتتظاهر[2] عقدا وابراما ..

« وحضرت اليوم مجلس مولانا ركن الدين ، ففاوضنى ما جرى بينه وبين مولاى طويلا ، ووصل به كلاما بسيطا ، وأطلعنى على أن مولاى لا يزيد بعد الاستقصاء والاستيفاء على التقصّى والاستعفاء ، وألزم عبده أن أكره مولاى اكراها فى المسألة ، وأجبره اجبارا فى الطلبة ، علما بأنه ان دافع المجلس المعمور طلبا للتحرّز لم يردّ وساطتى أخذا بالتطوّل .. وأقول بعد أن أقدم مقدمة :

---

(١) يشير الى أبيه « عباد بن عباس » الذى كان وزيرا لركن الدولة ، وكان يلقب « الأمين » .
(٢) أى نتعاون ونتضافر .

مولاى غنىٌّ عن هذا العمل بتصونه وتصلفه وعزوفه ، وبهمته عن التكثر بالمال وتحصيله ..

« لكن العمل فقير الى كفايته ، محتاج الى كفالته . وما أقول: ان مرادى ما يقعد من حساب ، وينشأ من كتاب ، ويستظهر به من جمع وبذر ، ومن عطاء ومنع . فكل ذلك وان كان مقصودا ، وفى آلات الوزارة معدودا ، ففى كتّاب مولاى من يفى به ويستوفيه ، ويوفى عليه ما يسر مساعيه . ولكن ولىّ النعمة يريده لتهذيب ولده ، ومن هو ولى عهده من بعده ، والمأمول ليومه وغـــده . أدام الله أيامه ، وبلغه فيه مرامه [1] ولابد ، وان كان الجوهـــر كريما ، والسنخ[2] قديما ، والمجد صميما ، من ينوب مناب من تعلم ما السياسة ؟ وما الرياسة ؟ وكيف تدبير العامة والخاصة ؟ وبماذا تعقد المهابة ؟ ومن أين تجلب الأصالة والاصابة ؟ وكيف ترتب المراتب ويعالج الخطب اذا ضاقت المذاهب ؟ وتعصى الشهوة لتحرس الحشمة ، وتهجر اللذة لتحفظ الامرة . ولابد من محتشم يقوم فى وجه صاحبه ، فيردّه اذا بدر منه الرأى المنقلب ، ويراجعه اذا جمح به اللجاج المرتكب ، ويعاوده اذا ملكه الغضب الملتهب. فلم يكن السبب فى أن فسدت ممالك جمة وبلدان عدة الا أن خفضت أقدار الوزارة فانقبضت أطراف الامارة ، وليس يفسد على ما أرى بقية الأرض الا اذا استعين بأذناب على هذا الأمر ..

« فلا يبخلن مولاى على ولى نعمته بفضل معرفته ، فمن هذه

---

(١) يشير الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة .

(٢) السنخ ـ بكسر السين ـ الأصل .

الدولة جرى ما فضله ، وفضل الشيخ الأمين[1] من قبله ، وان كان مسموعا كلامى ، وموثوقا باهتمامى ، فلا يقعنّ انقباض عنى ، واعراض عما سبق منى ..

ومولاى محكم الاجابة الى العمل فيما يقترحه ، وغير مراجع فيما يشترطه . وهذا خطّى به ، وهو على ولىّ النعمة حجة لا يبقى معها شبهة ، وسأتبع هذه المخاطبة بالمشافهة ، اما بحضورى لديه ، أو بتجشمه الى هذا العليل[2] الذى قد ألحّ النقرس[3] عليه » ...

وكان الصاحب بن عباد يحفظ هذه النسخة ويرويها ويفتخر بهـا[4] .

والحقيقة أن هذه الوثيقة تلقى الضوء على كثير من محاسن الصاحب وآدابه ، فهى تسجل فضل أبيه عباد فى الوزارة والكتابة ، فهو فى نظر أبى الفضل صاحب تقدمت رياسته ، وابن العميد يجعل من نفسه للصاحب أبا بعد أبيه ، ويعترف للصاحب بالسيادة ثم يبرز حاجته فى عمله الى الصاحب ليعضد رأيه برأيه ، وليزداد أمره استحكاما . ثم ان هذه الوثيقة تسجل ما هو أكثر من ذلك ، وهو أن ركن الدولة قد ألحّ على الصاحب أن يقبل هذه الوصاية على ابنه مؤيد الدولة ، وأن الصاحب أصر على الاعتذار والاستعفاء وأنه تقدم الى أبى الفضل ليلح على الصاحب الحاحا ، ويكرهه اكراها ، ويجبره جبرا . وأن الدافع للصاحب الى هذا التأبّى

(١) يشير به الى أبى الصاحب ، الذى كان يلقب « الأمين » .
(٢) يعنى أبو الفضل بن العميد بالعليل نفسه .
(٣) هو مرض فى مفاصل الكعب وأصابع الرجلين .
(٤) معجم الأدباء ٦/٢٢٤ .

والتمنع هو عزوفه عن الدنيا وتحرزه من مفاتنها ، وأنه غنى بنفسه فهو يصونها الى درجة الصلف والكبرياء ، غير طامع فى مال ، ولا متطلع الى جاه . وقد وعد أبو الفضل الصاحب بن عباد بأن له كل ما يقترح ، ولن يرد له شرط مما يشترط ، وذلك ما لا يخاطب به الا السادة الموقرون الأباة ..

* * *

ذلك شيء يبين عن علاقة الصاحب الوطيدة بأستاذه أبى الفضل « ابن العميد الكبير » .. فماذا كانت تلك العلاقة بين الصاحب وبين ابنه « أبى الفتح » أو « ابن العميد » الصغير ؟

أما ابن العميد الصغير « أبو الفتح على بن محمد بن الحسين بن محمد » الملقب بذى الكفايتين ، الذى كان وزيراً لركن الدولة أبى على الحسن بن بويه بعد وفاة أبيه أبى الفضل ، ثم وزيرا لابنه مؤيد الدولة بويه بالرىّ وأصفهان وما اليها من أعمال الدولة ... فقد كان أبوه قد أدبه فأحسن تأديبه ، وهذبه أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فأحسن تهذيبه . وكان كما يقول الثعالبى : نجيبا ذكيا ، لطيفا سخيا ، رفيع الهمة ، كامل المروءة ، ظريف التفصيل والجملة ، قد تأنق أبوه فى تأديبه وتهذيبه ، وجالس به أدباء عصره وفضلاء وقته ، حتى تخرج وخرج حسن الترسل متقدم القدم فى النظم آخذا من محاسن الآداب بأوفر الحظ ، ولما قام مقام أبيه قبل الاستكمال ، وعلى مدى بعيد من الاكتهال ، وجمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة لقب

بذى الكفايتين ، وعلا شأنه ، وارتفع قدره [1] ، وقد كان قيامه مقام أبيه بعد وفاته سنة ٣٦٠ هـ ، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون سنة .

وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل قد كلف جماعة من ثقاته فى السرّ يشرفون على ابنه أبى الفتح فى منزله ومكتبه ، ويشاهدون أحواله ، ويعدون أنفاسه ، وينهون اليه جميع ما يأتيه وما يذره ، وما يقوله ويفعله ، فرفع اليه بعضهم أن أبا الفتح اشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث المترفون من عقد مجلس الأنس واتخاذ الندماء ، وتعاطى ما يجمع شمل اللهو فى خفية شديدة واحتياط تام ، وأنه كتب فى تلك الحالة رقعة الى من اسمه « أبو جعفر » فى استهداء الشراب ، فحمل اليه ما يصلحهم من المشموم والمشروب والنقل . فدس الأستاذ الرئيس الى ذلك الانسان من أتاه برقعة أبى الفتح الصادرة اليه ، فاذا فيها بخطه : « بسم الله الرحمن الرحيم . قد اغتنمت الليلة — أطال الله بقاك يا سيدى ومولاى — رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام، عدنا كبنات نعش[2]. والسلام» .. ويقال ان أبا الفضل لما اطلع على هذه الرسالة استطير فرحا واعجابا، وقال : الآن ظهر لى أثر براعته ، ووثقت بجريه فى طريقى ، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار ..

---

(١) اليتيمة ١٨١/٣
(٢) بنات نعش الكبرى سبعة كواكب .

ويبدو أن غرة الشباب قد أخذت مأخذها من أبى الفتح ، فلم يكن فى جد أبيه ووقاره ، وكان أبوه يأسى لبعض ما يجد منه مما لا يراه موافقا لما يرشحه له المنصب السيادة ، وما يجدر أن يأخذ نفسه به من الجد ولزوم السمت ..

حدث أحد أصحاب أبى الفضل بن العميد المختصين به قال : كان أبو الفتح بن أبى الفضل يباكر أباه فى كل يوم ، ويدخل اليه قبل كل أحد ، فاتفق أن دخل يوماً وأنا جالس عنده ، فلما رآه مقبلا فى الصحن وشاهد عمته ومشيته ، وهو يختال فيها ويسرف فى تلويها ، عجب من ذلك ، وقال لى : أما ترى الى هذه العمة وهذه المشية فى مخالفتها لعادتنا ومفارقتها طريقتنا ؟ فقلت : قد رأيت ، وان رسم [1] الأستاذ أن أخاطبه فيها وأنهاه عنها فعلت . فقال : لا تفعل ، فانه قصير العمر ، وما أحب أن أدخل على قلبه همّا ولا أمنعه هوى !

ووجد أبو الفضل لابنه أبى الفتح رقعة كتبها الى بعض من ينبسط اليه ، وفيها مجون فاحش نظمه فى بيتين [2] ، فلما وقف ابن العميد أبوه على ذلك غضب ، وقال : أمثل ولدى يكتب مثل هذا الفحش والفجور ؟ ثم قال : أما والله لولا ولولا .. ثم أمسك كأنه يشير الى ما حكم له من سوء العاقبة ، وقصر العمر !

* * *

---

(١) رسم الأستاذ أى أمر .

(٢) معجم الأدباء ٢٠٢/١٤ .

كان ذلك فى حياة أبيه ،فلما مات ألقى ركن الدولة مقاليده اليه ، وعول فى تدبير السيف والقلم عليه ، فلما جرى لعز الدولة بختيار بن معز الدولة ببغداد ما جرى مع غلامه سبكتكين ، وأرسل الى عمه ركن الدولة يستعين به ، تقدم الى أبى الفتح بالمضى الى شيراز والمسير فى صحبة ولده عضد الدولة لانجاد عز الدولة ، وورد الى بغداد ، وجرى ما جرى من موت سبكتكين ومحاربة أصحابه حتى انجلوا عنها ، وطمع عضد الدولة فى بغداد، وأراد القبض على بختيار ، فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه ، ويطالبوه بالأموال ، وأشار على بختيار ألا يلتفت الى شكواهم ، ويغلظ فى معاملتهم ، ثم قبض على بختيار واخوته ، وجمع الناس، وأعلمهم استعفاء بختيار وعجزه ووعد الجنود بالاحسان اليهم ، وسر الخليفة بذلك لأنه كان مجافيا لبختيار ، وقد قابله عضد الدولة وأظهر تعظيمه لرسوم الخلافة .. ولما بلغ ذلك ركن الدولة استاء منه جدا وعزم على أن يسير بنفسه الى العراق لاخراج ابنه عضد الدولة ، ولم يقبل فى ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حبا شديدا .. ولما عرف عضد الدولة ذلك لم يسعه الا اعادة بختيار الى ملكه ، والمسير الى فارس ..

وكان ركن الدولة قد كتب الى أبى الفتح بن العميد فى أثناء تلك الأحداث يطلب اليه أن يحول بكل ما استطاع من تمكين عضد الدولة مما أراد ، وأن يعمل بكل قوته وحيله على مفارقة عضد الدولة بغداد ، فتشدد ابن العميد على عضد الدولة فى ذلك، وخاطبه فيه مخاطبات حقدها عضد الدولة عليه ، فلما رجع عضد

الدولة قال لابن العميد : « ما حظيتُ من ورودى بغداد بفائدة وقد أطلقتُ بسببها أموالا لا تحصى ؟ ، فقال له أبو الفتح : ما سلم من الأعطيات سلطان ، ولا خلا من النفقات مكان ، ولو استقصيت مقدار ما فرقته لكنت مبذرا » .

فقال له عضد الدولة : « أما أنت فقد شرف قدرك ، وعلا ذكرك . كناك خليفة الله فى أرضه ولقّبك ، فأنت ذو الكفايتين أبو الفتح ، فأعظم بذلك من فخر يبقى بقاء النيرين ، ويدوم دوام العصرين » ..

وكان عضد الدولة يقول : « خرجت من بغداد وأنا « زريق الشارب » وخرج ابن العميد مكنى من الخليفة ، ملقبا بذى الكفايتين » !

وفى تاريخ أبى سعد منصور بن الحسين الآبى أن عضد الدولة كان ينقم[1] على أبى الفتح ابن العميد أشياء ، وكان من أعظمها فى نفسه حديثه ببغداد لما خرج لنجدة بختيار ، فانه جوّد القول والفعل فى ردّ عضد الدولة عن بغداد ، وأقام لنفسه بذلك ببغداد سوقا تقدم بها عند أهل البلد والخليفة ، حتى لقبه الخليفة « ذا الكفايتين » وكناه فى مكتوبه « بأبى الفتح » ..

ولما انصرف عضد الدولة عن بغداد ، وقد ظهرت له مخايل الغدر من بختيار من قيام أهل بغداد عليه ، وتصريحهم بالشتم له، ولقبوه زريقا الشارب » . وذلك أن عضد الدولة تقدم باتخاذ

(١) نقم عليه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .

مزمّلة [1] فى داره ليشرب منها الجند والعامة ، ولم يكن قد عهد مثل ذلك فى دور السلاطين من قبل ، وكان فى نفسه أزرق العين ، فلقبوه بذلك . فكان عضد الدولة يقول : خرجت من بغداد وأنا « زريق الشارب » وابن العميد : الوزير ، ذو الكفايتين ، أبو الفتح [2] ..

* * *

وعلى ذلك فقد عاد عضد الدولة الى فارس ، وهو ناقم على ابن العميد ، فقد عرف أنه عاد من بغداد دون أن يحقق شيئا من الآمال التى كان يتطلع اليها ، وضاعت منه الفرصة التى كان ينتظرها ، فى حين أن ابن العميد قد رجع راضيا مرضيا ، فقد اتصل فى بغداد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ، وقربهم اليه ، وحببهم فيه . وعرف له بختيار فى الوقت نفسه فضل ابن العميد فى ابقاء سلطانه وتثبت ملكه ، والحيلولة بين عضد الدولة وما كان يشتهى من القضاء عليه ، وتولى زمام ملكه .

وكان عضد الدولة لما عاد من بغداد الى فارس شرط على ابن العميد ألا يقيم ببغداد بعده الا ثلاثة أيام ، ثم يلحق بوالده بالرى . فلما خرج عضد الدولة طابت لابن العميد بغداد ، فاتبع هوى صباه ، وأحب الخلاعة والدخول مع بختيار فى أفانين من لهوه ولعبه ، ووجد خلوا من أشغاله ، وراحة من تدبير أمر صاحبه « ركن الدولة » مدة ، وتمكن من اللذات . وعرف له بختيار

---

(١) المزملة جرة أو خابية لتبريد الماء .
(٢) معجم الأدباء ٢٠٥/١٤ .

ما صنع فيه من الجميل ، فهو الذى خلصه وأعاد عليه ملكه ، وصرف عضد الدولة عن بغداد فكان بختيار يراه بصورة من خلصه من مخالب الأسد بعد أن افترسه ، وأن سعيه بين ركن الدولة وعضد الدولة هو الذى رد عليه ملكه ، فبسطه وعرض عليه وزارته وتمكينه من ممالكه ، وألا يعارضه فى شيء يدبره ويراه ، فلم يجبه أبو الفتح الى ذلك ، وقال : « لى والدة وأهل وولد ونعمة قد رتبت منذ خمسين سنة ، وهى كلها فى يد ركن الدولة ، ولا أستطيع مفارقته ، ولا يحسن بى أن يتحدث عنى بمخالفته ، ولا يتم أيضا لك مع ما عاملك به من الجميل . ولكنى أعاهدك ان قضى الله عزّ وجل على ركن الدولة ما هو قاض على جميع خلقه أن أصير اليك مع قطعة عظيمة من عسكره ، فانهم لا يخالفوننى . وركن الدولة مع ذلك هامة اليوم أو غد[1] ، وليس يتأخر أمره » .

واستقر ذلك بينهما سرّا ، لم بطلع عليه الا محمد بن عمر العلوى ، فانه توسط بينهما ، وأخذ عهد كل واحد منهما على صاحبه ، ولم يظهر ذلك لأحد ..

* * *

تلك قصة ابن العميد فى رحلته الى بغداد أصاب فيها جاها عظيما ، وتطلع الى أمل عريض فانه سيكون كما أمل وزير الدولة كلها فى حاضرة الخلافة الكبرى ، لا كاتبا أو وزيرا فى ولاية صغيرة من ولايات الدولة وأعمالها التى لا تكاد تحصى .

---

(١) مثل يضرب لمن قرب أجل حياته .

ولا شك أن هذه الأنباء قد وصلت الى عضد الدولة بعد عودته ، وكانت من أهم الأسباب فى زيادة اشتعال أحقاده عليه ، وتبرمه به ، وتربصه ليوم القصاص .

* * *

ولم يلبث ركن الدولة أن قضى نحبه فى سنة ٣٦٦ هـ ، وقد ضبط أبو الفتح ذو الكفايتين الأمر بعد وفاته أحسن ضبط ، وسكّن العسكر ، وفرق فيهم الأموال . وكان مطاعا فى الديلم ، محببا اليهم ، كثير الافضال عليهم ، وبادر بالخبر الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة ، وكان بأصبهان ، فورد الرىّ ومعه وزيره وصاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ٣٦٦ هـ . وجلس للتعزية ، ثم انتصب فى مكان أبيه .

وكانت لمؤيد الدولة هيبة وسياسة ، وفيه سخاء وسماحة ، وخلع على أبى الفتح بن العميد ذى الكفايتين خلع الوزارة ، وفوض اليه الأمر يوم الأربعاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول.

وكان الصاحب بن عباد يرغب أن يقيم بالرىّ ، ويخلف أبا الفتح . فلم يأمن أبو الفتح جانبه ، وعمل على ضرب الحجاب الشديد بين مؤيد الدولة وصاحبه ابن عباد ، بعد أن خوفوه منه لمحله من صناعة الكتابة ، ولمكانه من قلب مؤيد الدولة ، فأراد ابعاده عن الحضرة ، ليتمكن من الايقاع به ان أراد ذلك .

وأشار ابن العميد على مؤيد الدولة بأن يرده الى أصفهان ، ليدبر أعمالها ، وليقيم بها ، فخلع عليه رسم الوزارة القباء والسيف والمنطقة وما يجرى مع ذلك . وخرج الصاحب الى أصفهان يوم

الأحد لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، أى بعد ثلاثة أيام من تولية أبى الفتح الوزارة .

هذا موقف أبى الفتح بن العميد من الصاحب بن عباد ، وهو موقف الحذر المتوجّس من الصلة المعقودة بين الصاحب ومؤيد الدولة ، ومن حقه أن يكون حذرا ، وأن يكون متوجسا ولكن لم يكن له الاسراع الى التهمة على غير أساس من عمل يراه ، أو شرّ بدا له منه ، فكان ابن العميد ظالما للصاحب ، وهو لم ير منه ما يريبه ، بل ان الصاحب بن عباد كان فى طليعة المهنئين لأبى الفتح باسناد منصب الوزارة اليه فى كتاب يفيض بالاخلاص والمودّة يقول فيه : « أنا أهنىء — أطال الله بقاء مولاى — الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها ، وبلوغها فى ظله ارادتها ، وانحيازها الى جنبته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوّه عليها ، وعطفه عنان الفكر اليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقبت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها اشفاقا من استشراف أناس النقص لها ، وحرج صدرها من تحدث أحلاس[1] الجهل بها » .

أرأيت كيف وصف الصاحب فى اخلاص كل متطلع الى هذا المنصب ، وكل مزاحم لابن العميد فيه بأنه من « أناس النقص » ومن « أحلاس الجهل » ؟ ولو كان الصاحب من أولئك المتطلعين

---

(١) الأحلاس : جمع حلس — بكسر فسكون — يقال : هو حلس بيته اذا لم يبرح مكانه ، والمعنى ملازمتهم للجهل .

أو المفسدين ، لكان هو أول من ينطبق عليه هذا الوصف . ثم يستطرد الصاحب فى شرح استحقاقه الوزارة ، وأصالتها فيه ، وعراقتها فى بيته فيقول : « ولا غرو فهى وليدة داره ، قد آلت لا تخطت خطته ، وعاهدت لا برحت عرصته . فالحمد لله الذى أقرّ عين الفضل ووطأ بها دار المجد ، وترك الحسّاد يتعثرون فى ذيول الخيبة ، ويتسقطون فى فصول الحسرة ، حمدا يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور المحاسن ، وشد ظهور المحامد ، بتفويض الصدر الى من وليه بحقّين ، قديم وحديث ، وأوليه بفضلين ، مكتسب وموروث. لأن مولاى وان كان بكفايته مستغنيا عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء الى العميد — قدّس الله روحه — بيسير فيحقر أمره ، ولا الانتماء الى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل فيترك ذكره ! هيهات ، ان الرياسة خيمت ثَمَّ متشبثة بأعطافهم ، متنقلة فى أكنافهم ، حتى استكمل مولاى جلالها ، ووفّاها حظّها وجمالها :

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

ثم يدعو له هذا الدعاء اللطيف : « وفقه الله لطاعته التى هى أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة ولىّ نعمته ، فهى حتم لا يرفع مكتوبه ، وفرض لا ينسخ وجوبه ، ولقّاه فى نفسه الكريمة نجرا[1] وطبعا ، الشريفة أصلا وفرعا ، أفضل سعادة قسمت لوالى عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامى أمل ، بمنّه » .

(1) النجر الأصل .

ويختم الصاحب كتابه بالافصاح عن مشاعره ، والشرف بخدمته فى قوله : « أنا مستغن — أطال الله بقاء مولاى الأمير — عن أن أصف ما خصنى من بهجة هذه المنحة ، وخلص الى من جدة هذه النعمة ، فانى والوزارة فى خدمة الأستاذ الرئيس أخوان، وردناها جميعا ، وورثناها مولاى معا . غير أنى قد جلوت من الشكر لله ما رجوت أن يحمينى مواقف الجحود ، ويؤذن مولاى بعوارف المزيد ، وصدقت نذورا أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت شروطا قدمتها منذ برهة . وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين[1] » .

* * *

ذكر أبو حيان أنه لما ورد مؤيد الدولة الرى من أصبهان ، وصادف الأمر متسقا ، ولقى كل فتق مرتقا ، بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأى الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرهها ودمدم بذكرها . فقال له أبو الفتح بن العميد : بها نظمت لك الملك ، وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفت هذه الزيادة هواك فأسقطها ، فاليد الطولى لك !

وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره غير نافذ . هذا فى الظاهر ، وأما فى الباطن فكان يخلو بصاحبه مؤيد الدولة ، ويوثبه على أبى الفتح بن العميد بما يجد السبيل اليه من الطعن والقدح . فأحس بذلك ابن العميد ، فألب الأولياء على ابن عباد ، حتى كثر الشغب وعظم الخطب ، وهمّ بقتله .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ١٣٣ .

فقال ابن العميد لمؤيد الدولة : « ليس من حق كفايتى فى الدولة وقد انتكث حبلها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام الخسف والأحرار لا يصبرون على نظـرات الذل وغمـرات الهوان » !

فقال له مؤيد الدولة فى الجواب : « كلامك مسـموع ، ورضـاك متبوع ، فمـا الذى يبرد فورتك عنـه — عن الصاحب » — ؟

قال أبو الفتح « ينصرف الى أصفهان موفورا ! .. فو الله لو طالبته منصفا برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ! ولئن أحس الأولياء الذين اصطنعتهم بمالي وأفضالى بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ، ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف » !

فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك .. !

وتلطف الصاحب فى خلال ذلك لابن العميد ، وقال له « أنا أتظلم منك اليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سـهل الزوال اذا تألفت الشاردة من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك » ..

ثم تقدم الصاحب راضيا الى أبى الفتح أن يكون كاتب انشائه ، وقال له « ولنى ديوان الانشاء واستخدمنى فيه ، ورتبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضـاك ، فانى صنيعة والدك ، واتخذنى بهذا صنيعة لك . وليس يجمل أن تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبتنى الى هذا

وآمنتنى فانى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتبا يطلب الزلفة عندك فى صغير أمرك وكبيره . وفى هذا اطفاء النائرة التى قد ثارت بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائى علىّ » .

ولم يكن فى هذا الرجاء ، ولا ذلك الاسترضاء ما يستل سخيمة أبى الفتح ، والصاحب يتقدم اليه طالبا تجربته ، ومذكرا بسابقة أبيه وفضله عليه ، وداعيا الى استدامة هذا الفضل بازالة ما ثار فى نفسه من سوء الظن ، وتحريض الأتباع أتباع أبى الفتح وخصوم الصاحب على الكيد للصاحب ، ومحاولة الفتك به والقضاء عليه .

وهذه الرواية كما ترى تقوم على أساس من سوء الظن بالصاحب ، دون أن يبدى صفحة وجهه بالثورة ، ودون أن يقع منه ما يريب . فقد كان الصاحب قريبا كما قدمنا من مؤيد الدولة فى أصفهان ، بل كان ملازما له كظله ، وناصحا له فى أمره ، وشأن القريب أن يظل قريبا الا أن يبدر منه ما يستوجب اقصاءه . وعلى كل حال لم يكن للصاحب بد من استدامة الصحبة ، وقد أقبلت الدنيا على مخدومه وأصبح الملك المطاع ، ولم يكن له أن يفر منه أو أن يتنكر لصحبته .

وليس فى هذه الرواية كما ترى خبر صريح يؤكد وشاية بأبى الفتح أو اساءة اليه . وكان على ابن العميد أن يجرب ، وأن ينتظر ثمرة التجربة ، ولا ضير عليه فى التجربة والانتظار ، فان الأمر له ، وضمّ الصاحب الى حضرته ابعاد له عن مواطن الريب والشكوك ، وليس آمن لابن العميد من أن يكون الصاحب عدوه

فيمن يرى بين يديه فى منزلة المأمور المنهى ، وابن العميد الآمر المطاع فيما يأمر وينهى ، ومؤيد الدولة يقولها له كلمة صريحة : « لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك » ! ويقول له : « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » !

بل ان الرواية نفسها تذكر فى صراحة أن ابن العميد هو الذى ألب الأولياء والأتباع على ابن عباد ، حتى كثر الشغب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله !

ولم يستطع لين كلام الصاحب وتوسله أن يلين قلب ابن العميد ، ولا أن يطفىء نار حقده عليه ، بل كان جوابه على التوسل والاستعطاف « والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك اذن علىّ ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضا الا بالعودة الى مكانك من أصفهان ، والسلوّ عما تحدث به نفسك [1] » !

وأصر ابن العميد على رأيه فأبعد الصاحب الى أصفهان ، وحرمة الكتابة لمؤيد الدولة . ولكن هل تحققت أمانى ابن العميد الذى أساء بالصاحب الظن فخلا له الجوّ ، أو أمن الكيد الذى كان يعتقد أن الصاحب يحوكه له ، ويفسد به ما بينه وبين مؤيد الدولة ؟

ان أبا اسحاق ابراهيم بن عيسى النصيبى يذكر ما آل اليه أمر ابن العميد فى قوله « كان أبو الفتح على بن أبى الفضل بن العميد قد دبر على الصاحب بن عباد حتى أزاله عن كتابة الأمير

(١) معجم الأدباء ١٤/٢١٢ .

مؤيد الدولة ، وأبعده عن حضرته بالرىّ الى أصفهان ، وانفرد هو بتدبير الأمور لمؤيد الدولة ، كما كان يدبرها لأبيه ركن الدولة.

واستدعى ابن العميد يوما ندماءه ، وعبأ لهم مجلسا عظيما ، وأظهر من الزينة وآلات الفضة والذهب والصينى وما شاكله مما يفوت الحصر ، وشرب واستفزه الطرب ، وكان قد شرب يومه وليلته ، فعمل شعرا غنّى به ، وهو :

دعوت المنى ودعوت العلا   فلما أجابا دعوت القدح
وقلت لأيام شرخ الشباب   ألا ان هذا أوان الفرح
اذا بلغ المرء آماله   فليس له بعدها مقترح

فلما غنّى بالشعر استطابه ، وشرب عليه الى أن سكر ، وقال لغلمانه : غطوا المجلس ولا تسقطوا منه شيئا ، لأصطبح فى غد عليه ؛ وقال لندمائه : باكرونى . ثم قام الى بيت منامه ، وانصرف عنه الندماء .

فلما كان السحر دعاه مؤيد الدولة ، فلم يشك ابن العميد أنه لمهم ، فقبض عليه ، وأنفذ الى داره من استولى على جميع ما فيها ، وأعاد ابن عباد الى وزارته . وتطاولت بابن العميد النكبة حتى مات فيها(١) .

* * *

والحقيقة أن نكبة ابن العميد كانت لها أسباب معروفة ، ولم يكن الصاحب واحدا من هذه الأسباب ، بل ان بنى بويه أنفسهم هم الذين دبروا أمر نكبته ، فقد كان عضد الدولة يحقد عليه

(١) معجم الأدباء ٢٥١/٦ .

حقدا شديدا لما مر من الأسباب فى أيام أبيه ركن الدولة ، وفى أيام أخيه مؤيد الدولة ، منها ممالأته لبختيار ، ومنها استمالته القواد بالاغداق عليهم فكانوا يغلون فى موالاته ومحبته ، ومنها ترفعه عن التواضع فى الكتابة التى تصدر عنه الى عضد الدولة واخوته. وقد عابوا عليه هنواته وآفاته ، ونسبوا اليه أنه هو الذى حرض من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخيهم فخر الدولة بأخبارهم ، وكانوا يعتقدون أنه عين عليهم لبختيار ينتهز الفرصة للقضاء عليهم واللحاق به ليتمتع ببغداد قاعدة الخلافة ومهبط العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة .

فأين الصاحب من كل هذا ؟

لقد كان الصاحب رفيقا لمؤيد الدولة وصاحبا له ، ولم يبق فى الرى غير أيام معدودات ، وحاول ما حاول من التقرب الى أبى الفتح والزلفى عنده ، ولما أصر أبو الفتح على مغادرته الرى وعودته الى أصفهان بعيداً عنه وعن صاحبه مؤيد الدولة لم يسع الصاحب الا السمع والطاعة . فخرج ابن عبّاد من الرىّ على صورة قبيحة بالليل ، هى صورة الطريد ، فأيهما كان الظالم؟ وأيهما كان المظلوم ؟

وبلغ الصاحب أصفهان ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، وهو غير آمن على نفسه ، وقد رأى من أبى الفتح عين الغدر ، فغلبه الخوف ، وتملكت منه الوساوس بعد أن علم أن ابن العميد سيرسل اليه من يحاسبه ويؤذيه ويهينه ، ولمّا أحسّ بالأمر وعرف ما يبيت له عمل على ركوب المفازة الى نيسابور لما ضاق به الحال ،

وهو لا يدرى ما يفعل ولا ما يدع ، حتى جاءت الأخبار بأن خراسان تزمع الثورة ، وتنوى الزحف على مؤيد الدولة ومعه ابن العميد .

ويتبادر هنا سؤال : كيف رضى مؤيد الدولة لصاحبه ابن عباد هذا المصير ؟ وهل كان يرى أبا الفتح أجدر بمقام الوزارة وصناعة الكتابة من ابن عباد ، أو أقدر منه على تدبير الأمور فى تلك الأيام القلقة المضطربة ؟

ان الذى يوثق به أن مؤيد الدولة أنفذ ما أمر به ابن العميد على كراهة منه ، وأنه لم يكن من الهين عليه أن ينأى عنه صفيه الذى قدره وعاشره واختبره ، فلم يجد فيه الا ما زاده تعلقا به وحرصا عليه .

ولكن الأمر هنا كان أخطر من موجبات الصداقة ومستلزمات الوفاء .. ان الأمر هنا كان أمر دولة وتدبير ملك . وكان أبو الفتح ابن العميد امتداداً لسياسة هذه الدولة فقد جرب ودرب ، وهو ابن أبى الفضل وزير ركن الدولة أبى مؤيد الدولة ومدبر أمره ، فكان ابعاد مثله فى تلك الظروف يمثل ثورة على نظام الدولة ، ويدل على تنكر لفضل العميد على أبيه وعميه ، وفضل أبى الفضل فى خدمة أبيه ، وذلك بالاضافة لما يتعرّض له صفو الأمن اذا ما همّ بخلع أبى الفتح ، فقد كان ميل القواد والعساكر اليه ظاهرا للعيان ، بما كان يفيض به عليهم من العطايا والأموال ..

فلم يكن من اليسير أن يتسرع مؤيد الدولة فى تنحية ابن العميد ، وتسليم زمام الدولة لأبى القاسم بن عباد ، فى وقت

تحتاج فيه الدولة الى ضبط وتمكين ، لا الى اضافة سبب جديد للاضطراب ، وانتكاث حبل الأمن ، بخلع ابن العميد وتولية الصاحب مكانه . وحين وزر ابن العميد لمؤيد الدولة وخشي على نفسه من قرب الصاحب الى قلب مؤيد الدولة ، كان أول ما عمله اثارة الجند على الصاحب ، وبعثهم على الشغب ، حتى هموا بقتله، بقتل الصاحب بن عباد ، ليرى القوم أن الجند فى يديه أو أن القوة فى يديه ينفذ بها ما يريد ، ويثيرها على من يحاول أن يبعده أو يلحق به أذى ، وقد أراد بذلك أن يعرض قوته ويجرب عضلاته ليرهب الطامعين .

وأيا ما كان الأمر فقد أنفذ الصاحب ما أمر به أبو الفتح ، وسار الى حيث أراد له من البعد فى مكان سحيق ..

* * *

ومما لا شك فيه أن مؤيد الدولة وان تظاهر بالرضا ، وان قال لابن العميد كلمته المستجيبة « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » قد فارق الصاحب على كره منه ، وأنه كان يخفى فى قلبه شرًّا يبيته لابن العميد اذا استقر الأمر وهدأت الأحوال وانتظمت شئون الدولة ، ولقد أسر مؤيد الدولة الى الصاحب قبل رحيله بنواياه ، وكشف عن مكنون سرّه للصاحب بن عباد ، واتفق معه على علامات واشارات لا يطمئن الا اليها ، ولا يصدق سواها . ومن ذلك ما نقله الوزير أبو سعد : سمعت الصاحب كافى الكفاة رحمه الله يذكر أمره ، فقال فى أثناء كلامه : ان مؤيد الدولة قال لى عند خروجى الى أصبهان : ان ورد عليك كتاب بخطّى ، أو جاءك

أجلّ حجّابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من أصفهان ، ولا تفارقها الى أن يجيئك فلان الركابي ، فانه ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل — ابن العميد — وأمكنني الله من القبض عليه بادرت به اليك ، وهو العلامة بيني وبينك » !!

وهذا حديث معقول من غير شك ، لأنه يفسّر لنا ما خفي علينا من موافقته على تنحية الصاحب تنحية مؤقتة يعود بعدها الى ما يطمح اليه من آمال المنصب والجاه ، والدنو ممن يحبه ويصطفيه ..

ويتشكك الوزير أبو سعد في هذه القصة فيقول : استعظمت لحداثة سني وغرة الصبا وقلة التجربة ما حكاه الصاحب من قول مؤيد الدولة « ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه ، وأردت الغض من أبي الفتح ، والتقرب بذلك الى الصاحب، فقلت : وكان لأبي الفتح من القدر أن يصعب حبسه ، أو يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فانتهرني الصاحب وقال : « يا فلان ، أنت صبي تحسب أن القبض على الوزراء سهل » ؟ . ففطنت أنه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم أمرها ! ..

فلما طمعت خراسان في الدولة بعد موت ركن الدولة استشار مؤيد الدولة وزيره أبا الفتح في تدبير الجند والأموال للقائهم ، فكان جواب أبي الفتح : « ليس الرأي الي ولا اليك ، ولا الهم علي ولا عليك ، ها هنا من يقول لك : أنت خليفتي ، ويقول لي أنت كاتب خليفتي ، وهو الذي يدبر هذا الأمر بالمال والرجال ، وهو الملك عضد الدولة أخوك » .. فأمره مؤيد الدولة أن

يكتب لأخيه عضد الدولة بهذا الرأى ، ولم يرض عضد الدولة على ما كتب أبو الفتح ، وكان فى رده عليه « ان هـذا الأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا وله ابن لم يحمـل اليه من ارثه شيء .. ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده قد كسبه بجهده، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه الا التعجب والاستطراف ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين : أحدهما أنه حرم ماله بحق الارث ، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه .. !

فلما سمع مؤيد الدولة هذا قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال : قد قلت ، وليس لى قول سواه ، وهذا الرجل — يعنى عضـد الدولة — هو الملك والمدبر ، والمال كله ماله ، والبـلاد بلاده والجند جنده ، والكل له والاسم والجلالة عنده ..

وطال بينهما الكلام ، وكانت الحاجة الى المال ماسة لتجهيز الجيش .. ورأى مؤيد الدولة أن ينتهز الفرصة للقضاء على أبى الفتح ، وعمل على افساد الأمر بين ابن العميد وبين أقوى الناس فى منطقته مالا ورجالا ، ليصيد عصفورين بحجر واحد ، القضاء على أبى الفتح ، وفل حد أنصاره الأقوياء .. وكان ذلك الرجل هو علىّ بن كامة الذى كان كما يقول فيه مؤيد الدولة : صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون ، وبيده بلاد ، وقد جمع هذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا .. وطلب مؤيد الدولة أن يطلب أبو الفتح هذه الأموال قرضا من ابن كامة ، فاعتذر أبو الفتح عن ذلك لأن بينه وبين ابن كامة عهدا ، وأن

القرض الذى يستطيع أن يقدمه لا ينهض بالمطلوب وهو خمسمائة ألف دينار ، فطلب اليه أن يكتب بهذا الرأى الى عضد الدولة ليرى رأيه . فقال ابن العميد : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر ! قال له مؤيد الدولة : يا هذا ، فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى اخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله ..

فقال أبو الفتح : أيها الأمير ، لا تسمنى الخيانة ، فانى قد أعطيته عهدا ، ومع اليوم غدا ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة !

فقال مؤيد الدولة : انى لست أسومك أن تقبض عليه أو أن تسىء اليه ، أشر بهذا المعنى الى الملك عضد الدولة ، فان رأى الصواب فيه تولاّه دونك ، وان ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأينا .. وانما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدى أن تكتب حرفين : « انه لا وجه لهذا المال الا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ، ولا مطالبته به وفاء له بالعهد ، وثباتا على اليمين ، وجريا على الواجب » ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه شىء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل..

واستجاب أبو الفتح لما رأى مؤيد الدولة فكتب ما أراد على أن ينفذه مؤيد الدولة الى أخيه عضد الدولة بفارس ، فلما كتب ما كتب ، وجنّ عليه الليل ، أحضر ابن كامة ، وقال له : أما عندك حديث هذا المخنث فيما أشار به على الملك فى شأنك ، وأورد عليه فى حقك وأمرك ، واطماعه فى مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك ؟! فتردد ابن كامة طويلا فى تصديق هذا

الحديث الى أن استوثق من خط كتابة ابن العميد وقال : ما ظننت بعد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجيز مثل هذا .

فقال الأمير مؤيد الدولة : أيها الرجل ، انما أطلعك الملك على سرّ هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هى أكبر ، فانه هو الذى حرّك من بخراسان، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخينا بهمذان — يفى فخر الدولة — أخبارنا ، وهو عين لبختيار ها هنا ، وقد اعتقد أنه يعمل فى تحصيل هذه البلاد ، ويكون وزيرا بالعراق ، فقد ذاق من بغداد ما لا يخرج من نفسه الا بنزع ضرسه ..

فقال على بن كامة : فما الرأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك فى القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أنا هجمنا على ناصحنا ، ومربّب نعمتنا ، وناشىء دولتنا ، فمهدنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الأمر !

قال ابن كامة : فأنا أكفيكموه ، ثم قبض عليه ، بعد أن جذبه بيده من مكانه ، وكان قد كمن له فى الممر جماعة من خواص الديلم وثقات مؤيد الدولة ، فعاونوه على اخراجه من البيت وادخاله الى حجرة هناك وتقييده ، وذلك فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٦ هـ ، ثم سمل عينه الواحدة ، وقطع أنفه ، ثم حمل ابن العميد الى قلعة أستوناوند وقتل فيها بعد أيام وورد رأسه الى مؤيد الدولة ، وانقلع بيت العميد على يده كما ظنه أبوه أبو الفضل ..

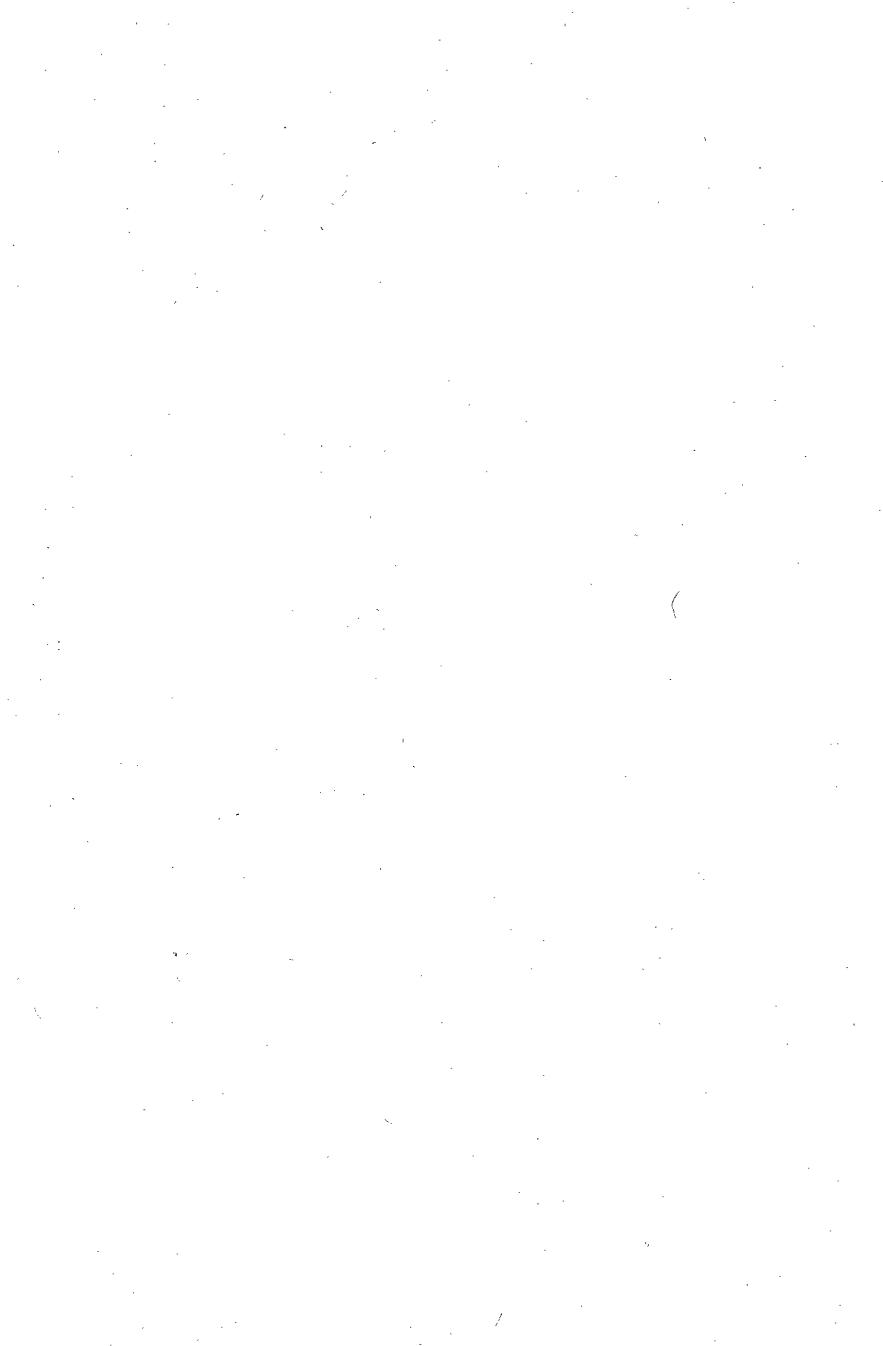
لم يكن للصاحب بن عباد دخل فى شىء من هذه الأحداث

كما رأينا ، فهو مظلوم من هذه الجهة ، وان كان مؤيد الدولة يحب الصاحب من أعماق نفسه .

ولكن مؤيد الدولة لم يكن كل شيء ، ولم يكن صاحب الكلمة ، وانما صاحبها هو الملك ، والملك هنا هو عضد الدولة ، ذلك أن ركن الدولة أبا على الحسن بن بويه فى مشـــهد من أولاده وقواده وأجناده كان قد عهد قبل أن يموت الى ولده (عضد الدولة) بالملك بعده ، وجعل لولده (فخر الدولة) همذان وأعمال الجبل ، ولولده (مؤيد الدولة) أصبهان وأعمالهما ، على أن يكون فخر الدولة ومؤيد الدولة تحت حكم أخيهما (عضد الدولة) وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف ، كان ذلك فى أصبهان ثم رجع الى الرى فأقام بها الى أن مات سنة ٣٦٦[1] هـ .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢٢٢/٨ .



الفصل الثالث

الصاحب الوزير

الصاحب الوزير

ولقد أحسن الصاحب وأخلص فى خدمة مؤيد الدولة ، وحصل له عنده بقدم الخدمة قدم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافى الكفاة ، وولاه أموره وحكمه فى أمواله ، فأبلى فيها أحسن بلاء ، وأقام فيها مقاما محمودا ، يقود الجيوش ، ويجهز الجنود ، ويصد الأعداء ، ويفتح القلاع ، ويرفع لمؤيد الدولة ودولته أعلام المجد فى السياسة والحرب ، وفى ميدان العلم والأدب ، حتى اجتمعت بأبوابه من الساسة والعلماء والشعراء والفقهاء وطالبى الحاجات ما لا يحصى عددهم الا الله .

* * *

وقد استطاع الصاحب بكياسته وحسن سياسته أن يدعم الأخوة ، ويشيع الثقة بين عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة ، فعاشا ما عاشا على وفاق واتفاق على الوسائل والغايات فى الوقت الذى فسدت فيه العلائق وانقطعت الأواصر بين فخر الدولة وأخويه ، ومن أدلة ما بذل الصاحب فى توثيق عرا المحبة بين الأخوين أن عضد الدولة بعد أن حارب أخاه فخر الدولة وطارده ضم ما كان تحت يديه الى ما تحت يد مؤيد الدولة ، فوسّع بذلك رقعة ملكه وارتفع شأن مؤيد الدولة بذلك وعظم فى نظر

أخيه ونظر الناس ، ورأى الصاحب أن يشخص بنفسه بأمر مؤيد الدولة مولاه لاظهار الطاعة ، فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالغ فى اكرامه ، وجعل أكابر رجال دولته وأصحابه يبالغون فى تعظيم الصاحب فكانوا يذهبون اليه فى مقره ، ولا يجشمونه الوصول اليهم . وقد كتب الصاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف له فيها ما لقيه من عضد الدولة ورجاله يقول فيها « أما انعام مولانا على عبده وصنيع يده ، واستقباله بنفسه ، والدنيا تسير بسيره ، وخدود النجم مع سنابك خيله ، وتلقيه اياه بوزراء بابه ، وأمراء أجناده ، وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام ، ومتحفّين فى اللقاء والسلام ، ثم رتبتى به فى دخولى الى الدار المعمورة بالعز وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغ بى الى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابه المأمول من أطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب ، واستجلاسى بحضرته التى يقف بها القمران على النواصى والهام ، الى ضروب من الانعام أستعظم والله وصفها ، وان كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها » . وكان غرض عضد الدولة بهذا الاكرام وتلك الحفاوة استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب ..

وأرسل مؤيد الدولة عدة كتب يستطيل فيها مقام الصاحب ، ويذكر اضطراب أموره بعده ، فاستأذن الصاحب فى العودة الى الرى ، فأذن له عضد الدولة بعد أن خلع عليه الخلع الجليلة ، وحمله على فرس بمركب ذهب ، وأقطعه ضياعا جليلة من نواحى فارس ، وحمل الى مؤيد الدولة فى صحبته ألطافا كثيرة ، وضم

اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عددا ليقوموا بخدمة مؤيد الدولة ..

وفى سنة ٣٧١ طلب عضد الدولة من قابوس بن وشمكير أن يسلمه أخاه فخر الدولة الذى كان قد التجأ اليه ، فأبى أن يسلمه ، فجهز اليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة ، فسار الى جرجان ومعه وزيره الصاحب بن عباد ، فانهزم قابوس وفخر الدولة والتجآ الى السامانية بخراسان ، واستولى مؤيد الدولة على طبرستان وجرجان . وحصل الصاحب فى هذه الوقعة على الفيل الذى كان فى عسكر العدو ، وأمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه ، فوصفوه بعدد من القصائد الجميلة العذبة .

وفى شوال سنة ٣٧٢ هـ توفى عضد الدولة ، واجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبى كاليجار المرزبان الملقب (صمصام الدولة) ، وكان بفارس اذ ذاك أخوه شيرزيل الملقب (شرف الدولة) وبجرجان عمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه ..

وقد تاقت نفس مؤيد الدولة الى الاستيلاء على بغداد وضم مملكة عضد الدولة الى ولايته وأعماله ، لولا ما أصابه من العلة واشتداد وطأة المرض عليه فى سنة ٣٧٣ هـ عليه وهو فى جرجان ..

ولما أحس الصاحب بدنو أجل مؤيد الدولة دخل عليه وقال له : « لو عهد أمير الأمراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند الى أن يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان ذلك من الاستظهار الذى لا ضرر فيه » ..

فقال له مؤيد الدولة : « أنا فى شغل عن هذا ، وما للملك

قدر مع انتهاء الانسان الى مثل ما أنا فيه ، فافعلوا ما بدا لكم حتى أشفى » !

فقال له الصاحب : « تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ من هذه الأموال التى لست على ثقة من طيبها ، وحصولها من حلّها . واعتقد متى أقامك الله وعافاك صرفها فى وجوهها ، ورد كل ظلامة تعرفها وتقدر على ردها » ..

ففعل مؤيد الدولة ذلك ، وتلطف به ، حتى أدركته منيته فى شعبان سنة ٣٧٣ هـ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة .

الصاحب وفخر الدولة

ولما توفى (مؤيد الدولة) أبو منصور بويه بن ركن الدولة بجرجان ، أقيم العزاء فى كل النواحى والأعمال التى تتولاها الأسرة البويهية ، وفى قاعدة الخلافة فى بغداد جلس صمصام الدولة (أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة) ابن أخى مؤيد الدولة ، وكان يحكم العراق ، (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) ، جلس ببغداد للعزاء ، وتوافد عليه أعيان الدولة وقوادها معزين ، وفى مقدمتهم الخليفة العباسى (الطائع لله) .

* * *

ولما مات مؤيد الدولة تشاور أكابر دولته فيمن يقوم مقامه ، فأشار الصاحب اسماعيل بن عباد باعادة فخر الدولة الى مملكته ،

اذ هو كبير البيت ، ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ، ولما فيه من آيات الامارة والملك .

فكتب اليه الصاحب واستدعاه وهو بنيسابور ، وأرسل اليه الصاحب واستخلفه ، وصرّف الأمور أحسن تصريف ، فقد أقام خسرو فيروز بن ركن الدولة مقامه ، حتى تهدأ الأحوال ، ويسكن الناس الى أن يقدم فخر الدولة .

فلما وصلت الأخبار الى فخر الدولة سار الى جرجان ، فلقيه العسكر بالطاعة ، وتسلم زمام الملك فى رمضان سنة ٣٧٣ هـ بغير منّة لأحد .

ولما عاد فخر الدولة الى مملكته تقدم اليه الصاحب بن عباد قائلا : « يا مولانا ، قد بلّغك الله ، وبلّغنى فيك ما أمّلته ، ومن حقوق خدمتى لك اجابتى الى ترك الجندية ، وملازمة دارى ، والتوفر على أمر الله » ..

فقال فخر الدولة : « لا تقل هذا ، فما أريد الملك الا لك ، ولا يستقيم لى أمر الاّ بك ، واذا كرهت ملابسة الأمور كرهتها أنا أيضا وانصرفت » !

فقبل الصاحب الأرض بين يديه ، وقال : « الأمر لك » . فاستوزره فخر الدولة وأكرمه وعظمه ، وصدر عن رأيه فى جليل الأمور وصغيرها .

وفى الوقت نفسه عمل الصاحب على التقريب بين حكام بغداد وفخر الدولة ، فسيرت الخلع من الخليفة الى فخر الدولة والعهد ،

واتفق فخر الدولة وابن أخيه صمصام الدولة فصارا يداً واحدة [1] ..

وقد سطع نجم الصاحب فى أيام فخر الدولة ، فقد استوثقت بينهما حبال المودة والتقدير ، وأحس كل منهما أن الآخر مكمل له ، متمم لمجده ، هذا فى الامارة ، وذاك فى الوزارة ، وكان الصاحب ينتهز المناسبات لابراز عواطفه نحو فخر الدولة ، ومن ذلك أنه أهدى الى فخر الدولة يوم أول المحرم ٣٧٨ هـ ديناراً وزنه ألف مثقال ، وكان مكتوبا على أحد جانبيه من شعر الصاحب :

وأحمر يحكى الشمس شكلا وصورة
فأوصافه مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه
وان قيل ألف كان بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله
ولا ضربت أضرابه لسراته
فقد أبرزته دولة فلكية [2]
أقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهانشاه انتسابه
على أنه مستصغر لعفاته

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/٩ .

(٢) يعنى بقوله « دولة فلكية » أن فخر الدولة كان يلقب « فلك الأمة » .

يخبر أن يبقى ســـــــنين كوزنه
لتستبشر الدنيـــا بطول حيـــاته

تأنق فيه عبـــده وابن عبـــده
وغرس أياديه وكافى كفـــــاته

وكان مكتوبا على الجانب الآخر سورة الاخلاص ، ولقب الخليفة الطـائع لله ، ولقب فخر الدولة ، واسم جرجان ، لأنه ضرب بها .

وكان على فخر الدولة أن يعرف دائما فضل الصاحب عليه ، ويتذكر ما أسدى اليه الصاحب بما مهد له من الملك ، وما وطأ له من الأمور . اذا ذكرنا موقف فخر الدولة قبل ذلك ، وموقف أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة من مطاردته وأخذ ما كان بيديه ، فقد عهد ركن الدولة — كما أشرنا من قبل — قبل وفاته بالملك بعده الى ولده عضـد الدولة فناخسرو ، وجعل لولده « فخر الدولة أبى الحسن على » همذان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصبهان والرى وأعمالهما . ولكن فخر الدولة كان مداجيا لأخويه ، وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ، ودعاه الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك ، فعلم عضد الدولة به ، فحاربه واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ هـ ، وأضافها الى أخيه مؤيد الدولة صاحب أصبهان والرى وأعمالهما ، فهرب فخر الدولة الى جرجان ، والتجأ الى شمس المعالى قابوس بن وشمكير فأمنه وآواه .

ولذلك كان حرص فخـر الدولة على الصاحب وابقاؤه فى

الوزارة هو الجزاء الواجب ، والمكافأة الطبيعية على صنيعه فيه ، وكان على الصاحب ألا يفرض نفسه على المنصب بحجة أنه صاحبه وأن له يداً فى تعيين صاحب الرأى فيه ، فتصرف كما تمليه اللباقة ، وما يوجبه الأدب العالى الذى كان جديراً به ، فأظهر رغبته فى التنحى ليتأكد من منزلته عند صاحبه ، ويقول ياقوت ان الصاحب أراد اختبار فخر الدولة ، هل فى نفسه عليه شيء مما كان فى أيام مؤيد الدولة مما أوجب هرب فخر الدولة ، فاستعفاه الصاحب من الخدمة والوزارة ، فقال له فخر الدولة : « لك فى هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة ، فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه » ! ، ولم يعفه .

ولم يزل على أمره معه الى أن مات الصاحب ، والأمور تصدر عن أمره ، والملك يدبر برأيه ، وكان اذا قال فخر الدولة قولا وقال الصاحب قولا امتثل قول الصاحب ، وترك قول فخر الدولة [1] .

الصاحب فى بغداد

زار الصاحب بغداد فى سنة ٣٤٧ هـ ، فقد ورد اليها الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة ، ليخطب لنفسه ابنة عمه معز الدولة ، وكان مع أبى منصور فى هذه الرحلة الى قاعدة الخلافة وزيره أبو على بن أبى الفضل القاشانى ، وكاتبه أبو القاسم

(١) معجم الأدباء ٦/١٧٤ .

اسماعيل بن عباد ، ويقول مسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » انه لما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٣٤٧ هـ زفت بنت معز الدولة الى أبى منصور بويه ، ثم حملها الى أصبهان ..

وقد جن جنون الصاحب بدار السلام ، والحياة العلمية والأدبية المزدهرة فيها ، حتى أنه لما رجع عنها دخل على أستاذه أبى الفضل بن العميد ، فسأله : كيف وجدت بغداد ؟ فكان جواب الصاحب : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد ، وأنشد :

أفاضل الدنيا وان برزوا لم يبلغوا غاية أستاذها
أما ترى أمصارها جمة ولا ترى مصر كبغدادها

ففى هذه الزيارة لقى الوزير المهلّبى وسمر معه ووصف مجالسه كما مر لأبى الفضل بن العميد ، ومما حدث له فى هذه الزيارة فى بغداد من الطرائف ، وما يدل على اعتداد الصاحب بنفسه ، وحرصه على توفيته حقّه من الاعظام والتقدير ، أنه لما دخل بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه ، فتثاقل أبو السائب فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ الصاحب بضبعه [1] وأقامه ، وقال : « نعين القاضى على قضاء حقوق اخوانه » ! فخجل أبو السائب ، واعتذر اليه ..

وزار فى هذه الزورة أبا سعيد السيرافى الذى كان كما يقول الصاحب : شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر

---

(١) الضبع العضد .

الحظ من علوم الأوائل ، وقد جرت بينهما محاورات علمية تدل على علم الصاحب وحذقه ، ورآه بعد ذلك غزيرا فاضلا متوسعا عالما ، فعلّق عليه ، وأخذ عنه ، وحصل تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأ صدرا عنه . ورأى الصاحب هناك أبا بكر بن مقسم الذى ليس فى أصحاب ثعلب أكثر دراية ولا أصحّ رواية منه ، وسمع الصاحب مجالسه وما فيها من غرائب ونكت ومحاسن وطرف من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة ، وتفسير بيت مشكل ، وحل معقد معضل . وكذلك رأى الصاحب فى بغداد القاضى أبا بكر ابن كامل الذى وصفه بأنه بقية الدنيا فى علوم شتى يعرف الفقه والشروط والحديث ، ويتوسع فى النحو توسعا مستحسنا ، وله فى حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفى جودة التصنيف قوة تامة . وكان الصاحب يحب أن يسمع كلام أهل النظر [1] بالعراق لما تتابع فى حقهم من الأوصاف ، وذكر أبا زكريا يحيى بن عدى وغيره ..

وكل هذا يدل على علو همة الصاحب ، فهو قد دخل بغداد لحاجة فى صحبة الأمير ، فلم يكتف حتى حضر مجالس مشاهير العلماء وأخذ عنهم ، وأفادهم واستفاد منهم ، وزار الوزراء والقضاة ، وحضر مجالس أهل النظر ، ومجالس الصوفية .. ولما عاد الصاحب من بغداد أخذ معه أبا الحسن البديهى الى

(١) يعنى به الفلاسفة وعلماء الكلام .

أصبهان . وكان من جملة العلماء الذين استدعاهم الى الرى قاضى القضاة عبد الجبار الباقلانى المعتزلى [١] .

ثم غادر الصاحب بغـداد وفى قلبه حنين عجيب اليها ، وكأنه كان يرى أن موضعه الطبيعى هناك فى موطن الخلافة ، رأسـا لدواوينها ، وواسطة عقد أعلامها من علماء الأرض وشـعرائها وأدبائها وفلاسفتها وحكمائها ..

بل لقد صرح الصاحب بهذا الأمل الذى يراوده ، فقـد روى هلال بن المحسن أنه سمع محدّثا يحدث أبا اسحاق أنه سـمع الصاحب يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى الا أن أملك العراق ، وأتصدر [٢] ببغداد ، وأستكتب أبا اسحاق الصابىء ، ويكتب عنّى ، وأغيِّر عليه » [٣] ..

وقد التقى أمل الوزير الصاحب بأمل أميره مؤيد الدولة بعد وفاة عضد الدولة ، وقد عرف المتصلون بالصاحب أمله وما تتطلع اليه نفسه من بلوغ بغداد حتى قال أبو القاسم الزعفرانى يردّد هذا الأمل فى قصيدة من مدحه للصاحب :

قسما لا مدحت بعد ابن عبا	د منيل الشـباب والتخليد
لا لقيت الزمـان الا بوجه	ماؤه لا يجـول فى جلمـود
ويد ما حسرت ردنى عنهـا	فهى سيف يصان عن تجريد

(١) أعيان الشيعة ١١/٣٧٧ .

(٢) يقال تصدر الرجل اذا تقدم غيره ، وجلس فى أرفع مكان من المجلس .

(٣) معجم الأدباء ٦/٦٠٣ .

أجمع الناس أنه أفضل النا س اضطرارا أغنى عن التقليد
فلهذا أعد قربى منه نعمة ليس فوقها من مزيد
لا ذكرت العراق ما عشت الا أن أراه يؤمه فى الجنود

ومن قول أبى عيسى المنجم يصف الدار التى بناها الصاحب فى أصبهان ، ويذكر بغداد وسرّ من رأى ، وكأنه يسلّى الصاحب عن آماله ، فيصوّر هذه وتلك وكأنهما تشتهيان أن تكونا مثل أصبهان ، تسعدان بوزيرها الصاحب بن عباد :

هى الدار قد عم الممالك نورها
ولو قدرت (بغداد) كانت تزورها
ولو خيرت دار الخلافة بادرت
اليها وفيها تاجها وسريرها
ولو قد تبقت (سر من را) بحالها
لسار اليها دورها وقصورها
لتسعد فيها يوم حان حضورها
وتشهد دنيا لا يخاف غرورها

وفى المناسبة نفسها يقول الشيخ أبو الحسن صاحب البريد ، وهو ابن عمة الصاحب ، ويفضله على وزراء الملك قاطبة بما فيهم وزراء بغداد [1] :

وهذه وزراء الأرض قاطبة بيادق ، لم تزل ما بيننا شاها
فأنت أرفعها مجدا وأسعدها جدّا وأجودها كفّا وأكفاها
وأنت آدبها بل أنت أكتبها وأنت سيدها بل أنت مولاها

(١) راجع يتيمة الدهر ٢٠٣ من الجزء الثالث وما بعدها .

فقد كان الصاحب يرى أن تمام مجده أن يكون حيث يكون رأسا ، وأن يكون كبيرا للوزراء واماما للكتاب فى حاضرة الدولة ، وكان يحن الى هذا الأمل ويغرى به الأمراء الذين يعمل لهم ، أغرى به مؤيد الدولة بعد وفاة عضد الدولة ، وكاد مؤيد الدولة يقود الجيوش لاستخلاص العراق ، وحكم سائر البلاد من بغداد ، لولا أن بادره المرض وعاجلته منيته كما قدمنا ، فكان الصاحب على طول الأيام يحب بغداد ، ويشتهى الرياسة فيها ، ويرصد أوقات الفرصة لبلوغ ما يشتهى ، ثم زين الأمر من بعده لخلفه فخر الدولة ، الذى شجعه على فتح العراق دون أن يظهر ميله الى هذا الفتح أو يصرح به ، ولكنه جعل أمام فخر الدولة من يعظم فى عينيه العراق ، ويسهل عليه فتحها ، وظل الصاحب بعيدا عن هذا الأمر ، وكأنه لا يعلم عنه شيئا ، أو كأن ذلك أمر لا يعنيه من قريب أو بعيد ، لأنه كان يخشى الاخفاق وسوء العاقبة ، ولم يعرف عنه فيما قبل الا الرأى الموفق والتدبير الصائب وما زال أعوانه يوحون الى فخر الدولة بما أراد الى أن استشاره فخر الدولة : ما الذى عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟

فقال الصاحب : الأمر لشاهنشاه « ملك الملوك » ، وما يذكر من جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به ، وسعادته غالبة ، فاذا هم بأمر خدمته فيه ، وبلغته أقصى مراميه !

فعزم فخر الدولة حينئذ على قصد العراق ، وسار الى همذان ، واستقر العزم على أن يسير الصاحب ومعه بدر بن

حسنويه على طريق الجادة ، ويسير فخر الدولة ومعه بقية العسكر على طريق الأهواز .

فلما سار الصاحب قال قائل لفخر الدولة انه من الغلط أن تفارق الصاحب ، لأنك لا تأمن أن يتصل بأبناء عضد الدولة ، وأن يستميلوه فيميل اليهم ..

وكان أن استدعاه من الطريق اليه ، وأمره أن يغير طريقه ، ويذهب الى الأهواز ، فسمع الصاحب وأطاع ، فسبقه اليها ، وتم له الاستيلاء عليها ، ولحق به فخر الدولة بعد عشرين يوما ، ولكنه أساء السيرة مع جندها ، وضيق عليهم النفقة ولم يبذل المال ، فتخاذل الجند .. ولم يكن من الصاحب الا أن أمسك نفسه تأثرا بما قيل عن اتهامه ، والتوجس من استمالة أولاد عضد الدولة .

فلما سمع بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة بوصول فخر الدولة وجيشه الى الأهواز سيّر اليهم عساكره ، والتقوا هم وعساكر فخر الدولة ، وتصادف طغيان فيضان ماء نهر دجلة ؛ حتى خاف جند فخر الدولة ، وظنوها مكيدة دبرت لهم ، وقال بعضهم لبعض : « انما حملنا الصاحب الى هذه البلاد طلبا لهلاكنا » ، فانهزموا ، وخاف فخر الدولة على نفسه ، وخشى أن يمتد التمرد الى جنود مملكته ، وكان مستبدا .. ولكنه اضطر أن يرجع الى الصاحب ليشير عليه بما يرى للخلاص من هذا المأزق . فأشار الصاحب ببذل المال واستصلاح الجند ، وقال له : ان الرأى فى مثل هذه الأوقات اخراج المال ، وترك مضايقة الجند ،

فان أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنة واحدة !
فلم ينفذ فخر الدولة ما أشار عليه به وزيره الصاحب ، فاختلف عليه كثير من عسكر الأهواز ، واتسع الخرق عليه ، وضاقت الأمور ، فعاد الى الريّ مخذولا ، وعادت الأهواز الى صاحبها بهاء الدولة بن عضد الدولة !

وهكذا لم تتحقق آمال الصاحب فى العراق ، واعتلاء كرسى الوزارة فى بغداد ، فعاد حزينا على ما فاته ، وهاك قصيدة من شعره الى أبى العلاء السروى يذكر فيها هذا الأمل الذى كان يداعب جفنيه ، ثم ولى عنه هاربا ؛ ويذكر عزمه على زيارة أصفهان :

أبا العلاء ألا أبشر بمقدمنا
فقد وردنا على المهرية القود (١)

هذا وكان بعيدا أن أراجعكم
على التعاقب بين البيض والسّود

من بعد ما قربت بغداد تطلبنى
واستنجزتنى بالأهواز موعودى

وراسلتنى بأن بادر لتملكنى
ويجرى الماء ماء الجود فى العود

---

(١) المهرية : الابل المنسوبة الى مهرة بن حيدان ، والقود الطويلة الظهور والأعناق جمع أقود ·

فقلت هيهات من «جى» [1] وساكنها
ولو رددت شبابى خير مردود
فان فيها أودّائى ومعتمدى
وقربها خير مطلوب ومنشود
ألست أشهد اخوانى ورؤيتهم
تفى بملك سليمان بن داود

* * *

وكان الصاحب فى كل ما يصدر عنه أمينا على الدولة وفيّا لأصحابها ، لا يعمل الاّ ما يرى فيه صلاحا لأحوالها ، وانتظاما لأمورها ، وكان فى الوقت نفسه يرعى حق ربّه ، ويرضى ضميره ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يبيع دنياه بآخرته ، وكان رفيقا بالناس يتحاشى ظلمهم ، ويعف عن أموالهم ، وبهذا عظم الصاحب فى نظر بنى بويه ، فهابوه وأجلّوه ، وصانوا كرامته طول حياته ، فلم يردوا له أمرا ، ولم يفسدوا عليه قولا ؛ بل كانوا يسرعون الى انفاذ ما يشير به . وقد رأينا ما نصح به لمؤيد الدولة قبل وفاته من تطهير أمواله ، وردّ المظالم حتى يلقى ربّه راضيا مرضيا . ومن ذلك ما رواه المافروخى فى كتابه « محاسن أصفهان » فى قوله : انتهى الينا أنه رفع انسان الى فخر الدولة رقعة يتعهد فيها أنه يستوفى على المستغلات والأملاك بأصفهان خارجا عن المعاملات والحقوق ٣٠٠٫٠٠٠ درهم يحصلها فى خزانة

(١) جى بالفتح ثم التشديد اسم مدينة أصبهان القديم ، وهى الآن منفردة كالخراب ، وتسمى عند العجم شهرستان .

فخر الدولة ، وكان فخــر الدولة فى ذلك الوقت محتــاجا الى الأموال ، لأنه كان يريد النهوض لمحاربة عساكر خراسان وفتــح جرجان ، فوقع ذلك فى روعه ، فلما دخل عليه الصاحب ناوله القصة ، وقال : يا أبا القاسم تدّبر أمر هذا الرجل وقرره ، فبنا الى مثل هذا المال مساس حاجة . فقال الصاحب : سمعا وطاعة لأمــر شاهنشاه ، ثم انكفأ عن مجلسه الى غيره ، واستحضر الرجل ، وقال له : أنت صاحب هذه القصة والضامن استخراج هذا المال من الوجوه المذكورة ؟ قال الرجل : نعم ، أيّد الله الصاحب !

فسلمه الصاحب الى الحسين بن توراب أستاذ الدار ، وأمره بالاحتفاظ به الى الغد ؛ ليفصل فى أمره . وأخذ خطوط المتفقهين والقضاة والمعدلين بانزال أشد العقاب بالساعى .

وركب من الغــد الى مجلس فخر الدولة ، وقال له : على تحصيل هذا المال من وجهه من غير أن يتوجه الى الرعية فيه عنت ؛ أو ينالهم مكروه . وأتبــع ذلك من المواعظ والنصــائح بما استنزله عن رأيه ، وعاقب الساعى ، وطلب ذلك المال من عشرة رجال مياسير ، لم يؤثر فيهم تأثيرا كثيرا .

هذا هو الصاحب الوزير العف الرفيق بالرعية ، الذى لم يعرف عنه أكل حرام ، وانما عاش حياته — كما كان يقول — يأكل من حين نشأ الى يومه من أموال أبيه وجده مما ورثه عنهم [١] ..

* * *

وآيات وفاء الصاحب لآل بويه أكثر من أن تحصى ، ولكنا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١/٣١٥ .

نذكر منها أن الملك نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان ، كان يتمنى أن يكون الصاحب وزيرا له ، فأرسل اليه سرًّا يمنيه ويستدعيه الى حضرته ، ويرغبه فى خدمته ، وبذل البذول السنية ، فكان من جملة اعتذار الصاحب قوله « كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى ؟ ثم كيف لى بحمل أموالى مع كثرة أثقالى ؟ وعندى من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ؟ » .

قال أبو الحسن البيهقى : بيت الكتب الذى بالرى دليل على ذلك [١] بعد ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فانى طالعت هذا البيت ، فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات ؛ فان السلطان محمودا لما ورد الى الرى قيل له ان هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كل ما كان فى علم الكلام ، وأمر بحرقه [٢] .

لقد وزر ابن عباد لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدولة فبقى فى وزارتهما ثمانى عشرة سنة وشهورا ، وفتح خمسين قلعة سلّمها الى فخر الدولة ، لم يجتمع عشر منها — كما يقول ياقوت — لأبيه ولا لأخيه [٣] ..

* * *

وقد عاش الصاحب مع بنى بويه مبجلا مقدّرا ، معترفا له

---

(١) أى على صحة قول الصاحب ان كتب العلم عنده وحدها
(٢) معجم الأدباء ٦/٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق : صفحة ٢٥١ .

بالفضل ، نافذ الرأى ، صادق المشورة ، ولقد ارتفع به شأنهم ، كما سطع نجمه فى أيامهم ، حتى لتكاد شهرته تفوق شهرة أكثرهم، ولم يكن ذلك الا لما وهبه الله من جودة القريحة ، وصفاء السريرة..

ولقد بذل لبنى بويه من عقله وأدبه ، كما بذل فى سبيلهم من أعصابه ودمه ، ولقد عوقته خدمته لهم ، وتفانيه فى تثبيت ملكهم ، عن متابعة لذته الكبرى فى تحصيل العلم ، واقتطاف ثمار الأدب ، بين جماعات العلماء الذين كان يحبهم ، والأدباء الذين كان يجالسهم ، حتى شاخ قبل الأوان ، وها هو ذا يفضى بحاله الى واحد من أصحاب ودّه القديم يذكر حسرته على أيامه الفائتة ومجالسه العامرة الزاخرة ، وسمره الممتع فى طاقته من أهل العلم ، وأغصان دولة الأدب ، فيكتب الى أبى العلاء الأسدى عن شئونه وشجونه :

يقر بعينى أن يلمّ رسولها
ببابى ويهدى بالعشى سلامها
ويذكر لى دون الرجال حديثها
وينشر عندى نطقها وكلامها

« ورد يا شيخى — أطال الله بقاءك — رسولك بكتاب سبق الأفكار والظنون ، وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين بين قاصر ومقصّر ، ومثّل ليالينا بين اللّوى ومحجّر [1] بكلام كالورق النضير تتأوّه منه الغصون ، وكالنّور المنير أفنانه فنون ، فصادفنى حليفا للشوق أو رهينا ، وحنيّا على الحنين وساء

(١) اللوى ومحجر : موضعان .

قرينا ، وكيف لا ، وقد ألفنا القرب حولا ، حولنا رياض الأدب ترف ، ودوننا رواحل الفضل تزف ، نملك رقاب المنطق ، وتتنازع أطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالى تناشدا وتذاكرا ، وتحادثا وتسامرا الى أن يخلع الظلام ثيابه ، ويحدر [1] المصباح نقابه .

« هذا دأبنا كان الى أن جاوزنا الشباب مراحل ، ووردنا من المشيب مناهل . ثم حان الفراق ، فنحن حتى اليوم منه فى جو كدر ، ونجم منكدر ، يقبضنا عن الموارد العذاب ، ويعرضنا على لواعج [2] العذاب . والله نسأل اعادة هاتيك الأحوال ، وتلك الأيام الخضراء الظلال . وان كان الله قد زادنا بعدك مناجح ومنائح [3] ، وأيادى غوادى وروائح ، حتى فتحنا الفتوح ، وذللنا الصروح ، ورتقنا الفتوق ، ونسخنا القرون ، وأثرنا [4] الآثار ، ووطئنا الرقاب ، وطلبنا الثأر ، واصطنعنا الصنائع ، وجعلنا ودائع النعم قطائع ، وعقدنا فى أعناق الأحرار مننا ، أحسبها من سبل الاحسان سننا ، انا قد تحملنا مشاق مالت على القوة بالضعف وتحاملت على الأشر [5] بالوهن ، ودفعت الى معالجة خطوب ، تعجب الدهر من صبرنا عليها فحار ، وجبن الزمان عند شجاعتنا لها فخار .

---

(١) حدر الشيء حطه من أعلى الى أسفل ، والمراد يسدل .

(٢) لواعج ، مفردها لاعج ، أى محرق .

(٣) المنائح العطايا .

(٤) أثرنا الآثار : تركنا فيها أثرا .

(٥) الأشر المرح والبطر .

وها أنا أحوج ما كنت الى أن أرفّه ولا أستكره ، وقد رميت يسهم الأربعين ، وأرميت [١] على شرف الخمسين ، مدفوع الأشغال والأثقال ، الى متاعب ومصاعب لو منى بها ابن ثلاثين قويا أزره [٢] ، طريا جرضه [٣] لقام عجزه وقعدت به نفسه ، وأظننى قديما قلت :

وقائلة : لم عرتك الهمـــــوم
وأمــــرك ممتثــــل فى الأمم
فقلت : دعينى وما قد عــــرا
فان الهمـــــوم بقــدر الهمم

وما أنا على الراحة آسف ، بل على ألا أكون مشغولا بأخرى أمهد لها وأكدح ، وأدأب لنفسى وأنصح .

اللهم وفّق وقدّر ، وسهّل ويسّر ، انك على ما تشاء قدير ».

وهذه الرسالة وان بدا فيها حب العمل والرغبة فيه ، ومواصلة الكفاح فى أمجاد يبنيها للدولة ، فهى تتضمن فى الحقيقة مشاعر جندى لا يستطيع أن يفرّ من ميدان القتال ، ولا سيما اذا كان ذلك الجندى هو المسئول الأول عنها ، والقائد الذى فرضت عليه الأقدار قيادتها ، وهو يشعر بثقل الحمل على كاهله ، ألا تراه يقول « رميت بسهم الأربعين ، وأرميت على شرف الخمسين ، مدفوع الأشغال والأثقال الى متاعب ومصاعب ، لو منى بها ابن

---

(١) أرميت : زدت .
(٢) الأزر القوة .
(٣) الجرض : الريق يبتلع بجهد ، ولكنه اذا كان طريا سهل .

ثلاثين قويا لقام عجزه ، وقعدت به نفسه » ؟ ولكن الهموم كما يقول على قدر الهمم ! . ثم ترك تلك الحسرة الظاهرة على سعادته بالعلم والأدب والمناظرة والمحاورة التى فقدها ارضاء لملوكه « وكيف لا ، وقد ألفنا القرب حولا ، حولنا رياض الأدب ترف ، ودوننا رواحل الفضل تزف ، نملك رقاب المنطق ، ونتنازع أطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالى تناشدا وتذاكرا ، وتحادثا وتسامرا ، الى أن يخلع الظلام ثيابه » ؟

ولكن بهذا الصبر والثبات استطاع الصاحب أن يضم الى فضل العلم والأدب فضل السيف والجهاد ، وكان بحق « كافى الكفاة » الذى كان يصول بسيفه كما كان يصول بفكره وفنه !

الصاحب وحكام الزمان

وقد علت منزلة الصاحب فى عيون الحكام وفى قلوبهم ، وتوثقت صلته بمعاصريه من الأمراء والوزراء والكتاب فى زمن غلت فيه مراجل التحاسد والبغضاء ، وازدادت فيه الأطماع التى أخذت تحطم أواصر الصلات ، وتهدم صروح الصداقات ، ولكن ما طبع عليه الصاحب من الوقار واحترام النفس ، وما متع به من حسن التدبير والتفوّق العلمى والأدب ، جعل صلته بأولئك الحكام والوزراء صلة ودّ واكبار .

ولقد كسب الصاحب احترام رجال البيت البويهى وثقتهم فى سائر ممالكهم وأوطانهم وعلى الرغم مما كان بينهم من

التنافس ، وما كان يقع بين بعضهم من التقاطع ، وكان احترام البويهيين له احتراما موروثا ، فقد كان آباؤهم يحترمون أباه عبادا الذى كان يلقب «الأمين» والذى كان ديّنا خيّرا مقدما فى صناعة الكتابة ، والذى تولى الوزارة لركن الدولة بن بويه ، والذى كان أستاذا للوزير أبى الفضل بن العميد . ثم احترام مكسوب كسبه الصاحب بعقله وخلقه وحسن تدبيره .

* * *

أما الثلاثة من أبناء ركن الدولة عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، فقد عظم قدر الصاحب فى نفوسهم الى درجة كبيرة ، وقد زار الصاحب همذان وزار عضد الدولة سنة تسع وستين وثلثمائة ، فلقى منه كل ترحيب واجلال كما قدمنا ، وقد أشار الصاحب الى أثر هذه الزيارة فى قوله « ولقد أودعت صدر عضد الدولة ما يطيل التفاته الىّ ، ويكثر حسرته علىّ ، ولقد رأى منى مالم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله الذى أوفدنى عليه على ما يسر الولىّ ، وأصدرنى عنه على ما يسوء العدوّ » وفى كتاب محاسن أصفهان لمحمد بن سعد المافروخى عند كلامه عن الصاحب « كان والله الفاضل المميز ، والكامل المبرز ، ثالث الثلاثة الذين نافس عضد الدولة فيهم أخاه مؤيد الدولة ، وحسده عليهم ، وهو أن العضد كان كثيرا ما يقول قولا معناه : قد حبيت بغايات الأمانى ، وأوتيت أقصى المباغى ، فلا أحسد ملكا من الملوك على شىء غير أخى — مؤيد الدولة — على أبى القاسم الثلاثة : أبى القاسم اسماعيل بن عباد ، وأبى القاسم

فضل بن سهل ، وأبى القاسم بن جعفر المعروف باليزدى . وكان كل واحد منهم فى فنه نسيج وحده ، وقريع زمانه ، منيفا على أهل صناعته وأقرانه ، وقول البحترى :

ثلاثة جلّة ان شوورو نصحوا
أو استعينوا كفوا أو سلطوا عدلوا

يوهم أنه لم يمدح به غيرهم .

وفى هذه الأمنية أو فى هذا الحسد ما يشعر بمنزلة الصاحب فى نفس عضد الدولة ، أما منزلته عند مخدوميه مؤيد الدولة وفخر الدولة فكانت أقوى ، وللكلام فيها بيان فى غير هذا الموضع.

وقد تجاوز الاعتراف بالصاحب تلك الدائرة المحدودة دائرة أسرة بنى بويه الى الملوك والحكام المجاورين ، بل الى الذين كانوا ينقمون على بنى بويه كالسامانيين فى بخارى الذين كاتبوا الصاحب سرًّا ليصل اليهم ويسلموه زمام الحكم فى بلادهم لما عرفوا فيه من الحكمة والفضل ، ولكنه أبى ، وقد أشرنا الى ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، وكانت كذلك صلته بحاجبه حسام الدولة أبى العباس تاش ، ودليل هذه الصلة القوية والثقة المتبادلة كتاب الصاحب اليه فى أمر العناية بالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ..

* * *

وكذلك قويت صلته بسائر الوزراء والكتاب ، وكأنه كان يحسّ بما يدفعه اليه قلبه من البرّ بهم ، وتوثيق عرا الألفة بينهم ، لانتسابهم الى فنّه ، وكأنهم كانوا يحسون بزعامته لهم ،

ويجدون فى قوته تمكينا لهم ، ومنهم أبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف الذى وصفه الثعالبى بأنه أحد صدور المشرق وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، الحسان الآثار والأخبار ، وأعيان الممدحين المقدمين فى الآداب والكتابة ، والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا فى وزرائه وأخص ندمائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده [1] ، وعلامة هذا الحب للصاحب ، والثقة المتبادلة بينهما كتابه اليه بعد مفارقته حضرته « كتابى أدام الله عزّ مولانا وحالى — فيما أعاينه من تمثيل حضرته ، وتذكر خدمته ، والمواقف التى سعدت فيها برؤيته ، وأفدت من مشاهدته حظها ، ومقابلة نعم الله عليه ، وعلى الأدب وحزبه ، والكرم وأهله فيه — حال امرىء هبّ وقد أوردته الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلهف تذكرا ، ويتلذذ تحيرا ، ويناجى النفس تأملا ، ويراقب المنى تعللا . وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها ، وأسأله قرب الادالة [2] ، والعقبى السّارة » .. وينشىء قصيدة فى الصاحب منها هذه الأبيات :

يجاذب نحو الصاحب الشوق مقودى
وقد جاذبتنى عنه أيدى الشواذب [3]
سقى الله ذاك العهد عهدا من الحيا
وتلك السجايا الغرّ غرّ السحائب

---

(١) يتيمة الدهر ٢/٣١٢ . (٢) الادالة : الغلبة والنصر .
(٣) الشواذب : المفرقات المبعدات عن الأوطان .

وقد لحظت عيناى من شخصك العـلا
ومن فرعك الفينـان أعلى المناسب
ومن لفظك الدر المصـون ومن حيـا
محياك مـالم تجـره كف خاطب
وأخلاقك الغـرّ التى لو تجسـمت
لكانت نجوما للنجـوم الثواقب
ففاضت عـلى خـدى سوابق عـبرة
كما أسلمت عقدا أنامـل كاعب
سلام على تلك المكارم والعـلا
تحية خـل عن جنـابك غائب
وما أنا بالنـاسى صـنائعك التى
كتبن عـلىّ الـرق ضربة لازب

* * *

وكان الشاعر أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى قد انتجع الصاحب ولم يزل بين خير مستفيض وجاه عريض ، ونعم بيض الى أن آثر قصد حضرة عضد الدولة بشيراز ، فجهزه الصاحب اليها ، وزوده كتابا بخطه الى أبى القاسم عبد العزيز ابن يوسف ، وفيه يقول : « قد علم مولاى أطال الله بقاءه أن باعة الشعر أكثر من عدد الشعر ، ومن يوثق بأن حليه التى يهديها من صوغ طبعه ، وحلله التى يؤديها من نسج فكره أقل من ذلك ! وممن خبرته بالامتحان فأحمدته ، وفررته [1] بالاختبار فاخترته

(١) فررته : اختبرته وجربته .

أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى أيده الله تعـالى ، وله بديهة قوية توفى على الروية ، ومذهب فى الاجادة يهش السـمع لوعيه ، كما يرتاح الطرف لوعيه ، وقد امتطى أمله — وخير له — الى الحضرة الجليلة رجاء أن يحصل فى سواد أمثـاله ، ويظهر معهم بياض حاله ، فجهزت منه أمير الشعر فى موكبه ، وحليت فرس البلاغة بمركبه . وكتابى هذا رائده الى القطر ، بل مشرعه الى البحر . فان رأى مولاى أن يراعى كلامى فى بابه ، ويجعل ذلك ذرائع ايجابه ، فعل ان شاء الله تعالى » فلما وردها تكفّل به أبو القاسم وأفضل عليه ، وأوصله الى عضد الدولة ..

* * *

وكذلك كانت صلته بالوزير أبى محمد الحسن بن محمـد المهلبى الذى كان من ارتفاع القدر واتساع الصدر ونبل الهمة وفيض الكف وكرم الشيمة على ما هو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة فى وزارته لمعز الدولة وتدبيره أمور العراق ، وانبساط يده فى الأموال ، مع كونه غاية فى الأدب والمحبة لأهله (اليتيمة ٢/٢٢٣) . وقد وصف الصاحب فى كتابه « الروزنامجه » من اهتمام المهلبى به ، حين زاره فى بغداد ما يدل على اجلاله وحبّه ، ومن ذلك قوله : « وحضرت الأستاذ أبا محمد أيده الله تعالى فى منظرة له على دجلة تنفتح منها أبواب الى بساتين ، فعمل بيتين صنعا فى الوقت ، وغنى بهما ، وهما :

لئن عرفت جـــريرا أو اعتمدت قطيعا [1]
فلا ظفـــرت بعاص ولا أطعت المطيعـــا

وأنفذ الأستاذ أبو محمد — أيده الله — ليلة وقد مضى الثلث منها فاستدعانى ، وعاد دابة نوبته كى لا أتأخـــر انتظارا لدابتى ، فمضيت وألفيته قد انتهى من بستانه الكبير الى مصبها من دجلة على ميادين ريحان نضرة ، فاستحسن الموضع ، وقعد فيه يشرب مع خدمه : أبى الكأس ، وســلاف ، وأبى المدام ، وشراب ، وخندريس ، وشمول ، وراح . وأمر فنصبت نحو مائة شمعة فى أصول تلك الميادين صغيرة ، وقعدت ، فغنّى سلاف :

يا شقيق النفس من حـــكم نمت عن ليـــــلى ولم أنم

فقال الأستاذ : بل غنّ :

يا شقيق النفس من خـدمى لم ينم ليـــــــلى ولم أنم
غنى من شـــعر ذى حـــكم يا شقيق النفس من حـــكم

قال الصاحب : ولـــم نزل نشرب الراح الى أن باح الصبح بسّره ، وقام كل منا يتعثر فى سكره .

الصــاحب والأدباء

ان صلة الصاحب بالأدباء والكتاب ، كانت دائما صلة الحب والابقاء على الودّ ، لأنهم يمثلون دولة الأدب التى كان الصاحب ينتسب اليها ، بل كان من زعمـــائها ، ورافعى ألويتها ، فكان

---

(١) المراد بالجرير الجريرة والذنب ، والمراد بالقطيع هنـــا القطيعة — وهو تفسير الصاحب .

يقدرهم فى مناصبهم ، ويبرّهم اذا أبعدوا عنها ، لا يضيع له ودّ ، ولا يخيس له معهم عهد ، ومن مثل ذلك ما كان بينه وبين أبى اسحاق الصابى الذى كان أوحد العراق فى البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة ، وكان قد خنق التسعين فى خدمة الخلفاء ، وخلافة الوزراء ، وتقلد الأعمال الجلائل مع ديوان الرسائل ، وحلب الدهر أشطره ، وذاق حلوه ومرّه ، ولابس خيره ، ومارس شره (اليتيمة ٢/٢٤١) .

وكان الصاحب يتمنى انحياز الصابى اليه ، وقدومه الى حضرته ، ويضمن له الرغائب على ذلك ، اما تشوقا أو تفوقا — كما يقول الثعالبى — وكان أبو اسحاق يحتمل الخلة وسوء أثر العطلة ، ولا يتواضع للاتصال بجملة الصاحب بعد كونه من نظرائه وتحليه بالرياسة فى أيامه . وكان الصاحب كثيرا ما يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه !

وأيا ما كان القول فى المفاضلة بين الرجلين : الصاحب ، والصابى ، فان الصاحب كان يضمر الودّ للصابى ويظهره ، وكان استدعاؤه له فى أيام شدته ومحنته ثمرة لهذا الودّ الأكيد ، وبرًّا به ، واعترافا بسابقته فى الفضل والفن ، فهو ودّ خالص لوجه الأدب ، وبرّ خالص لوجه الله ، لا يريد الصاحب به جاها

ولا منزلة ، لأنه كان اذ ذاك صاحب الجاه والمنزلة . وكان الصابى يقـدر ودّ الصاحب ، وهـذا شيء من أحد كتبه اليه « كتبت — أطال الله بقاء الصاحب — هذا الكتاب ، وأنا أودّ أن سواد عينى مداده ، وبياضها طرسه ، شوقا الى لألاء غرته ، وقرما[1] الى تقبيـل أنامله ، وظمـأ الى ارتشاف بساطه .. وما عسيت أن أبلغ فى شكر سيدنا وحمده ، على ما أهلنى له من برّه ورفده ، وجهدى يقصر عن عفوه ، واسهابى يعجز عن وصفه ، وهل أنا فى ذلك لو فعلته الا كمن جارى الحصان بالأتان ، وواجه الغزالة [2] بالذبالة ، وقارع الحسام بالعصا ، وبارى الدّرّ بالحصى ؟ [3] .

وحدث هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى قال : وكان الصاحب أبو القاسم يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ، وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الكتاب والزهاد والفقهاء ، بما يحمله اليهم فى كل سنة مع الحاج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار ، والىّ ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب ، فأذكر وقد راسله بعد وفاة عضد الدولة بالاستدعاء الى حضرته بالرىّ ، وبذل له النفقة الواسعة ، والمعونة الشاسعة عنـد شخوصه ، والارغاب والاكثار عند حضوره ، فكانت عُقّله بالذيل الطويل والظهر

(١) القرم — بفتحتين — شدة شهوة اللحم .
(٢) الغزالة الشمس والذبالة الفتية .
(٣) يتيمة الدهر ٢/٢٥٦ .

الثقيل تمنعه من ترك موضعه ومفارقة موطنه ، فمما كتبه اليه بالاعتذار عن التأخير :

نكصت على أعقابهن مطالبى | وتقاعست عن شأوهن مآربى
وتبلدت منى القريحة بعـــد ما | كانت نفاذا كالشهاب الثاقب
وبكيت شرخ شبيبتى فدفنتها | دفن الأعزة فى العذار الشائب

ومنها :

فلو ان لى ذالك الجناح لطار بى | حتى أقبل ظهر كفّ الصاحب
وأعيش فى سقيا سحائبه التى | ضمنت سعادة كل جد خائب
وأراجع العادات حــول قبابه | حتى السوادمن الشباب الذاهب
وأعدّ من جلساء حضرته التى | شحنت بكل مسائل ومجاوب
فيقول من ذا ســائل عنى له | متثبت فيقول هـــذا كاتبى
أترى أروم بهمتى ما فوق ذا | أنّى وخدمته أجــلّ مراتبى

ومنها يعتذر عن عدم قدرته على الشخوص اليه :

كثرت عوائقى التى تعتاقنى | من غيث راحته الملثّ الساكب
ولد لهـــم ولد وبطن ثالث | هو رابعى وعشيرتى وأقاربى
والسنّ تسع بعدها خمسون قد | شامت بوارق يومها المتقارب
فالجسم يضعف عن تجشم راجل | والحال يقصر عن ترفه راكب
وعــلىّ للسلطان طاعة مالك | كانت على الملوك ضربة لازب
وتعطّلى مع شهرتى كتصرفى | كل سواء فى الحساب الحاسب

وهى قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسّن : فلما كانت سنة أربع وثمانين التى توفى

فيها جدّى أحسّ باقتضاء مدته ، وحضور منيته ، فكتب الى الصاحب كتابا يسأله فيه اقرار هذا الرسم المذكور على ولده ، واجراءه لهم من بعده ، وقرن الكتاب بقصيدة أولها :

تحـذر منـك النائبات فتحـذر
وتذكر للخطب الجسيم فيصغر
وتكسى بك الدنيا ثياب جمالها
فيرجوك معروف ويخشاك منكر

يقول فيها :

أسيدنا ان المنية أعـذرت [1]
الىّ بآيات تروع وتذعر
لها نذر قد آذنتنى بهجمة
على مورد ما عنه للمرء مصدر
وانى لأستحلى مرارة طعمه
اذا كنت بالتقديم لى تتأخر
وحق لنفس كان منك معاشها
اذا غمضت عينا وعينك تنظر
ومن ورث الأولاد بعد وفاته
حضانك طابت نفسه حين يقبر
تمرد منك الجود حتى تمردت
مطالبنا والماجد الحر يصبر

(١) يقال أعذر الرجل أى أبدى عذرا .

أأطلب منـــك الرفد عمــــرى كله
وأطلبه والجنب منى معفـــــــــر
وليست بأولى بدعة لك فى النـــدى
لها موقف فيه لك الحمـــــد ينشر

وهى أيضا قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسن : وأمرنى بأن أنفذ ذلك فأنفذته ، وكتبت عن نفسى كتابا فى معناه ، ووصل ونفذ من يحمل الرسم على العادة. ثم اتفق أن توفى الصاحب فى أول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، فوقف ، وكانت بين وفاتهما شهور [1] ..

* * *

وهكذا كانت صلات الصـــــاحب بسائر الحكام والوزراء والكتاب صلات حب واحترام ، يعرف لهم حقهم ، ولا يقصّر فى اكرامهم ، وهم يعرفون له فضله ، ولا يبخسونه حقه . ولهذا عاش ما عاش معظما مكرما من الصغير والكبير ، ومن القريب والبعيد ، وبذلك استقام الملك ، وانتظم حبل الأمر ؛ حتى انتهى أجله فانتثر ذلك العقد المنظوم بالحلم والعلم ، والنهى والأدب ، وأخذت الدولة فى الضعف والتفتت ، ودب فيها الضعف بعد شـــباب مزدهر ، وقوة دافعة فى وجه الأحداث والخطوب ، وقد تنبأ بهذا بعض بنى المنجم بعد وفاة الصاحب ، واسناد الوزارة الى أبى العباس الضبى ، الذى لقب بالرئيس ، كما لقب بالجليل ، فقال :

---

(١) معجم الأدباء ٣٠٦/٦ .

والله والله لا أفلحتم أبـــــــدا
بعــد الوزير ابن عبــاد بن عباس

ان جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى
أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسى

وأنشد أبو العباس العلوى الهمذانى فى مرثيته للصاحب :

مات الموالى والمحب لأهل بيت أبى تراب
قد كان كالجبل المنيع لهم فصار مع التراب

* * *

واتنقلت الوزارة بعد موت الصاحب الى أبى العباس أحمد بن ابراهيم الضبى ، الذى وصف بأنه جذوة من نار الصاحب أبى القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب منابه فى حياته ، القائم مقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب استصحبه منذ الصبا ، وأدبه بآدابه ، وقدمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمانه [1] ، وقال ياقوت : انتقلت الوزارة عنه الى أبى العباس أحمــد بن ابراهيم الضبى ، وأبى على الحسن بن أحمد بن حمولة ، والسياسة التى قد سنها الصاحب باقية ، وحشمة الوزارة ثابتة ، والأمور على ما عهد فى أيامه جارية ، وكان لهما من الحشم والحاشــية والتجمل والزينة مثل ما كان له ، بل كانا فوقه فى الغنى والثروة ، وان لم يلحقاه فى الفضل والمكرمة [2] .

---

(١) يتيمة الدهر ٢٨٧/٣ .
(٢) معجم الأدباء ٢٤٩/٦ .

عروبة الصاحب

لم يعرف من آباء الصاحب وأجداده الا خمسة هم : عباد ، والعباس ، وعباد ، وأحمد ، وادريس — وفى بيتى السلامى الشاعر ، اللذين هجا بهما الصاحب ، نرى أن جد أبيه هو « عبد الله » لا « عباد » — ثم ينقطع نسبه بعد ادريس

وأيا ما كان الأمر فان أسماء هؤلاء الآباء الخمسة كلها أسماء عربية من الأعلام التى تتردد كثيرا فى أسماء العرب ، وليس من بينها اسم أعجمى واحد .

وعرف كذلك أن الصاحب قد ولد فى « الطالقان » وهو اسم لمدينتين احداهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوين ، وأن الصاحب من طالقان قزوين ، لا طالقان خراسان . وفى هذا الاقليم كانت تسكن جماعات الديلم والجيل ، وقيل فى نسبة الصاحب انه « ديلمى » والديلم التى نسب اليها الصاحبى ، كما نسب اليها بنو بويه ، مختلف فيها ، فقيل هم جنس من الأجناس ، واختلف فى أصل هذا الجنس ، فقال فريق انهم ينحدرون من الفرس ، وذهب جماعة الى القول بأنهم من أصل عربى ، وقيل انهم جنس مستقل لهم صفاتهم الخاصة التى جعلت لهم شخصية مستقلة عن سائر الأجناس . فى حين أن بعض الكاتبين لم يعنوا بأنساب هؤلاء الديلم ، كما فعل يا قوت اذ قال ان الديلم جيل سمّوا بأرضهم ، وهم فى جبال قرب جيلان ، وذكر أن الديلم أيضا ماء لبنى عبس ، وقيل بأرض اليمامة .

وقد ذكر (الديلم) القلقشندى فى أنساب العجم ، وهم من عدا العرب من الفرس والترك والروم وغيرهم — وقال ان الديلم هم الذين كان منهم ملوك بنى بويه الخارجين على خلفاء بنى العباس ببغداد . قال فى العبر : هم من بنى ماداى ، بن يافث ، ابن نوح . وقال ابن سعيد : من بنى باسل ، بن أشور ، بن سام ، ابن نوح . وقيل هم من العرب . وضعفه أبو عبيد [1] .

والذين ينسبونهم الى العرب يرفعونهم الى باسل بن ضبة ابن أد ، هذا ما يقال فى الديلميين جميعا ، وهذا ما يقال فى الصاحب بن عباد ، وان كانت أسماء أولئك الأجداد الخمسة ، وهى أسماء أعلام عربية خالصة ، تختلف عن أكثر الأسماء الديلمية التى حملها أكثر الأسماء التى عرفها التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى — أقول ان فى هذه الأسماء العربية الخالصة ما يدعو الى الميل الى ترجيح عروبته ، وهو ترجيح على أى حال لا يصل الى درجة اليقين الذى لا يكون الا بنص ثابت يوثق به ويطمأن اليه . ذلك من ناحية الأنساب التى لا يعلم حقائقها الا الله .

* * *

ولكن الحقيقة التى تستعصى على التردد هى أن الصاحب كان عربيا بحسه ومشاعره ، وكان عربيا بعقله وتفكيره ، وكان عربيا بفنه وأدبه ، وكان عربيا بدينه وعقيدته ، وقد سبق أن قلنا [2] ان العروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها

(١) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١/٣٦٧ .
(٢) انظر مقدمة هذا الكتاب .

المتألقة وأمجادها السامقة فى تاريخها المجيد أن تصهر أفذاذا من أبناء الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزا ومنعة وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من عقولهم وقلوبهم وغيرتهم ما يعزّ على الاحصاء ، وما يستعصى على النسيان ، فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة أبنائها ، وصهرت من تلك العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية متألقة ، وجوهرة فريدة فى جبين الزمان ، فأنساهم ذلك الاعزاز منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا فى بناء نهضة وحضارة تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها فى وجه الأحداث والعواصف والمحن .

وتتجلى عروبة الصاحب فى كل ناحية من النواحى التى تكونت بها شخصيته ، وقام عليها مجده ، ولذلك وجدناه دائما متعصبا للعرب مدافعا عنهم ، متصديا لكل شعوبى يحاول انتقاصهم أو النيل من أمجادهم ، وكان يقول انه لا يرى رجلا متعصبا على العرب الا وفيه عرق من المجوسية !

ومما يذكر دليلا على تعلق الصاحب بعروبته ، وعلى بغضه الشديد للشعوبية ما ذكره أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى فى قوله : كنت عند الصاحب كافى الكفاة أبى القاسم اسماعيل ابن عباد يوما اذ دخل عليه شاعر من العجم ، فأنشده قصيدة يفضل بها قومه على العرب ، وفيها يقول :

غنينا بالطبول عن الطلول

وعن عنس عذافرة ذمول

فلست بتارك ايوان كسرى
لتوضح أو لحومل فالدّخول
وضب فى الفلا ساع وذئب
بها يعوى وليث وسط غيل
يسلّون السيوف لرأس ضب
حراشاً بالغداة وبالأصيل
اذا ذبحوا فذلك يوم عيد
وان نحروا ففى عرس حليل
بأية رتبة قدمتموها
على ذى الفضل والرأى الأصيل ؟
أما لو لم يكن للفرس الاّ
نجار الصاحب القرم الجليل
لكان لهم بذلك خير فخر
وجيلهم بذلك خير جيل

فقد حاول ذلك الشاعر الشعوبى أن يتملق الصاحب بهذا الشعر فينسبه الى الفرس ، مقدرا أنه سيغفر هذه الشعوبية اذا اتصلت بمدحه ، ولكن الصاحب حين رآه قد وصل الى هذا الموضع مع انشاده هاج وغضب ، وقال له : قدك[1] ! ، واشرأب ينظر الى مجلسه وزواياه يبحث عن أبى الفضل بديع الزمان .

قال بديع الزمان : وكنت جالسا فى زاوية فلم يرنى ، فقال : أين أبو الفضل ؟ فقمت واقفا وقبلت الأرض ، وقلت : أمرك !

---
(١) قدك : حسبك .

فقال : أجب عن ثلاثتك ! فقلت : ما هى ؟ قال : أدبك ونسبك ومذهبك ! فأقبلت على الشاعر ، وقلت : لا فسحة للقول ، ولا راحة للطبع الا سردا كما تسمع ، وأنشدت :

أراك على شفا خطر مهول
بما أودعت رأسك من فضول
تريد على مكارمنا دليلا
متى احتاج النهار الى دليل ؟
ألسنا الضاربين جزى عليكم
وكان الجزى أولى بالذليل ؟
متى قرع المنابر فارسى ؟
متى عرف الأغر من الحجول
متى علقت وأنت بها زعيم
أكف الفرس أعراف الخيول
فخرت بملء ما ضغتيك فخرا
على قحطان والبيت الأصيل
وحقك أن تفاخرنا بكسرى
فما ثور ككسرى فى الرعيل
فخرت بأن ملبوسا وأكلا
وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن فى خد أسيل
وشعر فى مفارقها رسيل

وأنجد من أبيك اذا أثرنا

عراة كالليوث على الخيول

قال بديع الزمان : فلما أتممت انشادى التفت الصاحب فقال له : كيف رأيت ؟ فقال : لو سمعت به ما صدقت ! قال : فاذن جائزتك جوازك ، ان رأيتك بعدها فى مملكتى ضربت عنقك ! ثم قال : لا أرى أحدا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية !

وقد سمع الصاحب أن رجلا يتعصب للعجم على العرب ، وينسب الى العرب أكل الحيات ، ويعيبها بذلك ، فردّ عليه الصاحب هذا الردّ الموجع :

يا عائب الأعراب من جهله

لأكلها الحيات فى الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم

تنساب فى الأخت وفى الأم

تلك بعض مظاهر اعتزاز الصاحب بالعروبة وبغضه للشعوبية ودعاتها ، ولكن عروبته الكبرى فى علمه وأدبه ، كما سيأتى :



الفصل الرابع

أخلاق الصاحب

أخلاق الصاحب

لعل أوضح أخلاق الصاحب وأبرزها ذلك الخلق الذى أجمع عليه الذين عاشروه والذين اتصلوا به ، والذين رووا أخبـاره ، وهو خلق الترفع والاعتداد بالنفس ، وجدير بمن كان مثله فى كرم المنبت والتربية والمنشأ ، ومن كان مثله فى المنصب والجاه وتحصيل الثقافة الواسعة والتفرع فى الفن والأدب أن يزدان بهذا الخلق ، وألا يستصغر نفسه اذا كان عالى الهمة ، فقد كان رفيعا فى بيته ، رفيعا فى علمه وأدبه ، رفيعا فى جاهه ومنصبه ، فكان أبوه « الأمين » عالما ووزيرا ، ودرج الصاحب على بساط النعمة ، وما بالك بمن كانت تعطيه أمه كل يوم وهو ذاهب لتحصيل العلم دينارا ودرهما هذا للنفقة وذاك للصدقة على أول فقير يلقاه ، فكان كما قال عن نفسه :

لست أسـتغنم الكثير فطبعى
قول «خذ» ليس مذهبى قول «هات»!

وما بالك بمن يصفه أستاذه أبو الفضل بن العميـد بأنه « سيد » ويخاطبه بقوله « مولاى » وان تعددت معانى « المولى » فانه يذكرها فى مقام التعظيم والتقدير ؟ !

وما بالك بمن يصرّ على الاعتذار أمام اصرار ركن الدولة على أن يكون مؤدب ولده ، ومدربا له على شئون السياسة والتدبير ؟

وما بالك بمن يقال له انه لن يعترض على أى اقتراح يقترحه ، أو أى شرط يشترطه من الأمير الكبير أو من وزيره الخطير ؟

لم يكن شيء من ذلك الا لما عرف عن الصاحب من الترفع والاباء ، مع ما وهب من سائر الأسباب التى تدعو الى ايثاره والحرص عليه .

ومن ثم عاش الصاحب مبجّلا معترفا بفضله وعلمه وأدبه ، مشهورة أمجاده وصنائعه ، لأنه كان كما قال أبو سعيد الرستمى :

الصاحب العالى الصنائع صاحبى
في النائبات وعدّتى وعتادى
ورث الوزارة كابرا عن كابر
موصولة الاسناد بالاسناد
يروى عن العباس عباد وزا
رته واسماعيل عن عباد
شرف كعقد الدر واصل بعضه
بعضا كأنبوب القنا المنآد

واذ قد عرف ذلك الخلق فيه ، وكان له أهلا ، وبه جديرا ، فان ذلك الخلق لم يزعج أحدا من سادته ومواليه ، بل كانوا يرون مظاهر استعلائه ، فلا يرون فى ذلك غضاضة ، ولم يسمع عن واحد منهم أنه كان ينكر على الصاحب ما يراه فيه من كبرياء واعتداد بالنفس ، فلم يكن الأمر أمر منصب يتولاه ، ويتولّى غيره منصبا أرقى منه ، أو منصبا دونه ، فيتصاغر أمام من هو أعلى منه ويتضاءل ، ثم يحلّ عقدته النفسية أمام من يصغرونه فى المنصب والوظيفة ،

كما هى شيمة شاغلى المناصب والوظائف ، الذين يقدر كل واحد على حسب درجته من الوظيفة والمنصب ، وينظر كل واحد منهم الى من هم فوقه والى من هم دونه على هذا الأساس ، ويقيسهم على حسب هذا القياس .

ولكن الصاحب لم يكن كذلك ، بل كان هذا الاعتداد خلقا فيه ، وطبعا أصيلا من طبائعه المتميزة ، فهو كبير مع الصغار ، وكبير أيضا مـع الكبار ، ولكنها الكبرياء المترفعة لا الكبرياء البغيضة المتعجـرفة ، بل أننا لنراه فى كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه ، ويكبر من شأنهم ، ويعلى من نفوسهم ، واستطاع الصاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة ، وللأدباء مقاما ودولة .

* * *

ومن آيات هذا الاعتداد ما ذكر الوزير أبو سعد منصور بن الحسين الآبى فى تاريخه من جلالة قدر الصاحب ، وعظم قدره فى النفوس أنه لما توفيت أم كافى الكفاة — الصاحب — بأصبهان ، وورد عليه الخبر ، فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته فخر الدولة بن ركن الدولة معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزّيه ويسكّن منه ، وبسط الكلام معه بالعربية ، وكان يفصح بها ، فسمعته يقول حين أراد القيام : « أيها الصاحب ، هـذا جرح لا يندمل » !

فأما سـائر الأمراء والقواد ، مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل ، وفولاذ بن مانادر أحد ملوك الديلم ، وأبى العبـاس

الفيروزان بن خالد فخر الدولة ، وغيرهم من الأكابر والأماثل ، فانهم كانوا يحضرون حفاة حسَّراً .

وكان كل واحد منهم اذا وقعت عينه على الصاحب قبّـل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك الى أن يقرب منه ، ويأمره بالجلوس فيجلس ، وما كان الصاحب يتحرك ولا يستوفز [1] لأحد ، بل كان جالسا على عادته فى غير أيام التعزية .

فلما أراد القيام من المعزّى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدم اليه اللكّاء [2] منوجهر بن قابوس ، فانه قال : يحمل الى أبى منصور ما يلبسه ، فقدم اليه ، ومنع الخروج من الدار حافيا . ثم قدّم الحجاب والحاشية اللكاوات الى الجماعة ، فعتب فولاذ ابن ماناذر والفولاذ دريدية عليه ذلك ، وقالوا ميّز منوجهر من بين الجماعة ، فاحتج الصاحب ببيته العظيم ، ورياسته القديمة[3] ..

وخطب كافى الكفاة ابنة أبى الفضل الداعى لسبطه [4] عبّاد ابن الحسين ، ووقع الاملاك [5] فى داره يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكان يوما عظيما احتفل فيه كافى الكفاة ، ونثر من الدنانير والدراهم شيئا كثيرا ، ولذلك أنفذ له فخر الدولة على يدى حجّابه الكبار

---

(١) استوفز فى قعدته اذا قعد قعودا منتصبا غير مطمئن .
(٢) اللكاء جلد مصبوغ سمى به الخف .
(٣) معجم الأدباء ٦/٢٣٩ .
(٤) السبط واحد الأسباط ، وهم ولد الولد ، وعباد ابن بنت الصاحب .
(٥) الأملاك : التزويج .

الى هناك من النـِّثار [١] ما زاد على مائة طبق عينا وورقا [٢] ، وحضر الفولاذ دريدية بأسرهم ، فان الابنة المزوجة كانت ابنـة دِيكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة ، وكان القوم أخوالها ..

وقد أضافهم الصاحب ، ونصبت مائدة عظيمة فى بيت طوله يزيد على خمسين ذراعا ، وكانت بطول البيت ، وأجلس عليه ستة أنفس . وكان فولاذ بن مانادر وكبّات بن بلقسم فى الصدر ، وبجنب فولاذ أبو جعفر بن الثائر العلوى ، وبجنبه الآخر أبو القاسم ابن القاضى العلوى ، ودون أحد العلويين كاكى بن يشكرزاد ، ودون الآخر مرداويج الكلارى . ووقف أبو العباس الفيروزان وعبد الملك بن ماكان للخدمة . ووقف كافى الكفاة أيضا ساعة ، ووقف جميع أكابر الكتاب والحجاب مثل الرئيس أبى العباس أحمد بن ابراهيم الضبى ، وأبى الحسين العارض ، وأخيه أبى على وابنه أبى الفضل ، وأبى عمران الحاجب ، وغيرهم ، الى أن فرغ القوم من الأكل ، ثم أكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة . وأما قاضى القضاة والأشراف والعدول فانهم أطعموا على مائدة أخرى فى بيت آخر .

* * *

وقد كان يحضر الى دار الصاحب أعيان الدولة وأبناء الملوك والأمراء والقواد ، وسائر من ساواهم من الزعماء والكبار ، مثل

---

(١) النثار بالكسر اسم لما ينثر ، وهو هنا الدنانير والدراهم .
(٢) العين الدينار ، أو المال . والورق الدراهم المضروبة .

أولاد مؤيّد الدولة ، وابن عز الدولة ، ومنوجهر بن قابوس بن وشمكير ، وأبى الحجاج بن ظهير الدولة ، وأسفهيد بن أسـفار ، وحسن بن وشمكير ، وفولاذ بن مانادر ، ونصر بن الحسن بن الفيروزان ، وأبى العباس الفيروزان بن الحسن الفيروزان ، وكبّات ابن بلقسم بن الفيروزان ، وحيدر بن وهسوذان ، وكيخسرو بن المرزبان بن السلار ، وجستان بن نوح بن وهسوذان ، وشيرزيل ابن سلار بن شيرزيل ؛ وكان فى يد كل واحد من هؤلاء من الاقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها الى عشرين ألف دينار ، ومن أكابر القواد ما يطول تعدادهم .. كانوا يحضرون باب داره ، فيقفون على دوابّهم مطرقين ، لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاما لموضعه ، الى أن يخرج أحد خلفاء حجّابه ، فيأذن لبعض أكابرهم ، ويصرفهم جملة ، فكان من يؤذن له فى الدخول يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحا ومسرّة وشرفا وتعظيما ! .

فاذا حصل فى الدار ، وأذن له فى الدخول الى مجلسه قبّل الأرض عند وقوع بصره على الصاحب ثلاث مرّات أو أربعا ، الى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى أن يقضى كلّ واحد منهم وطره من خدمته ، ثم ينصرف بعد أن يقبّل الأرض أيضا مرارا ..

ولم يكن الصاحب يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير الى القيام ، ولا يطمع منه أحد فى ذلك (١) .

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٤٦ .

وبلغت هيبة الصاحب فى الصدور ، ومخافته فى القلوب ، وحشمته عند الصغير والكبير ، والبعيد والقريب ، الى درجة أن كان صاحبه فخـر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه ، ويمسك عمّا تشره اليه نفسه لمكانه . وقد ظهر ذلك للناس بعد موت الصاحب ، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته ، فعُلم أنه كان يزمّ نفسه [1] لحشمته .. ثم كان يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطب بالصاحب شفاها وكتابا ..

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم اذا رأى أحد حجّابه ، بل أحد الأصاغر من حاشيته فان فرائصه [2] كانت ترتعد ، وجوانحه كانت تصطفق [3] ، الى أن يعلم ما يريده منه ، ويخاطبه به ...

وقد تظلمت الى الصاحب امرأة من أحد أصحاب فولاذ بن مانادر ، وذكرت أنه ينازعها فى حق لها ، فما زاد الصاحب على أن التفت الى فولاذ ، وكان فى موكبه يسير خلفه ، فبهت وتحيّر ، وارتعد ووقف ، ولم يبرح الى أن سار كافى الكفاة ، ثم أرسل الى المرأة من أرضاها ، وأزال ظلامتها ، ومثل هذا كثير يطول الكتاب ببعضه ، فكيف يتسع لكله [4] ؟

وروى ياقوت عن أبى نصر بن خواشادة أنه قال : ما غبطت

---

(١) أى يمنع نفسه من الانبساط ، يقال زم البعير أى خطمه .

(٢) الفرائص جمع فريصة ، وهى لحمة بين الجنب والكتف ، أو عصب الرقبة وعروقها ، لأنها هى التى تثور فى الغضب .

(٣) اصطفقت جوانحه اهتزت واضطربت .

(٤) معجم الأدباء ٦/٢٤٨ .

أحدا على منزلة كما غبطت الصاحب أبا القاسم بن عباد ، فانا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية ، فدخل الصاحب الى داره فى البلد آخر نهار يوم لحضور المجلس الذى يعقده لأهل العلم ، وتحته دابة رهواء [1] ، وقد أرسل عنانه ، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمراء يعدون بين يديه ، كما تعدو الركابية[2] . وكان عضد الدولة اذا خاطب الصاحب فى مجلس يحضره غيره لا يشرك مع الصاحب فيه أحدا[3] .

وكان الصاحب لا يستأذن على فخر الدولة وهو فى مجلس الأنس والانبساط الا انتقل الى مجلس الحشمة ، فيأذن له فيه . قال الصاحب : ما أذكر أنه — فخر الدولة — تبذل بين يدىّ ومازحنى قط الا مرة واحدة ، فانه قال لى فى شجون الحديث : بلغنى أنك تقول : « المذهب الاعتزال ، و .... الرجال » [4] ! فأظهرت الكراهة لانبساطه ، وقلت : بنا من الجد ما لا نفرغ معه للهزل ، ونهضت كالمغاضب ، فما زال يعتذر الىّ مراسله ، حتى عاودت مجلسه ، ولم يعد بعدها لما يجرى مجرى الهزل [5] ..

مع العلماء والزهاد

تلك هى شخصية الصاحب المتماسكة ، وخلقه المحكم أمام الأقوياء الذين قد يتطاولون بمناصبهم ، أو يشمخون بأنوفهم ،

(١) دابة رهواء : تسير سيرا على مهل .
(٢) أى السائرون فى الركب . (٣) معجم الأدباء ٦/ ٢٨٠
(٤) موضع النقط كلمتان نابيتان .
(٥) يتيمة الدهر ٣/ ١٩٩ .

أو يتيهون بآبائهم وأجدادهم أو أعراقهم الموروثة ، ولكن الصاحب كان غير ذلك ، أو بعبارة أخرى كان انسانا آخر مع غير هذه الطبقة من طبقات المجتمع ، انك تراه انسانا وديعا متواضعا مع أهل العلم والأدب ، يحوطهم بلطفه ، ويرعاهم ببرّه ، وكأن هذه الطبقة هى طبقته الأصلية ، ومعدنه الجيد الذى يعتز بالانتساب اليه ، ويرى أنه اذ يكرمهم انما يكرم نفسه ، لأنه يكرم علمه وثقافته وأصله الذى ينتمى اليه ، ويستمد منه القوة والحياة ..

أو لعل الصاحب كان حريصا على أن تكون صورته صورة الرجل المتجمل المتفضل ، لا صورة الطالب المتوسل ، فهو يتواضع مختارا ، ويتيه ويشمخ بأنفه اذا أراد . قال الثعالبى ان الصاحب لم يكن يقوم لأحد ، ولا يشير الى القيام ، ولم يكن يطمع منه أحد فى ذلك كائنا من كان !

ولكن الصاحب كان يعرف متى يقوم ولمن يقوم ، انه يقوم للفقراء والزهاد الذين يعرف صلتهم بالله ، كما روى أنه نزل بالصيمرة [1] عند عودة من الأهواز ، فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحاق ، فقام له ، فلما خرج التفت كافى الكفاة الى من حوله ، ثم قال : « ما قمت لأحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة » . وانما فعل ذلك به لزهده ، فانه كان

(١) الصيمرة ـ بفتح فسكون ـ بلدة بين ديار الجبل وديار خوزستان (الأهواز) .

أحد أبدال [1] دهره .. لمثل هذا الرجل من الفقراء الزهاد ، لا يستنكف الصاحب عن القيام ، اجلالا له واكبارا ..

ولكن قصة الصاحب مع أبى أحمد العسكرى تشرح لنا موقفه من العلماء ، واكباره اياهم ، فقد كان أبو أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى من رجال اللغة الأعلام ، ومن الأئمة المذكورين بالتصرف فى أنواع الفنون ، ومن المشهورين بجودة التأليف وحسن التصنيف ، ومن جملة تآليفه : كتاب صناعة الشعر ، وكتاب الحكم والأمثال ، وكتاب راحة الأرواح ، وكتاب الزواجر والمواعظ ، وكتاب تصحيح الوجوه والنظائر . وكان قد سمع ببغداد والبصرة وأصبهان وغيرها من شيوخه الكبار ، وعاش حتى علا به السن ، واشتهر فى الآفاق بالدراية والاتقان ، وانتهت اليه رياسة التحديث والاملاء للآداب بقطر خوزستان ، ورحل اليه الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه ..

وكان الصاحب بن عباد يتمنى لقاء أبى أحمد العسكرى ، ويكاتبه على ممر الأوقات ، ويستميل قلبه ، فيعتل عليه بالشيخوخة والكبر ، اذ عرف أنه يعرّض بالقصد اليه ، والوفود عليه .

فلما يئس الصاحب من شخوص أبى أحمد اليه احتال فى جذب السلطان الى ذلك الصوب بأن قال له ان «عسكر مكرم» [2]

---

(١) الأبدال : الصالحون والأولياء ، سموا بذلك كما يقال لأنه كلما مات منهم واحد أبدل به آخر ، يعتقد هذا طائفة من المتصوفة .

(٢) بلد باقليم خوزستان الذى يسميه العرب الأهواز ، واليه ينسب أبو أحمد هذا ، وكذلك الأديب الكبير أبو هلال العسكرى صاحب كتاب « الصناعتين » وكانت بينهما قرابة .

قد اختلت أحوالها وأحتاج الى كشفها بنفسى ، فلما قرب الصاحب من عسكر مكرم كتب الى أبى أحمد كتابا يتضمن نظما ونثرا . وكان مما ضمنه من المنظوم قوله :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم
ضعفنا فما نقوى على الوخدان [1]
أتيناكم من بعد أرض نزوركم
وكم منزل بكر لنا وعوان [2]
نسائلكم : هل من قرى لنزيلكم ؟
بملء جفون لا بملء جفان

فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أقعد تلميذا له فأملى عليه الجواب عن النثر نثرا ، وعن النظم نظما ، وبعث به اليه فى الحال . وكان فى آخر جواب أبياته :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتى
تَعوّذ أعضائى من الرجفان
فضمنت بيت ابن الشريد [3] كأنما
تعمد تشبيهى به وعنانى

---

(١) الوخذان السرعة فى السير ، أو سعة الخطو .

(٢) يريد الصاحب أنه على كثرة ماله من المنازل التى يجلها قديمها وجديدها أينما سار آثر زيارة العسكرى من أرض بعيدة .

(٣) هو صخر بن عمرو من بنى الشريد بطن من سليم ، وهو أخو الخنساء ، والبيت الثالث من أبيات قالها صخر فى زوجه وقد ملت منه لطول مرضه .

أهم بأمـــر الحــــزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العــير والنزوان [١]

وقد استحسنه الصاحب ووقع منــه موقعا عظيما ، وقال : لو عرفت أن هذا المصراع يقع فى هذه القافية لم أتعرض لها ، وكنت قد ذهلت عنه ، وذهب علىّ ! .

ثم ان أبا أحمد قصده وقت حلوله بعسكر مكرم بلده ، ومعه أعيان أصحابه وتلامذته فى ساعة لا يمكن الوصـــول اليه فيها الا لمثله . وأقبل عليه الصاحب بعد أن أقعده فى أرفع موضع من مجلسه ، وتفاوضا فى مسائل من العلم ، فزادت منزلته عنده ، وأخذ أبو أحمد من الصاحب بالحظ الأوفر ، وأدرّ الصاحب على المتصلين بأبى أحمد ادرارا كانوا يأخذونه الى أن توفى ، وبعــد وفاته أيضا ..

ولما مات أبو أحمد ، ونعى الى الصاحب أنشد فيه :

قالوا : مضى الشيخ أبو أحمــــد
وقد رثوه بضروب النُّــــــدَب

فقلت : ما من فقد شـــيخ مضى
لكنه فقـــد فنـــون الأدب [٢]

وقد روى هذه القصة شــاهد عيان هو أبو الحسن عــلى

---

(١) العير : الحمار الوحشى والأهلى أيضا ، والنزوان : مصدر نزاينزو ، أى وثب ..

(٢) يريد أنهم ما ندبوه لأنه مات ، ولكن لأن فنون الأدب ماتت بموته . وانظر معجم الأدباء ٢٥١/٨ .

ابن المظفر البندينجى (١) قال : كنت أقرأ بالبصرة على الشيوخ ، فلما دخلت سنة تسع وسبعين وثلثمائة الى الأهواز ، بلغنى حال أبى أحمد العسكرى ، فقصدته وقرأت عليه ، فوصل فخر الدولة والصاحب بن عباد ، فبينا نحن جلوس نقرأ عليه وصل اليه ركابىّ ومعه رقعة ففضها وقرأها وكتب على ظهرها جوابها ، فقلت : أيها الشيخ ، ما هذه الرقعة ؟ فقال : رقعة الصاحب ، كتب الىّ :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ضعفنا فما نقوى على الوخدان

الأبيات الثلاثة المتقدمة .. قلت : فما كتبت اليه فى الجواب ؟ قال : قلت : « أروم نهوضا .. » الأبيات الثلاثة المتقدمة ..

قال : ثم نهض أبو أحمد وقال : لابد من الحمل على النفس (٢)، فان الصاحب لا يقنعه هذا ، وركب بغلة وقصده ، فلم يتمكن من الوصول الى الصاحب لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة (٣) ، ورفع صوته بقول أبى تمام :

مالى أرى القبة الفيحاء (٤) مقفلة
دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة
وليس لى عمل زاك فأدخلها

قال : فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السّابقة

(١) نسبة الى «البدنيجين» وهى بلدة فى أطراف النهروان من ناحية الجبل كانت من أعمال بغداد .

(٢) يريد تكليف نفسه مشقة السعى اليه مع ضعفه فكانه حمل نفسه مالا طاقة لها به .

(٣) التلعة : القطعة المرتفعة من الأرض .

(٤) الفيحاء : الواسعة .

الأولى . فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه . فسأله عن مسألة فقال أبو أحمد : « الخبير صادفت » فقال الصاحب : يا أبا أحمد ، تغرب فى كل شىء حتى فى المثل السائر ؟ فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا ، وانما كلام العرب « سقطت »[1] ..

وتلك احدى صور اكبار العلم وتقدير رجاله ، وهى صورة رفيعة بعيدة المنال ، لا ينهض بها الا العارفون الذين يقدرون أصحاب الشرف الحقيقى ، شرف الانتساب الى المعرفة . وكأن الصاحب أراد أن يضرب المثل فيما ينبغى أن يعامل به أهل العلم ، أو ما يحب أهل العلم أن يكون لهم من التقدير بما يبذلون فى سبيل الوصول الى أقصى غايات الانسان الفاضل ، وهى المعرفة ، أو لعلّه قرأ أبيات صديقه القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تلك الأبيات الخالدة التى تنكر على بعض من ينتسبون الى العلم اذلال أنفسهم ، وامتهان عقولهم فى سبيل الزلفى الى الحكام لينالوا بها غرضا من أغراض الدنيا وأعراضها الزائلة ، وفى هذه الأبيات يقول القاضى الجرجانى[2] :

يقولون لى فيك انقباض وانما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

وما زلت منحازا بعرضى جانبا
من الذم أعتدّ الصيانة مغنما

(١) معجم الأدباء ٨/٢٥٥ .
(٢) يتيمة الدهر ٤/٢٣ وياقوت ١٤/ ١٨ .

اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظمـــا
وما كل بـــرق لاح لى يستفزنى
ولا كل أهل الأرض أرضـــاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلمـــا
بدا طمع صـــيّرته لى ســـلما
ولم أبتذل فى خـــدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت لكن لأخـــدما
أأشقى به غرســـا وأجنيه ذلة ؟
اذن فاتباع الجهـــل قد كان أحزما

فأراد الصاحب أن يكرم فى العلماء علمهم ، وأن يقضى هو عنهم حق العلم ، ولم يدعهم يهينون أنفسهم بالسعى اليه ، ولكنه كلف السّعى اليهم ، مع كثرة أعماله ووفرة شواغله ، وأراهم أن شقاءهم فى تحصيل العلم ليست نتيجته الذلة ، وأن « اتباع الجهل » أو « ابتياع الجهل » ليس هو الأحزم !

* * *

ومن الدلائل على ذلك أن الصاحب كانَ يغضى بسبب العلم واكرام العلماء عن كثير مما لا يرضى ، أن قاضى القضاة « عبد الجبار ابن أحمد الأسد أباذى » وكان الصاحب قد فوض اليه قضاء همذان والجبال ، ذلك القاضى عبد الجبار استقبل الصـــاحب يوما ، وكان راكبا دابته فلم ينزل عنها ، ولم يترجل للصاحب ،

واعتذر عن ذلك بقوله « أيها الصاحب ، أريد أن أترجل للخدمة ، ولكن العلم يأبى ذلك » ! ولم يغضب الصاحب من قاضيه ، وغفر له ، بل غفر للعلم مالم يكن يرضاه من أحد ، وهو الذى كان أبناء الأمراء يسعون بين يديه ، ويفسحون لدابته الطريق ..

ومما يتصل بالقاضى عبد الجبار أنه كان يكتب فى عنوان كتبه التى يرسلها الى الصاحب : « الى الصاحب : داعيه ، عبد الجبار بن أحمد » ثم كان يكتب بعد ذلك « وليّه عبد الجبار ابن أحمد » ثم كتب بعد ذلك « عبد الجبار بن أحمد » ..

ولكن الصاحب بدقة فهمه وقوة ملاحظته لتدرج القاضى فى الاستعلاء يرسلها طرفة ممتعة فى تهكم رائع ، وفى ايجاز بليغ فى التعليق على هذا التدرج فى الاستعلاء ، وذلك فى قوله : أظنه يئول أمره الى أن يكتب « الجبار » !!

وأبو حيان التوحيدى مع كراهته للصاحب وحقده عليه يقول ان ابن عباد كان يقول للانسان من أهل العلم اذا قدم عليه : « يا أخى ، تكلم واستأنس ، واقترح وانبسط .. ولا يرعك ما ترى من الحشم والخدم .. فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف ، والاتحاف والاطراف » .. وان كان هدف أبى حيان هو النيل من الصاحب ووصفه بأنه كان يتكلف السجع ، فكان هذا الثناء الذى لم يكن يقصده « والفضل ما شهدت به الأعداء » !

ومن أخلاق الصاحب الممتازة وفضائله المذكورة خلق الوفاء لكل من منحه ثقته واطمأن اليه ، وقد رأينا فيما مضى صورا رفيعة لهذا الوفاء النادر الذى كان احدى الفضائل النادرة فى عصر كثر فيه الغدر بالأولياء ، والخيانة لأرباب الثقة ..

ومن هذه الصور وفاؤه لأستاذه أبى الفضل بن العميد من لزوم طاعته وامتثال أمره ، حتى فيما كان يأباه ، فكان الصاحب يصرّ عـلى الاعتذار من عدم قيامه بخدمة مؤيد الدولة أمام الأمير ركن الدولة ، ولكنه لم يستطع وفاء لأستاذه أبى الفضل وقياما بحق أساتذيته أن يصر على اعتذاره واستعفائه ..

ومن هذه الصور وفاؤه لمؤيد الدولة الذى كان عهده بفضل الصاحب عهد الأمن واستقرار الملك وتوطيد أركان الدولة ، ثم وفاؤه لأخيه فخر الدولة حتى آخر أنفاسه ، وكان وفاؤه لآل بويه بالعمل الدائب ، والخدمة المتصلة ، وكأنه المنــوط برفع رايتهم ، وتثبيت أمجادهم ..

ويتخذ هذا الوفاء مظهرا آخر ، هو النصح الخالص لهم الذى لا يسديه الانسان الا الى أخص خاصته الذين ينشد لهم مجد الدنيا وفوز الآخرة ، فقد رأينا نصحه لمؤيد الدولة قبيل وفاته بأن يرد المظالم ، ويعيد الأموال التى يشك فى حلّها الى أصحابها ، ان كان يعرفهم أو يوزعها فى الفقراء ، ثم نصحه لفخر الدولة فى وقعة الأهواز الذى لم يأخذ به ، فخسر المعركة وتبدّد أمله فى الوصول الى بغداد .

ثم يبدو هذا الوفاء لآل بويه ، ويبلغ ذروته حينما أنفذ اليه أبو العباس تاش الحاجب رقعة فى السرّ بخط صاحبه نوح بن منصور السامانى ملك خراسان ، يريده فيها الى الانحياز الى حضرته ، ليلقى اليه مقاليد مملكته ، ويعتمده فى وزارته ، ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به من تركه امتثال أمره والصد عن رأيه « كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى .. » ! ؟

أرأيت مثل هذا حفاظا على العهد ، واعترافا بالجميل ؟

ولا يقتصر وفاء الصاحب على أولياء نعمته من آل بويه ، بل انه ليتجاوزه الى كل من أخلص له الودّ وأصفى له الوفاء كالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الذى تعهده الصاحب بعد أن عرف ما عنده من العلم والأدب ومكارم الأخلاق ، فان الصاحب كان يوفر له من أسباب الأمن والراحة ما يستطيع ، ومن أمثلة ذلك أن يكتب الصاحب الى حسام الدولة أبى العباس تاش الحاجب ليوفر أسباب الأمن والرعاية الكريمة للقاضى حينما حنّ الى زيارة بلده جرجان ، وفى رسالته يقول « قد تقدم وصفى للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز — أدام الله تعالى عزّه — فيما سبق الى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش — أدام الله تعالى علوّه — من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحق ، وان كنت دللته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم . فأما موقعه منى فالموقع الذى تخطبه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ،

وعادته معى ألا يفارقنى مقيما وظاعنا ، ومسافرا وقاطنا . واحتاج الآن الى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصبير المقام كالالمام، فطالبنى مكاتبتى بتعريف الأمير مصدره ومورده ، فان عنّ لى ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف اسعافه ما هو المعتاد ليستعجل انكفاءه الىّ بما يرسم — أدام الله أيامه — من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ويفسح السبيل من بدرقة[1] ان احتاج اليها والى الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف النجح فيها . فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجّل ردّه ، فانى ما غاب كالمضل الناشد ، واذا عاد كالغانم الواجد ، فعل ان شاء الله تعالى » .

تلك بعض الصور التى تنم عما طبع عليه الصاحب من فضيلة الوفاء لمن هم فوقه ولمن هم دونه ، من الذين وثق بكفايتهم ومودّتهم .. وهى صور قليلة أوردناها على سبيل التمثيل والاستشهاد ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ..

ولم يكن الصاحب وفيّا للرجال الذين توجب عليه أفضالهم الوفاء لهم فحسب ، ولكنه كان وفيّا أكثر من ذلك لعمله وواجبه ، وهو فى هذا المقام الخطير يدبر سياسة دولة ، فقد كان يتخلى عنه أحيانا ما طبع عليه من الرفق والمسامحة فى سبيل دعم سلطان الدولة وتثبيت دعائمها ، فكان لا يلين للخارجين عليها ، ولا يرقّ قلبه لهم مهما تضرّعوا له ، وكأنه كان يرى فى نصرتهم فى أحوال

---

(١) البدرقة : الخفارة أو الجماعة تتقدم القافلة لحراستها . والمبذرق : الخفير .

ضعفهم تشجيعا للثائرين اذا أمكنتهم الفرصة .. فقد كان نصر بن الحسن بن الفيروزان ، وهو خال فخر الدولة ، قليل المبالاة ، قد استعصى على فخر الدولة ، واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها ، واحتال على جماعة من عساكره ، فقتلهم بأنواع القتل ، الى أن تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرته ، وشتتت جموعه ، وهرب نحو خراسان ، حتى صار الى أسفرايين ، ثم بدا له أن سلك طريق المفازة فيها ، حتى ورد الرىّ ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنة ٣٨٤ هـ ، وقصد فى الليل باب كافى الكفاة مستجيرا به ، ومستعطفا له ، فلم يرقّ له ، ورد الى دار بعض حجاب فخر الدولة ، فحبس فيها .

ونقل ياقوت عن الوزير أبى سعد قوله : وكنت فى هذه الليلة بحضرة كافى الكفاة ، فأتاه الحاجب ، وقد مضى هزيع من الليل ، فأخبره بوقوف نصر بن الحسن بن الفيروزان على الباب خاشعا متضرعا . فرأيته قد تحير فى الأمر ساعة ، ثم راسله بأن السلطان الأعظم « يعنى فخر الدولة » ساخط عليك ، ولا يجوز لى أن آذن لك فى دخول دارى الا بعد أن تترضاه ، وتستعطف قلبه ، فان عفا عنك ورجع لك فالدار بين يديك وأنا معين لك .

فعاد الحاجب اليه بذلك ، ورجع فقال : انه امتنع من العود ، وقال « انما جئت الى الصاحب لأئذا به ، ومنقطعا اليه ، ولا أعرف غيره ، وأنا أحتاج أن يدبر أمرى ، ويجيرنى ويحامى علىّ ، ويذب عنى » .

قال الوزير أبو سعد : فرأيت الصاحب وقد مال رأيه بين

احدى خصلتين : اما أن يستمر على المنع ولا يأذن له ، واما أن يأذن له ويجعل داره بما فيها من الخزائن له ، وينتقل هو الى دار كانت لحاجبه الراوندى وكان قد أضافها بعد موت هـذا الحاجب الى داره .

ثم قر رأيه على صرفه . واستمر نصر على الالحاح فى الخضوع والاجتهاد أن يأذن له فى الدخول ، وانتقل من الباب الكبير الى باب الخاصة ، وسأل واجتهد الى أن جاءه من قبل فخر الدولة « علوسة الحاجب » وحبسه .

وكان هذا الفعل من الصاحب مستهجنا ، يعجب الناس منه ، وتحدثوا به واستقبحوه ، مع ما أظهره نصر من الاستكانة والاستجارة به [1] !

ولست أرى فى موقف الصاحب ما يدعو الى التعجب أو الاستهجان ، فالأمر هنا أكبر من أن يكون أمر استجارة أو استكانة تقبل أو ترفض ، ولكنها سياسة دولة مع الذين تحدثهم أنفسهم بالخروج عليها اذا وجدوا فرصة متاحة ، وهذا رجل لم يخرج فقط ، ولكنه حارب بالسلاح والجند ، وقتل الناس تقتيلا ، فكيف يجيره الصاحب ضد مولاه فخر الدولة ، لا بل ضد الدولة وهيبتها أمام قوم كلهم أهل ثورة وخروج وقتال . فكيف يؤوى الصاحب ، وهو حارس الدولة ، خارجا على هذه الدولة يقتطع أرضها ، ويسفك دماء جنودها ؟

ولو كان الأمر أمر استعاذة أو استجارة لكان هناك صاحب

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٤٤ .

الحق الأول ، وهو فخر الدولة ، وهو ابن أخت هـذا الثائر العائذ ، وأمام نصر من أهل الشفاعة والاجارة من هم أحق من الصاحب بالاعاذة والاجارة .

بل ان المسـألة فى نظرى لا تدعـو الى التعجب ولا الى الاستهجان ، بل هى تدعو الى الاعجاب والاكبار بالصاحب ، وحسب الصاحب أنه لم يقتله أو يحبسه ، وهو المسئول الأول عن تأمين الدولة ، وأنه رسم لنصر سبيل الأمن ، وهو اللجوء الى ابن أخته فخر الدولة الذى سماه الصاحب « السلطان الأعظم » .

فهذا كما رأيت كان وفاء للدولة التى ألقت اليه مقادها ، وللرجال الذين منحوه ثقتهم ، وكان الصاحب يستطيع أن يكتسب مجدا رخيصا سريعا ، يعقبه فساد الحكم ، وانتقاض حبل الأمن ؛ فكان هذا من الصّاحب وفاء ، وان بدا فى نظر بعض النـاس خيانة وغدرا ..

وهكذا تمكن خلق الوفاء من قلب الصاحب لكل ما عرف وألف ، حتى المواطن التى انتجعها ، وتركت فى نفسه أثرا لا ينساه ، كما روى أنه لما افتتح جرجان وشاهد طبرستان تذكر أصفهان فأنشد هذه الأبيات :

يا أصـفهان سقيت الغيث من كثب
فأنت مجمـع أوطارى وأوطـانى
والله والله لا أنسـيت برك بى
ولو تمكنت من أقصى خراسـان

سقيا لأيامنا والشمل مجتمع
والدهر ما خاننى فى قرب اخوانى
ذكرت ديمرت اذ طال الثواء بها
يا بعد ديمرت من أبواب جرجان [1]

* * *

ولقد نعت الصاحب أبو حيان التوحيدى بنعوت كثيرة تدل على مبلغ حقده على الصاحب ، وعوامل هذا الحقد كثيرة سنعرض لها ، وقد حاول فيها أن ينال من عظمة الصاحب ، فقال فيه كلاما كثيرا لم يقله واحد غيره من الذين عرفوا الصاحب واتصلوا به وعاشروه ؛ وكان مما قال عن الصاحب فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » : انه « لا يرجع الى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى كثيرا قليلا — أعنى يعطى الكثير القليل ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة [2] ، قريب الطيرة ، حسود حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار الى أهل الكفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته . وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة ، نخوة وتعنتا وتجبرا وزهوا » ..

---

(١) ديمرت ـ بكسر الدال وفتحها وفتح الميم ـ من نواحى أصبهان .
(٢) أى بعيد الرجوع الى الرضا .

وهذا كلام حاقد حاسد جرّد فيه أبو حيان الصاحب من كل فضيلة ، وانتزع منه كل مكرمة . ولو كان الصاحب فيه ما قال أبو حيان أو بعض ما قال أبو حيان ، لكان جديرا أن تسودّ صفحة تاريخه ، وأن يذكره المؤرخون بالغضب واللعنة الى أبد الآبدين ، وأن يتجافاه الناس لحسده وحقده وسطوته التى يؤثر بها ذوى الكفاية ، ويخص بها أهل الفضل ، ولما كان له أتباع وكتاب وعمال ، ولفسدت الأرض ، واختل صفو الحياة .. كيف وقد ذكره الثقات الذين يعتد بأخبارهم ، ويؤخذ بأقوالهم شاهدين له بالفضل يستبق الناس الى بابه ، ويرجون المقام فى رحابه التى لم تضق يوما بأهل الفضل والكفاية .

كيف نصدق أبا حيان الحاقد الحاسد الكاذب فيما أكده الأمناء العارفون الذين يقولون ان الصاحب « قد احتفل به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى » .. ويقولون « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان.. ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق .. الخ [1] ..

لقد صور أبو حيان الصاحب فيما صوّر جبارا عنيدا ، بل وحشا ضاريا ، ولو صدّقناه فى هذه الصورة فكيف نوفق بين هذه الصورة والصورة الأخرى التى رسمها للصاحب بعدها مباشرة فى قوله « وهو مع هذا يخدعه الصبىّ ، ويخلبه الغبىّ ،

---

(١) يتيمة الدهر ١٨٨/٣ و ١٨٩ .

لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى اليه سهل ، وذلك بأن يقال : « مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرض اليه من فرغانة الى غانة ومصر وتفليس الا لأستفيد كلامه وأفصح به وأتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ، واحتجاجه من ابتدائها الى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد ، وأبرز جميع قدرته فى شخص » .. فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهمّ له ، وينسى كلّ فريضة عليه ، ويتقدم الى الخازن بأن يخرج اليه رسائله مع الورَق والورِق[1]، ويسهّل له الاذن عليه والوصول اليه ، والتمكن من مجلسه[2] ..

فنحن فى الصورة الأولى أمام صاحب بطش وجبروت وقسوة وصرامة مباعدة منفّرة ، وفى الصورة الأخرى أمام طفل وديع ، أو أمام رجل ساذج يخدعه الصبيان ، ويغرّه الأغبياء بمعسول القول بكلمات ثناء مفتعلة ، يصلون بها الى ما يشتهون ؛ من الأموال والأرزاق ، والرضا والتقريب ..

فكيف يمكن التوفيق بين الصورتين المتناقضتين اللتين رسمهما أبو حيان بخياله السقيم ، وأوحى بهما قلبه المريض ؟

لقد اضطرنا أبو حيان بأكاذيبه وتلفيقاته أن نخصه فى هذا

---

(١) يريد بأحد الورقين الدراهم المضروبة وهو بفتح الراء وكسرها .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/٥٦ .

البحث ببيان ، يعرف به القارىء حقيقته والعوامل التى كانت تبعثه على ما افتراه فى حقّ الصاحب بن عبّاد .

* * *

ولقد كان الصاحب — على خلاف ما ذكر أبو حيان — انسانا دمث الخلق ، رقيق القلب ، لا يستحل قتل النفس التى حرّم الله الا بالحق ، ولا يستحل العقوبة بقطع الأرزاق قائلا « انها نذالة » وتجاوز الرفق والرحمة التى تمكنت من قلبه الناس الى الحيوان ، فلا يستبيح تعذيبه والتمثيل به .

* * *

رحمة الصاحب

وقد نقل ياقوت ما يؤكد الرحمة التى طبع عليها قلب الصاحب فى قوله : ومما وجدت فى بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب : أن الصاحب استدعى يوما شرابا من شراب السكّر ، فجىء بقدح منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : « لا تشربه فانه مسموم » فقال له : « وما الشاهد على صحة ذلك » ؟ قال : « بأن تجربه على من أعطاكه » ! قال : « لا أستجيز ذلك ولا أستحله » . قال : « فجرّبه على دجاجة » ! قال الصاحب : « ان التمثيل بالحيوان لا يجوز » .

ثم أمر الصاحب بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولا تدخل دارى بعدها . وأقرّ رزقه عليه ، وقال : « لا تدفع اليقين بالشك ، والعقوبة بقطع الرزق نذالة » [1] !

(1) معجم الأدباء ١٨٥/٦ .

ودخل على الصاحب رجل لا يعرفه ، فقال له الصاحب : أبو من ؟ فأنشد الرجل :

وتتفق الأسماء فى اللفـظ والكنى

كثيرا ولكن لا تلاقى الخـلائق

فابتسم الصاحب ، وقال له : اجلس يا أبا القاسم ! فقد فطن الى كنيته من بيته ، وكان الصاحب يقول لجلسائه اذا أراد أن يبسطهم ويؤنسهم : نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان [١] !

ومن أخباره أنه مرض مرة بالاسهال ، فكان كلما قام عن المطهرة وضع عندها عشرة دنانير لئلا يتبرم به الفراشـون ، فكانوا يتمنون لو طالت علته . ولما عوفى أباح للفقراء نهب داره ، وكان فيها ما يساوى نحوا من خمسين ألف دينار من الذهب [٢] .

فأية رقة وراء هذه الرقة فى معاملة الناس ، والرفق بهم ، والتلطف معهم ؟ !

ثم اقرأ قول أبى حيان الذى يبرز الصاحب فيه رجلا مغرورا معجبا بنفسه مستبدا برأيه ، واعجب لهذه الصورة البيانية الرائعة التى رسمتها ريشة أبى حيان بأسلوبه التهكمى اللاذع فى قوله : « والذى غلطه فى نفسه وحمله على الاعجاب بفضله ، والاستبداد برأيه ، أنه لم يجبه قط بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ، ولا قيل له أخطأت أو قصرت أو لحنت أو أخللت ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا ، وصـدق مولانا ، ولله دره ، ولله بلاؤه ، ما رأينا

(١) يتيمة الدهر ٣/١٩٦ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١١/٣١٥ .

مثله ، ولا سمعنا من يقاربه ، من ابن عبد كان مضافا اليه ؟ ومن ابن ثوابة مقيسا عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى اذا جمع بينهما ؟ من صريع الغوانى ؟ من أشجع السلمى اذا سلك طريقهما ومتح برشائهما وقدح بزندهما ؟ قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطوطاليس فى المنطق ، وعلى الكندىّ فى الجزء [1] ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هارون فى الفِقَر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن ربن [2] فى الفردوس ، وعلى عيسى بن دأب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل [3] ، وعلى ابن ثوابة فى التفقه ، وعلى السّرىّ السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزبّد [4] فى النوادر ، وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعمّى ، وعلى

---

(1) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجوهر الفرد .

(2) هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه « فردوس الحكمة » .

(3) البدل اسم كتاب فى علم الكلام لأبى عبد الله الحسين ابن محمد النجار .

(4) هو أبو اسحاق مزبد المدنى ، اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى ابن المحيّا خالد بن سنان العبسى فى دعواه [1] ، وهو والله أولى بقول أبى شريح أوس بن حجر التميمى فى فضالة بن كلدة :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

هذا هو الكلام الذى يصل الى قلب الصاحب ، كما تخيله أبو حيان ، وهذا الثناء والتفضيل اللذان كان يسمعهما من جلاسه ومخالطيه هما سرّ غرور الصاحب وكبريائه كما زعم أبو حيان ، ان الظن ليسبق الى أن أبا حيان هو الذى كان يحاول أن يخدع الصاحب بأمثال هذا الكلام ، لأنه أعرف الناس ، وهو أحذقهم فى معرفة فحول الفكر والفن والسياسة والعلم !

ثم اقرأ كيف تصور أبو حيان موقع أمثال هذا الثناء من نفس الصاحب ، وكيف صوّره فى قوله : « فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا وينقسم ويقول : « ولاكذا [2] ، ثمرة السبق لهم ، وقصّرنا أن نلحقهم ، أو نقفو أثرهم ، ونشقّ غبارهم ، أو نرد غمارهم » ، وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ،

---

(١) خالد بن سنان زعموا أنه كان نبيا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان بأرض عبس . وأصحاب هذه الأسماء التى ذكرها أبو حيان كان كل واحد منهم علما لكل علم وفن من العلوم والفنون التى أوردها الى جانب أسمائهم .

(٢) ولا كذا كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاد فى المدح ، وباطنها كما يرى أبو حيان الحث على الاكثار منه .

ويأخذ كالمتمنّع ، ويغضب فى عرض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهــالك ويتمالك ، ويتقــابل ويتمــايل ، ويحاكى المومسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات . ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، والذين فرّغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج ما فى الصدور ، واعتبــار الأسباب ، وذلك أنه ليس بجيد العقل ، ولا خالص الحمق ..

قال : وقد أفسده أيضا ثقة صاحبه [1] به وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، فعذر بازدهاء المال والعلم والاقتدار والأمر والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلساء والعادة الغالبة ، وهو فى الأصل مجدود [2] لا جرم ، ليس يقله مكان دلالا وترفا ، وعجبا وتيها وصلفا ، واندراء [3] على الناس ، وازدراء للصغار والكبار ، وجبها [4] للصادر والوارد ، وفى الجملة آفاته كبيرة ، وذنوبه جمة « ولكن الغنى رب غفور » .

وسئل أبو حيان : وكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التى تذكرها ؟ فقال : والله لو أن عجوزا بلهاء ، أو أمة ورهاء [5] أقيمت مقامه ، لكانت الأمور على هذا السياق ! فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : قد أمن أن يقال له : لمَ فعلت ؟ ولمْ لمْ تفعل ؟ .

---

(١) يريد بصاحبه الملك الذى استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه ، فكلاهما استوزره .

(٢) المجدود : المحظوظ .

(٣) الاندراء : الاندفاع والتهجم .

(٤) أى جبههم عند ملاقاتهم بما يكرهون .

(٥) الورهاء : الحمقاء .

وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك الا بجد سعيد [1] ..

ألست تجد فى هذا حديثا لذيذا للسمر ، وتأليفا طريفا للمتعة ، أمتع به أبو حيان جليسه الوزير ، وشفى به ما فى نفسه وما فى نفس وزيره ، ولكن على حساب الصاحب ، وعلى حساب النيل من عرضه ومروءته ، بل على حساب أعراض الناس ومروءاتهم ؟ !

* * *

بديهته وحضور جوابه

وعرف عن الصاحب أنه سريع النكتة ، حاضر الجواب ، كثير الفكاهة والدعابة وكان ذلك آثرا من آثار ثقافته الواسعة ، وعلمه المتبحّر ، وتجاربه الكثيرة ، وتوقد ذهنه ، وحضور بديهته . وقد رويت له فى هذا السياق طرائف ممتعة ، منها عدا ما سنذكره فى أدبه :

* ورد الى الصاحب رجل من أهل الشام ، فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان [2] . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى .. ثم غمزه أحد جلسائه ليقول « ورسائل الصاحب » .. ورآه الصاحب يغمزه ، فقال : تغمز حمارا لا يحسّ ؟ !

* وأطال شاب عنده المكث ، ولم يقتد بغيره فى المقام . فقال للفتى : من أين ؟ فقال : من قُم ، قال الصاحب : فاذاً قم !

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٦٠ ، ٦٩ .

(٢) « ابن عبد كان » هو محمد بن عبد كان ، كان كاتبا للدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحا ، وله ديوان رسائل .

* كان المأمونى الأبهرىّ الشاعر قال فى شاعر أبهرى آخر يهجوه :

كلانا الى آدم يعتــــزى وتجمعنا آصرات الرحــم [1]
ولكن له الفضـــل فى أنه يصــول بقرن وأنى أجم [2]

واتفق أن حضر مجلس الصاحب ، فقال الخادم : المأمونى الأبهرىّ الشاعر . فقال الصاحب : الأقرن[3] أم الأجمّ ؟ فاستحيا وخجل !

* وحدث بديع الزمان الهمذانى قال : لما أدخلنى والدى الى الصاحب ، ووصلت الى مجلســه واصــلت الخدمة بتقبيل الأرض ، فقال لى الصاحب : يا بنى اقعد ، كم تسجد ، كأنك هدهد !

* ممن كان بباب الصاحب قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الأسد أباذى ، وكان يكتب فى عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه: عبد الجبار بن أحمد » ثم صار يكتب « وليه : عبد الجبار بن أحمد » ثم صار يكتب « عبد الجبار بن أحمد » ! فقال الصاحب لندمائه : أظنه يئول أمره الى أن يكتب « الجبار » !

وكما كان الصــاحب متفردا بالقدرة على هــذه الدعابات الساخرة ، والفكاهات النادرة ، كان يعجبه أن يستمع الى الطرفة والدعابة والسخرية وان كانت السخرية من شخصــه ، وذكر

---

(١) الآصرة : الصلة والقرابة .
(٢) الأجم : الذى لا قرن له ، وفى البيت تعريض ظاهر .
(٣) الأقرن : ذو القرن .

الصاحب أن جماعة أخجلوه بدعاباتهم وحضور جوابهم ، قال : منهم أبو الحسن البديهى ، فانه كان فى نفر من جلسائى ، فقلت له — وقد أكثر من أكل المشمش — لا تأكله فانه يلطخ المعدة ! فقال : ما يعجبنى من يطبّ على مائدته !

قال : وأخجلنى آخر اذ قال لى — وقد خرجت من دار السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لى — : من أين أقبلت يا مولانا ؟ فقلت : من لعنة الله ، فقال : ردّ الله غربتك ! وأحسن على اساءته الأدب — فاستحسنت مداعبته فقلت : ليتك تحتى ! فقال : مع ثلاثة آخر — يعنى فى الجنازة — فأخجلنى !

وحدث الصاحب يوما فقال : ما أفظعنى [1] الا شاب ورد علينا أصبهان بغدادى ، فقصدنى ، فأذنت له ، وكان عليه مرقعة وفى رجليه نعل طاق [2] ، فنظرت الى حاجبى ، فقال له وهو يصعد الىّ : اخلع نعلك ! فقال : ولم ؟ ولعلى أحتاج اليها بعد ساعة ! قال الصاحب : فغلبنى الضحك ، وقلت : أتراه يريد أن يصفعنى ! ؟

ومثل هذه الأحاديث والطرائف لا تصدر عن جبار عنيد ، ولا عن مستبد طائش ، وانما تصدر عن رجل أليف مألوف ، يحب الناس ، ويحبه الناس ، كالصاحب الانسان الرقيق ، السمح المهذب الرفيق .

---

(١) أفظعه الأمر : اشتدت شناعته ، وجاوز قدره ، وأقطعه الأمر : وجده قطيعا .

(٢) يقال : نعل طاق ، عطف بعضه على بعض .

سماحة الصاحب

وسماحة الصاحب أشهر من أن يعرّف بها ، ولقد أصبحت تلك السماحة مضرب الأمثال ، وحسبنا أن نذكر فى هذا المجال قول أبى منصور الثعالبى فى نعته « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر .. وهو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط حالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وانعام يجدده ، وفاضل يصطنعه [1] ..

* * *

والحقيقة أن هذه السماحة التى زينت مكارم الصاحب ، وجعلته مثالا فذًا فيها لم تكن خلقاً مكسوباً ، بل كانت طبعا فيه وجبلة ورثها عن أبويه اللذين ربياه عليها ، وأخذاه بها ، وعلماه منذ حداثته أن يكون سمحاً معطاء ، فقد كان منذ الصغر اذا أراد

---

(١) يتيمة الدهر ١٨٨/٣ .

المضىّ الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً فى كل يوم ودرهما ، وتقول له : تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه ، فكان هذا دأبه فى شبابه الى أن كبر ، وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لئلاننساه . فبقى على هذا مدة ، ثم ان الفراش نسى ليلة من الليالى أن يطرح له الدرهم والدينار ، فانتبه وصلى ، وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدهما ، فتطير من ذلك ، وظن أنه لقرب أجله . فقال للفراشين خذوا كل ما هنا من الفراش ، وأعطوه لأول فقير تلقونه ، حتى يكون كفارة لتأخير هذا . فلقوا أعمى هاشميا على يد امرأة ، فقالوا له : تقبل هذا ! فقال: ما هو ؟ فقالوا : مطرح ديباج ومخاد ديباج ، فأغمى عليه ! فأعلموا الصاحب بأمره ، فأحضره ورش عليه ماء ، فلما أفاق سأله ، فقال : أسألوا هذه المرأة ان لم تصدقونى ، فقالوا له : اشرح ، فقال : « أنا رجل شريف لى ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ، ولى سنتان آخذ القدر الذى يفضل عن قوتنا أشترى لها به جهازاً . فلما كان البارحة قالت أمها : اشتهيت مطرح ديباج ومخادّ ديباج ، فقلت من أين لى ذلك ؟ وجرى بينى وبينها خصومة الى أن سألتها أن تأخذ بيدى وتخرجنى حتى أمضى على وجهى . فلما قال لى هؤلاء هذا الكلام حق لى أن يغشى علىّ » ! ..

فقال الصاحب : « لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ، ثم اشترى له جهازا يليق بذلك المطرح » وأحضر زوج الصبية ودفع اليه بضاعة سنية [1] ..

---

(١) بغية الوعاة ١٩٦ .

هكذا كان الصاحب فى سماحته ، وهكذا كان عطاؤه مع من لا يعرف من الناس ، انه ليعطى للعطاء ، ويهب للهبة ، ويجد فى الهبة والعطاء متعة وفألا ، ويجد فى المنع طيرة وشؤما . ومع ذلك تجد من أعدائه الذين لجوا فى خصومتهم محاولات لتشويه هذا الخلق المطبوع غيظا وحسدا حتى يقول بعضهم « عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة ، وما يبلغ الى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بديع ! .

وحين تدمغهم الحقائق التى لا يستطيعون انكارها يقولون « بلى ! قد نال به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جدا ، وذلك بابتذال النفس وهتك الستر[1] » .

وهذا كلام مضطرب متناقض ، تطل منه الحقيقة السافرة على الرغم من الحسد والعداوة الظاهرة .

قال الصاحب : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان ، وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا اذ ذاك فى ريعان شبابى ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم ، وقد حلّ الافطار نكرت ذلك فيما بينى وبين نفسى ، واستقبحت اغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت ألا أخلّ بما أخلّ به اذا قمت يوما مقامه ..

فكان الصاحب لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار عنده . وكانت

(١) معجم الأدباء ٦/٢٣٧ .

داره لا تخلو فى ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها .. وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة [1] وكان ما يخرج لكافى الكفاة فى السنة فى وجوه البرّ والصدقات والمبرات ، وصلات الأشراف وأهل العلم ، والغرباء الزوار ، ومن يجرى مجرى ذلك ، مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار .

ونقل الثعالبى فى اليتيمة ما رواه عون بن الحسين الهمدانى التميمى فى قوله : كنت يوما فى خزانة الخلع للصاحب ، فرأيت فى حسبانات كاتبها ، وكان صديقى ، مبلغ عمائم الخز التى صارت تلك الشتوة فى خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين .

* * *

وكان يعجبه الخز ، ويأمر بالاستكثار منه فى داره . فنظر أبو القاسم الزعفرانى يوما الى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز الفاخرة الملونة ، فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئا . فسأل الصاحب عنه ، فقيل انه فى مجلس كذا يكتب ، فقال علىّ به ، فاستمهل الزعفرانى ريثما يكمل مكتوبه ، فأعجله الصاحب ، وأمر بأن يؤخذ ما فى يده من الدرج ، فقام الزعفرانى اليه ، وقال : أيّد الله الصاحب :

اسمعه ممن قاله تزدد به
عجبا فحسن الورد فى أغصانه

(١) يتيمة الدهر ١٩٣/٣ .

فقال الصاحب : هات يا أبا القاسم ، فأنشده أبياتا منها :

سـواك يعد الغنى ما اقتنى ... ويأمره الحرص أن يخـزنا
وأنت ابن عبـاد المرتجى ... تعدّ نوالك نيـل المنى
وخيرك من باسـط كفـه ... وممن ثنـاها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى ... فأصـغر ما ملكوه الغنى
وغادرت أشـعرهم مفحما ... وأشكرهم عاجـزا ألكنا
أيا من عطاياه تهـدى الغنى ... الى راحتى من نأى أو دنـا
كسوت المقيمين والـزائرين ... كسآ لم يخل مثلها ممـكنا
وحاشـية الدار يمشون فى ... ضروب من الخـز الا أنـا
ولست أذكر لى جـاريا ... على العهد يحسن أن يحسـنا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معن بن زائدة أن رجلا قال له « احملنى أيها الأمير » ! فأمـر له بناقة وفرس وبغلة وحمـار وجارية ، ثم قال له : لو كنت أعلم أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه !.. وقد أمرنا لك من الخزّ بجبة وقميص ودراعة [1] وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف [2] ورداء وجورب ، ولو علمت لباسا آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه ، ثم أمر بادخاله الخزانة ، وصبّ تلك الخلع عليه ، وتسليم ما فضل عن لبسه فى الوقت الى غلامه [3] ..

---

(١) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم .

(٢) المطرف ـ بضم الميم وكسرها ـ واحد (المطارف) وهى اردية من خز مربعة ولها أعلام .

(٣) يتيمة الدهر ٣/١٩١ .

كيف ينسب رجل مثل هذا الى الشح والتقتير ؟ أم كيف يجرؤ كاتب على التشكيك فى سماحته ووفرة عطائه ؟ ولقد ذكر هلال بن المحسّن بن ابراهيم الصابىء — كما سبق — أن الصاحب كان يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ، وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء ، بما يحمله اليهم فى كل سنة مع الحاجّ على مقاديرهم ومنازلهم ، وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار والىّ ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب [1] ..

العدل فى الرضا والسخط

ومن أخلاق الصاحب البارزة وفضائله المميزة خلق الاعتدال ، وهو أساس الفضيلة وعنوان الكمال فى الانسان الفاضل .

ويبدو هذا الخلق واضحا فى نواح كثيرة من حياته العامة وحياته الخاصة على السواء ، كما تبدو فى مبدئه وفى عقيدته ، فقد علمه الحكم وتحمل المسئولية الترفع عن الخصام والتحلل من قيود العصبية ، ونسى نفسه وذاته وأهواءه وميوله ، حتى كان رجل الدولة أو رجل الجميع ، الذى يحمل قلبا واسعا يتسع لأنصاره ، ولا يضيق عن خصومه ، يغفر الزلة ويتغاضى عن الهفوة ، ويتماسك عند الأحداث التى تزلزل الرجال .

فلم نقرأ فى حياته العامة فى السياسة والحكم شيئا يدل على تهوّره أو اندفاعه مع كبير أو صغير ، ولم نقرأ كذلك شيئا يدل

(١) معجم الأدباء ٦/٣٠٠ .

على تهافته أو ضراعته واستصغار نفسه . وقد رأينا أنه حين أغار مع فخر الدولة على الأهواز ليصلا منها الى الأمل المرتقب فى دار السلام ، دب السّعاة بينهما ، وخوّفوا فخر الدولة من أن يكون الصّاحب يعمل لنفسه حتى يتصل بحكام بغداد ، فلما استدعاه فخر الدولة من طريقه الى بغداد لبى ورجع اليه ، وشخص معه الى الأهواز كما أراد ، وحارب فى الأهواز وانتصر حتى تدخل فخر الدولة وقد أساء الى جنده حتى اضطربوا عليه ولما أحسّ الصاحب بتغيّر فخر الدولة عليه لم يزد عن الامساك والتزام الصمت ، وكان فى استطاعته وقد رأى من مولاه ما رأى أن ينجو بنفسه ذاهبا الى بغداد ، ولن يعدم وسيلة يتوسّل بها الى الخليفة أو الى قلب السلطان ، أو أن يرجع الى الرىّ مغاضبا ، ولكنه بقى حيث هو مع مولاه ، حتى اذا رجع اليه مستشيرا وجد عنده الرأى الذى يجمع شمل جنده ، ولو أن فخر الدولة لم يأخذ برأيه ، ولم يجد بماله . الا أن رأى الصاحب كان الرأى الصائب ، وقد عرفت اصابته بعد تشتت جنده وخيبة حملته ، وتبدد الآمال .

ولعل الاعتدال وضبط النفس كان من أهم ما رفع الصاحب فى نفوس أمرائه ، ودعاهم الى استبقائه والحرص عليه ، ولهذا عمر فى الوزارة تلك المدة الطويلة التى تزيد على ثمانية عشر عاما وهى مدة قلّ أن عمّرها وزير فى وزارة ، ولا سيما فى ذلك الزمان الثائر المضطرب ، ولقد تعاقب عليه أميران ، أحدهما « فخر الدولة » الذى لم يحتمل أخويه ، ولم يحتملاه ، فثار عليهما ، وظل مقصيا ثائرا ، يحارب أخويه عضد الدولة ومؤيد

الدولة ويحاربانه ، حتى توفى مؤيد الدولة فاستدعاه الصاحب وسلم اليه السلطان ، واعتذر الصاحب عن مشاركته فى تحمل مسئولية الحكم ، لولا أن ألح عليه ، فقبل المضىّ فى طريقه محتفظا بكرامته وترفّعه .

ويبدو أثر الاعتدال فى سياسته فى ذلك الرضا الشامل الذى أبدته الرعية طوال مدة وزارته ولم نقرأ فى تاريخه شيئا عن عنفه أو عقوبة صارمة أنزلها بأحد مرءوسيه أو رعاياه جزاء عن مخالفة أو محاولة للخروج .

ولقد كان الصاحب يغضب اذا استغضب ، ولكنه كان سريع الرجوع ، ومن شأن المتهورين الاندفاع وحدة الانفعال فى الرضا وفى السخط على السواء .

أما رحمة الصاحب ورفقه بالناس ، وتواضعه للعلماء والشعراء والأدباء ، ونادرته اللطيفة ، وفكاهته الطريفة .. فان كل ذلك لم يكن فى حقيقته تصاغرا أو شعورا بالهوان ، بقدر ما كان مظهرا من مظاهر الرغبة فى تحطيم الكبرياء ، وكسر حدة المنصب وشهوة السلطان التى يكثر أن تخدع كثيرا من رجال الحكم والسلطان ، فلم يستسلم الصاحب لتلك الشهوة التى تثير فى نفوس أصحابها الحرص على الاستعلاء ، حتى يركبوا مركب البطش والاستبداد . ومن هنا كان التوسّط والاعتدال ، فكان بين الحكام مثلا بعيد المنال ، وكان فى العلماء والأدباء عالما وأديبا يخلع رداء السلطان الذى تنقبض له النفوس ، ثم يقول لجلسائه كلمته المذكورة : « نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان » .. ويقول للقادم عليه

اذا كان من أهل العلم : « يا أخى تكلم واستأنس ، واقترح وانبسط ، ولا ترع .. ان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف » ! ويقول لأبى واقد الكرابيسى — وقد حضر مجلسه وهو لا يعرفه — يا أخ انبسط واستأنس ، وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشراب مرىء ، ولن ترى الا البرّ !!

وذلك ان كان يدل على شىء فانما يدلّ على الطبع الأصيل الذى يملك صاحبه زمام نفسه فلا يسرف بها متعاليا ، ولا ينحطّ بها متداعيا ، ولكنها تتصرف فى كل موقف بما يتطلبه ، ومع كل انسان بما يناسبه ، وهذا هو سرّ احترامه وهو أيضا سرّ محبته ، ولقد مازحه مولاه فخر الدولة ذات مرة بكلمة رأى الصاحب أنها نابية ، فما كان أسرعه الى القول « بنا من الجدّ ما لا نفرغ معه للهزل » وغادر مجلسه غاضبا ، وانكمش عنه ، حتى استرضاه مقدرا ما ينبغى لمثله من التوقير والاحترام .

* * *

وهنالك مظهر آخر لتمكن خلق الاعتدال من نفسه ، وتسلطه على قوله وفعله وعقيدته ومذهبه ، فقد رأينا أنه كان يرى رأى المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد الذين كانوا يقولون بخلق القرآن ، كما سنعرض ذلك عند دراسة علم الصاحب ، وكان يناظر لتأييد قوله بما يستطيع من الأدلة والبراهين ، ولكنه لم يحاول مرة أن يكره أحدا على القول بما يقول ، ولا أن ينال

من مخالفى مذهبه أو رافضى قوله ، أو أن يفعل ما فعل خلفاء بنى العباس ووزرائهم من أخذ معارضيهم للفكرة نفسها بالعسف والظلم والاستبداد ، وتنحيتهم عن وظائفهم ان كانوا من أصحاب المناصب والوظائف ، أو سجنهم وتعذيبهم ان كانوا من غير أصحاب الوظائف والمناصب ، وكأنهم كافرون بكل القيم منكرون لجميع العقائد من أجل خلاف فى الرأى حول بدعة جديدة ، أو فتنة جديدة مزقت وحدة المسلمين ، وعذب بسببها كثير من أئمتهم وعلمائهم وفقهائهم وأفاضلهم .

أما الصاحب — وقد كان يقول بما يقول به خلفاء بنى العباس ووزراؤهم — فانه لم يحاول أن يسلك مسلكهم ، أو أن يذهب مذهبهم فى التعصب لرأيه ، أو أخذ مخالفيه بمثل تلك القسوة والصرامة ، بل كان يدلى بحجته ، ويدع لمخالفيه أن يدلوا بحجتهم ، ولا يحاول أن يحملهم على اعتناق رأيه ، أو أن يصيبهم بسوء ، بل كان على العكس من ذلك يفتح لهم صدره ، ويوسع لهم فى مجلسه ، ويتبسط معهم ، تاركا لكل انسان أن يقول بما يرى ، وأن يعتقد ما يرضى .

* * *

والمعروف عن الصاحب أنه كان شيعيًّا اماميًّا من الاثنى عشرية[1] ، ولكن يبدو أن الشيعية كانت مذهبه الرسمى المعروف،

(١) لأن عدد الأئمة عندهم اثنا عشر يبدءون من الامام على كرم الله وجهه فابنه الحسن فابنه الحسين فعلى زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسى الكاظم فعلى الرضا فمحمد الجواد فعلى الهادى فالحسن العسكرى فمحمد المهدى المنتظر .

وان كان له شعر كثير يدلّ على حبه لأهل بيت رسول الله حباً ملك عليه قلبه ، وظهر أثر هذا الحب الشديد فى كثير من شعره ، ملتمسا بهم الشفاعة والزلفى الى الله كقوله مخاطبا آل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان ابن عبـــاد استجار بكم
فما يخاف الليـوث فى الخيس [1]

كونوا أيا سادتى وســـائله
يفســح له الله فى الفــراديس

كم مدحة فيكم يحبّـــرها
كأنهـــا حــلة الطواويس

وهــذه كم يقـــول قارئهــا
قد نثر الدّر فى القــراطيس

يملك رقّ القريض قائلهــا
ملك ســليمان عرش بلقيس

بلغه الله ما يؤمـــله
حتى يزور الامــام فى طــوس [2]

وقوله راجيا بحبهم الخلود فى الجنان :

نبىّ والوصىّ وســيدان وزين العــابدين وباقران
وموسى والرضا والفاضــلان بهم أرجو خلودى فى الجنان

---

(۱) الخيس بالكسر موضع الأسد .

(۲) طوس بالضـم مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ، تشمل على بلدتين يقال لاحداهما (الطابران) والأخرى (نوفان) ، بها قبر الرشيد ، وعلى بن موسى الرضا .

وقوله فى ايثار بنى السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد قلت قولا صادقا بينـــا وليست النفس به آثمـــه
لكلّ شيء فاضـــل جوهـــر وجوهر النـــاس بنو فاطمه

الى أمثلة كثيرة من هذا الشعر الذى فاض به بحر الصاحب فى حبّ رسول الله وأولاده ؛ ولا يختلف مسلمان أيا كان مذهب كل منهما ونحلته فى حب رسول الله وآله والولاء لهم ولغيرهم من ذوى السّابقة والجهاد فى سبيل الله من السّابقين الأولين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . فهذا قدر مشترك بين المسلمين جميعا سواء أكانوا من أهل السنة أم كانوا من أهل الشيعة .

ومع هذا الحب والولاء الذى يشارك الصاحب فيه المسلمون جميعا ، كان الصاحب معتزليا ، وهنالك اختلافات كثيرة بين الشيعة والمعتزلة ، والأدلة على كونه معتزليا كثيرة ، منها تعصبه للجاحظ الذى كان من أئمة المعتزلة كما هو معلوم ، وقد رد الشريف المرتضى فى كتابه « الانصاف » على الصاحب بن عباد فى تعصبه للجاحظ ، ونسب الشريف الصاحب الى الاعتزال ، وقال فخـــر الدولة للصاحب « بلغنى أنك تقـــول : المذهب الاعتزال .. » . وعدّه صاحب كتاب « فرج الهموم » من المعتزلة ويظهر ذلك من رسالته المسماة بالابانة ، فان ظاهره فيها انكار النص على أمير المؤمنين مع القول بأفضليته ، وهذا مذهب جماعة من المعتزلة .. ويحكى عن الصلاح الصفدى أنه قال : ومن المعتزلة

الصاحب بن عباد والزمخشري والفراء النحوى [1] وقال أبو حيان التوحيدى « والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتّاب » [2] ..

ما لنا نذهب بعيدا فى اثبات اعتزاله ، وهو القائل بما يقول به المعتزلة من الاختيار وانكار الجبر ، حتى قال فيه السلامى الشاعر يهجوه :

يا ابن عبـــاد بن عبا　　س بن عبد الله حـــرها
تنكر الجبـــر وأخرج　　ت من دنيـــاك كرها

وهو القائل بما يقول به المعتزلة من خلق القرآن ؟ وهو من المعتزلة الذين يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » ، كما قال هو عن نفسه :

العدل والتوحيـــد مذهبى الذى
يزهى به الايمان والاســـــلام
وولايتى لمحمـــــد ولآلـــه
دينى وحصن الدين ليس يـــــرام
فهناك حبل الله مضفور القـــوى
وعليه من سر القضـــــاء ختـــام

وكما كرر ذلك كثيرا فى شعره . فلم تبق شبهة فى اعتناقه آراء المعتزلة .

---

(١) راجع (أعيان الشيعة) ٣٦٧/١١ و ٣٦٨ .
(٢) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١ .

والى جانب هذا وذاك ، ذكر التوحيدى فى الامتاع أنه كان « يتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية »[1] ..

ولا شك أن هذه الأقوال كلها تدعو الى العجب ، وتستثير الدهش ، فكيف يكون الصاحب جامعا لهذه المذاهب ؟ فيكون من الشيعة الامامية الاثنى عشرية ، ومن الشيعة الزيدية ، ومن المعتزلة حنفيا أو شافعيا ؟ !

وليس من حقنا أن ننفى اعتناق الصاحب بن عباد مذهبا من هذه المذاهب أمام هذه الأخبار والنصوص المتواترة ، وأمام كلام الصاحب نفسه ، وكلام معاصريه ! وليس من حقنا كذلك أمام هذه الأسباب أن نقول ان الصاحب كان له مذهب واحد بعينه يتمسّك به ، وينكر ما عداه !

فهل معنى ذلك أن الصاحب كان يجمع هذه المذاهب كلها أو كانت تجتمع فيه مع ما قد يكون من أوجه الخلاف بينها ؟ !

ان رأيى الذى أطمئن اليه أن ذلك ليس مستحيلا كما يخيل لبعض الأذهان التى تصرّ على أن هناك اختلافا يستحيل معه الاتفاق . ذلك أن الاختلاف بين هذه المذاهب مهما يكن مداه ليس الا اختلافا فى الفروع ، أما الأصول فانها واحدة ! كما قال الله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

---

(١) المصدر السابق ١/٥٥ ؛ وياقوت ٦/١٧٥ . ونقل ياقوت « ويتشيع بمذهب أبى حنيفة » بالباء موضع اللام . والزيدية طائفة من الشيعة تقول بامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد خرج زيد على الدولة الأموية فى زمان هشام ابن عبد الملك .

ولا تختلف هذه المذاهب الا بمقدار ما يختلف الأخ عن أخيه الشقيق فى بعض الظواهر العرضية التى لا تنفى وحدة أصلهما ، وتلك الاختلافات العرضية انما جسمتها الأهواء والنزوات ، التى لا يمكن أن تمسّ جوهر العقيدة بحال من الأحوال ؛ وان كانت قد أحدثت على مر الزمان آلاما وجراحا وأفسدت بين الأشقاء ، ووسّعت الهوة ، ومزقت وشائج الوحدة وروابط الاخاء .

وقد استطاع الصاحب بن عباد أن يكون كذلك ، لأن واجبه الأسمى كمشارك فى تدبير الدولة وسياسة أمورها ، ورعاية رعاياها تقتضى أن يكون كذلك ؛ فهو شيعى فى ولائه لآل رسول الله ، وهو معتزلى فى تفكيره ، وهو يتشيع لمذهب أبى حنيفة أو لمذهب الشافعى السنيين ، أو بعبارة أخرى « هو مسلم » يأخذ بأجود ما يرى أو ما يطمئن اليه عقله من هذا ومن ذاك فليس مقلدا لمذهب من المذاهب ، وانما هو آخذ بأسباب القوة كما يراها فى كل مذهب من المذاهب ، ولا ضير فى شرعة الانصاف أن يكون على هذا النحو من السلوك ، فان أمامه الأصول التى لا يتمارى فيها مسلمان من كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عقله يهديه ، وقلبه الذى يسير وراء عقله .

هذا ما أستطيع أن أطمئن اليه فى تفسير هذه الأخبار وتعليل تلك النصوص .

وقد استطاع الصاحب أن يضرب أروع الأمثلة الايجابية فى ايمانه بما آمن ، وفى أخذه بما أخذ ، فنراه يؤلف كتابا يعد فى طليعة ما يذكر من كتبه وآثاره ، وأعنى به كتابه الذى سماه

« كتاب الامامة » الذى يذكر فيه فضـائل الامام على كرم الله وجهه ، ويثبت بأدلته وبراهينه صحة امامة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم أجمعين . وقد ذكر هذا الكتاب أعلام يعتدّ بهم ، وفى مقدمتهم محمد بن اسحاق النديم ، الذى عاصر الصاحب نفسه ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها الصاحب (سنة ٣٨٥ هـ) وقد قال فى الفهرست فى كتب الصاحب « كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وتثبيت امامة من تقدمه » [١] ، وكذلك القاضى أحمد الشهير بابن خلكان الذى ذكر فى كتب الصاحب « وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب — رضى الله عنـه — ويثبت امامـة من تقدمه » [٢] ، وكذلك ياقوت الذى ذكر أن هذا الكتاب « فى تفضيل على بن أبى طالب ، وتصحيح امامة من تقدمه » [٣] .

وعلى هذا فليس هنالك شـك فى صحة هـذا الكتاب ، ولا خلاف فى موضوعه ، وهذا أكبر دليل على ما قررناه من سعة أفق الرجل ، وأخذه بما يراه وبما يقتنع به ، وينفى عنه رذيلة التعصّب الذى يُعمى عن الحق ، ويفتح للأهواء سبيلها الى الضلال . وقد كان هذا فى حقيقته مؤكدا لما قلناه من قبل عن

---

(١) الفهرست لمحمد بن اسحاق النديم ١٩٤ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٢٥ .
(٣) معجم الأدباء ٦/٢٦٠ .

فضيلة الاعتدال التى كان يتميز بها الصاحب بن عباد بين فضائله الكثيرة ، ومواهبه المتألقة .

ويؤكد هذه الفضيلة أيضا موقفه من القاضى « عبد الجبار ابن أحمد » وهو سنّى [1] معتزلى ، فقد أعجب بعلمه وفضله حين رآه فى بغداد ، فلما عاد الصاحب الى الرىّ استدعاه وكرّمه وقدمه ، ثم ولاّه قضاء الرىّ ، ثم أضاف اليه بعد ذلك قضاء طبرستان وجرجان وما يليهما من الأعمال ، غير متعصب لرأى ، ولا متشيع لمذهب ، ولا خاضع لهوى من الأهواء ، الا هوى الحق ، ومنهج العدل .

* * *

وأخيرا فلعل فيما أبرزناه فى هذا الفصل عن أخلاق الصاحب يلقى ضوءا على ما كان يتمتع به من الفضائل النفسية التى رفعته وخلدت اسمه فى سجل الخالدين ، ولعله يعين على تعرف العوامل والمواهب التى تضافرت على تكوين شخصية فذة من أفذاذ التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى .

---

(١) أردنا بالسنية معناها العام ، لا معناها الذى يقابل الاعتزال .



الفصل الخامس

الصاحب الأديب

الصاحب الأديب

كان الصاحب أحد أعيان الأدباء الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه ، وبه عرفوا وذاع صيتهم بين الناس ، وقد فاق فى أدبه وفى تنوع فنونه أكثر أدباء عصره كتابة وشعرا .

ولن نظلم الحقيقة اذا قلنا ان ابن عباد كان آدب من عرفنا من الوزراء الذين سما بهم هذا الفن الرفيع الى أرفع مكان رسمى فى الدولة بعد منصب الخلافة والملك ، وهو منصب الوزارة .

وقد شهد للصاحب بذلك الفضل أكثر الناس عداوة له ، وألدهم خصومة ، وأشدهم حقداً عليه ، وفى مقدمتهم أبو حيان التوحيدى الذى كتب بعد أن فرغ من الاعتذار من التصدى لثلبه أن أول ما يذكر من ذلك ما يدل به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ، وقوة جأشه ، وشدة منّته [1]..وقال أبو منصور الثعالبى فى نعته : « همته فى مجد يشيده ، وانعام يحدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب اليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل، وقول فصل، وصارت حضرته مشرعة

(١) المنة بضم الميم وتشديد النون القدرة والقوة .

لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد الاعجاز وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب[1] .. وقال فيه الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطي : « وهذا الصاحب ممن اشتركت الألسن في وصفه ، وسلم اليه أهل البلاغة ماعاناه من نثره ونظمه ، وحسن ترتيبه ورصفه[2] .. ورثاه الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى النقيب بقصيدة طويلة من عيون المراثى قال فيها :

واها على الأقلام بعدك انها ... لم ترض بعد بنان كفك آلا
أفقدن منك شجاع كل بلاغة ... ان قال جلّى في المقال وجالا
من لو يشا طعن العدا برءوسها ... وأثار من جريانها قسطالا[3]

ووصفه محمد بن اسحاق النديم بأنه « أوحد زمانه ، وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر[4] ..

* * *

ولقد كان الصاحب أديبا برز في فنون الأدب ، فكان كاتبا من كبار الكتاب ، وشاعراً من فحول الشعراء ، وناقدا عارفاً بأصول الأدب . وقلما رأينا أديبا اجتمع له من أسباب القدرة والتمكن

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/٣ .
(٢) أنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٠٢/١ .
(٣) القسطل والقسطال والقسطلان : الغبار .
(٤) الفهرست : ص ١٩٤ .

من فنون القول كما رأينا الصاحب الذى زاحم كل مختص فى فنه حتى حاذاه وفاقه ..

ومرجع ذلك الطبع الموهوب، والأدب المكسوب ، والأساتذة العارفون الذين جلس اليهم وتلقى عنهم أصول الفن ، مع رغبة شديدة فى المعرفة ، وحرص على الاطلاع الواسع العميق على غرر الشعر وعيون النثر حتى بلغ من ذلك الغاية ..

وقد كان من أساتذته علماء يشار اليهم بالبنان فى تنوع المعرفة ، ويعترف لهم بالتبحر فى الأدب وفى مقدمتهم أحمد بن فارس الذى وصف بأنه من أعيان أهل العلم ، وأفراد الدهر ، وأنه يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء ، وهو صاحب الكتب البديعة والرسائل المفيدة والأشعار الجيدة ؛ ولعل الصاحب بن عباد كان أشبه تلاميذه به فى العلم ، وان فاقه فى فن الكتابة وفن الشعر .

الصاحب الناثر

وفى طليعة أساتذته الذين أخذ عنهم أصول فن الكتابة أبو الفضل محمد بن الحسين الذى اشتهر بابن العميد ، والذى وصفه الثعالبى بأنه الأوحد فى العصر فى الكتابة ، وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، وكان يدعى الجاحظ الأخير ، والأستاذ ، والرئيس ، يضرب به المثل فى البلاغة ، وينتهى اليه فى الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل

وجزالة الألفاظ وسلاستها ، الى براعة المعانى ونفاستها ..وما أحسن ما قال له الصاحب — وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها — : « بغداد فى البلاد ، كالأستاذ فى العباد » .. وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

وقد أجرى ذكر عبد الحميد وابن العميد معاً ، وجعلهما مثلا ، أبو محمد عبدالله بن أحمد الخازن الأصبهانى فى قصيدة فريدة مدح بها الصاحب ، فلما انتهى الى بلاغته قال :

دعوا الأقاصيص والأنباء ناحية   فما على ظهرها غير ابن عباد

والى بيان متى يطلق أعنتــه   يدع لسان اياد رهن أقيــاد

ومورد كلمات عطلت زهــرا   على رياض ودرًّا فوق أجياد

وتارك أولا عبد الحميــد بها   وابن العميد أخيرا فى أبى جاد

ويتمثل فىهذا العصر الذىأنجب أبا الفضل بنالعميد وتلميذه الصاحب بن عباد ازدهار الحضارة ، ووضوح أثرها فى فن الكتابة، التى أخذ أسلوبها يميل الى الزخرف والتأنق والصنعة ، فامتازت كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لا سيما الرسائل السلطانية ، وباستعمال الجناس وبعض أنواع البديع ، وباستخدام معانى الشعر وألفاظه فيهــا بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى كادت الرســائل تكون شــعراً منثوراً ، وازدادت فيهــا عبــارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشــأنهم ، والاقتبــاس من كلام البلغاء ، وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء . ولا عجب من ذلك اذكان جميع كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم

هذه الطريقة من الفرس ، وهم أميل الناس الى الحلية اللفظية ، والغلو فى عبارات التمجيد والتعظيم .. ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه ، وحسن استعماله فى مواضعه ، وجمال أسلوبه .

وكان من الممكن أن تكون هذه الطريقة غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ، ويسوء استعمالها بعد عصر الذين انتحلوها ، اذلم يكن من بعدهم على مثل سننتهم فى الاحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها ، فأخطئوا التقليد فى اللفظ ، كما حرموا الاجادة فى المعنى .

وكان ابن العميد أقلهم التزاما للمسجوع ، وأقربهم الى انتحال المطبوع . وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتا منثورة ، ويلمح فيها الى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة ، فكان منها فصول سائرة ومعان نادرة[1] . ثم يكون الصاحب بن عباد ثانى ابن العميد فى حلبته ، وأبلغ من سلك طريقته ، غير أنه أولع بالجناس والسجع ، وكان تياها شديد العجب بنفسه ..

والحقيقة أن الصاحب أسرف فى ولوعه بالسجع اسرافا عجيباً، حتى رنق هذا السجع المتتابع رونق كلامه وحسن نظامه . والتأنق فى الصياغة ، وتخير الألفاظ ، وجودة التأليف ، وحسن التنسيق والرصف ، كل ذلك مطلوب ، بل هو ضرورى فى الفن الأدبى ،

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى ، للأستاذ أحمد الاسكندرى ٢١٧ .

لأنه الذى يميز فنية الأديب صاحب القلم أو صاحب اللسان من غيره من الذين يصطنعون اللغة ويعبرون بهــا عن آغراضــهم ومقاصدهم . فقوة العبارة ومتانة سبكها وجودة رصفها وتخير ألفاظها دليل على تلك الفنية التى ننشدها فى الأعمال الأدبية ، وفى الجناس والسجع والازدواج موسيقى تأنس بها النفس، وتطرب لها الأذن ، ولكن تتابع النغم الرتيب ، يشعر بالتكلف ومجافاة الطبع، لأن الفن جمال ، وليس جمال الفن الأدبى محصورا فى هذا الضرب من التنميق والتنسيق حتى يفرغ الأديب ما فى كنانته فيه ، فيطغى على ما يتطلب فى العمل الأدبى من فخامة المعانى وروعة الخيال .

* * *

وقد نجد فى كلام الصاحب ، بل فى كثير من كلامه ، ما شئنا من وفرة المعنى وروعة الخيال ، غير أن تلك الموسيقى المترادفة فى الأسلوب تطغى على ما تتضمنه العبارة من أسباب القوة فى المعانى وأصالتها اذا كانت ذات قوة وذات أصالة ، فليس الفن الأدبى موسيقى فقط ، وان كانت الموسيقى مطلوبة فيه ، ولكنها الموسيقى المطبوعة التى لا تشعر بالتكلف والتعمل فى طلبها ، ولا تتغلب على سائر الخصائص المميزة لفن الأدب .

ومن هنا أساء سجع الصاحب الى أدبه ، وشوهت صــناعته محاسن فنه ، وكان فى هذه الاساءة والتشويه اماما للذين كانوا بعده فى عصور الظلمة والجهل ، والذين صار أدبهم كالطلاء على غير بناء ، وكالصدى الذى لا يرجع الى أصل . وهى على كل حال طبيعة العصر التى تؤثر فى كل شىء فيه .

ولقد وجد أعداء الصاحب وحسّاده فى ذلك الغلوّ مجالا للنيل من أدبه ، والغض من طبعه ، فنسبوه الى التكلف ، ووصفه بعضهم بالرقاعة .

وأكبر الظن أن الذى دفع الصاحب الى هذا المنهج غير ما ذكرنا من طبيعة عصره وأسلوب الذين سبقوه من أساتذته ادلاله بثقافته اللغوية ، وتلك الصنعة تقتضى ثقافة لغوية واسعة ، ومعرفة بالألفاظ المتسقة والمتجانسة والمتوازنة ، والقدرة البارعة على تأليفها ، وذلك ما لا يحذقه كثير من أرباب الصناعة .

* * *

ولكن المزية التى توافرت للصاحب ولم تتوافر لغيره ، هى تلك القدرة الفائقة على هذا التأليف المصنوع من غير روية ولا تحضير ولا تحبير ، حتى أصبحت تلك الصنعة طبعا فيه ، وحتى أصبح غالب كلامه المرتجل يجرى هذا المجرى من الكلام الأنيق المسجوع ، فتراه يقول لأحد رجاله الذين يتولون الكتابة والحساب ، ولم يعجب الصاحب ماكتبوه وما حسبوه : « أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أنى ربيتك فى دارى ، وشغلت بتخريجك ليلى ونهارى ، ولك حرمة الصبا ، ويلزمنى رعاية الأبا ، لأطعمتك هذا الطومار[1] ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، أمثلى يموّه عليه ؟ ويطمع فيما لديه ؟ وأنا خلقت الحسابة والكتابة ! والله ما أنام ليلة

(١) الطومار : الصحيفة ، والجمع طوامير .

الا وأحصل فى نفسى ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق . أغرك منى أنى أجرت رسنك[1] ، وأخفيت قبيحك ، وأبديت حسنك ؟ غيِّر هذا الذى رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزد فى صلاتك وصدقتك ، ولا تعول على قحتك وصلابة حدقتك » ..

وجرى يوما فى مجلسه ذكر أبى سعيد الأبهرى المتكلم ، فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون ، جاءنى بوجه مكلّح ، وأنف مفلطح [2] ، ورأس مسطح ، ولسان مكبح [3] ، فكلمنى فى مسألة الأصلح ، فقلت له : اعزب — عليك لعنة الله — لقيت الأبرح[4] ، الذى يلزم ولا يبرح » .

وكثيرا ما كان يدعوه تطلب السجع الى استعمال الغريب الموحش ، المتنافر القبيح ، وقد شتم يوما رجلا فقال « لعن الله هذا الأهوج الأعوج الأفلج الأفحج[5] ، الذى اذا قام تخلج[6] ، واذا مشى تدحرج ، واذا عدا تفجفج [7] » .

---

(١) الرسن الحبل ، وهذا كقولهم « حبلك على غاربك » يريد تركتك لنفسك !

(٢) أى عريض مفرطح .

(٣) أى لا يقدر على الابانة ، أى أن لسانه كالدابة اذ كبحتها باللجام ؛ يقال كبح الدابة وأكبحها منعها من السير بشد اللجام .

(٤) دعا عليه بالشر والشدة .

(٥) الأفحج ذو الفحج ، وهو تدانى صدور القدمين وتباعد العقبين .

(٦) أى اضطرب .

(٧) أى انفرج ما بين رجليه عند المشى، وهو أقبح من الفحج.

ودخل يوما دار الامارة الفيرزان المجوسى ، فقال له فى شيء خاطبه فيه : « انما أنت مِحَش ّ(1) مجش مخش ، لا تهش ولا تبش ولا تمتش ّ » (2) ! فقال الفيرزان : « أيها الصاحب ، برئت من النار ان كنت أدرى ما تقول ! ان كان رأيك أن تشتمنى فقل ما شئت بعد أن أعلم ، فان العرض لك ، والنفس لك فداء ، لست من الزنج ولا البربر ، كلمنا على العادة التى عليها العمل ، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ، ولا من أهل دينك من أهل السواد ، وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط » ! فقام الصاحب مغضباً .

وقال ابن عباد لشيخ من خراسان فى شيء جرى : « والله لولا شيء لقطعتك تقطيعا ، وبضعتك تبضيعاً ، ووزعتك توزيعا ، ومزعتك تمزيعا ، وجزعتك تجزيعا ، وأدخلتك فى خزائنك — ثم وقف ساعة ، ثم قال : — جميعا (3) » ..

قال أبو حيان فى وصف هذه الحكاية وهو راويها : وملح هذه الحكاية ينبتر فى الكتابة ، وطربها ينقص فى الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ ، وملاحة الشكل فى التحرك والتثنى ، والترنح

(1) المحش بكسر الميم الشجاع ، والمجش بكسر الميم والمجشة الرحى ، وأصل المعنى فى هذه المادة الخشونة والمخش بكسر الميم الجرى على العمل فى الميل ، والفرس الجسور .

(2) اى لا ينال منك غرض .

(3) يريد أنه أتم السجع بقوله « جميعا » بعد اذ وقف ، ولو أنها فضلة كلام تافهة ، ولكنه أغرم بالسجع ، فلما وقف جرت على لسانه فقالها .

والتهـــادى ، ومد اليد ، ولىّ العنق ، وهز الرأس والأكتاف ، واستعمال الأعضاء والمفاصل .

* * *

وكان كثير من سجع الصاحب يدعو الى العجب ، ويستوجب الضحك حقا ، فقد قال يوما عن أبى الفضل ابن العميد انه كان « سيدا لم يشق غبارنا ، ولا أدرك شــوارنا [١] ، ولا مسح عذارنا [٢] ، ولا عرف غرارنا [٣] ، لا فى علم الدين ، ولا فيمـا يرجع الى نفس المسلمين . فأما ابنه — يعنى أبا الفتح — فقـد عرفتم قدره فى هذا وفى غيره ، طباش ، قلاش [٤] ، ليس عنده الا قاش [٥] وقماش ، مثل ابن عياش ، والهروى الحواش ، وولدت والشعرى فى طالعى ، ولولا دقيقة لأدركت النبوة ، وقد أدركت النبوة اذ قمت بالذب عنها ، والنصرة لهـا ، فمن ذا يجارينـا ، أو يبارينا ، ويغارينا [٦] أو يمارينا ويشارينا [٧] ؟

ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ، ومجاوزته الحدفيه

---

(١) يقال : للدابة شوار ، اذا عرضتها للبيــــع باجرائها أمام المشـترى .

(٢) العذار جانب اللحية أى الشعر الذى يحاذى الأذن ، يريد أنه ليس له شعر فى اللحى فيمسه .

(٣) الغرار المثال ، يريد أنه لم يبلغ أن يكون مثالا يحتذى كالذى نحن عليه .

(٤) الطياش الطائش ، والقلاش المحتال .

(٥) القاش اسم للقماش كأنه سمى باسم صوته .

(٦) يغارينا من غاراه اذا لج معـــه فى الخصومة .

(٧) المشاراة المجادلة .

بالافراط قوله يوما « حدثنى أن ناش ، وكان من سادة النــاش »
جعل السين شينا ، ومر فى هــذا الحديث ، قال أبو حيــان ان
الصاحب سئل عن هذا فقال : هذه لغة ! وكذب ، وكان كذوبا[1]
قال : وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد والهــزل
يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيبى :
أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك ، لو أنه
رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة،
ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ،
وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل
يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها .

ثم يقول : بالله يا أصحابنا حدثونى : أهذا عقل رئيس ؟ أم
بلاغة كاتب ؟ أم كلام متماسك ؟ لم تجنون به ؟ وتتهالكون عليه ؟
وتغيظون أهل الفضل به ؟ . هل هناك الا الجد الذى يرفع من
هو أنذل منه ، ويوقع من هو أرفع منه . ولقد حدثت هذا الحديث
أبا السَّلَم الشاعر ، فأنشدنى الشاعر :

سبحان من أنزل الدنيا منازلها ... وميّز الناس مشنوءا وموموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبــه ... وجاهل خــرق تلقاه مرزوقا
كأنه من خليج البحــر مغترف ... ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذى ترك الألباب حائرة ... وصيّر العاقل النحرير زنديقا

* * *

(1) معجم الأدباء ٦/٢١٣ .

والحقيقة أنه لو كان الذى رواه أبو حيان من كلام الصاحب من أمثال مامر صحيحا ، لكان الحكم الذى أصدره عليه صحيحا ، ولكانت الأوصاف القبيحة التى وصفه بها من الرقاعة والجنون وغيرهما صحيحة كذلك . أما أن يكون أبو حيان قد افتعل هذه الأمثال ليشوه تاريخ الرجل ويزرى بأدبه وفنه ، فعلم ذلك عند الله ، وحسابه عند الله ، لأننا لم نقرأ هذه المثل الا فى حكايات هو راويها ، وأمامنا من كتب عنه الفصول الطوال كأبى منصور الثعالبى الذى كتب فى الصاحب وفى أخباره ونوادره وفى مجالسه وشعره ونثره قدرا كبيرا[1] ، لا نقرأ فيه مثل هذا الأدب الغث الذى رواه أبو حيان ، وكأن أبا حيان كان ولوعا بمثل تلك الطرائف يرويها أو يؤلفها بقلمه البارع ، وخياله الخصب ، ويتم رواياته برواية أخرى لا تقل عن أمثال ما مرّ طرافة ، فيذكر أنه بلغ من ركاكة الصاحب أنه كان عنده أبو طالب العلوى ، فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه ويرويه يبلق[2] عينيه ، وينشر منخريه ، ويرى أنه قد لحقه غشى ، حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ وما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشّاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى[3] حتى

---

(١) استغرق الجزء الذى كتبه الثعالبى عن الصاحب فى «يتيمة الدهر » نحو مائة صفحة كبيرة (١٨٨ ـ ٢٨٦) من الجزء الثالث « مطبعة حجازى ـ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد »

(٢) يقال بلق الباب وأبلقه اذا فتحه كله .

(٣) يؤنقنى : يعجبنى .

فارقنى لبّى ، وزايلنى عقلى ، وتراخت مفاصلى ، وتخاذلت عُرا قلبى ، وذهل ذهنى ، وحيل بينى وبين رشدى !!

فيتهلل وجه ابن عبـــاد عند ذلك ، وينتفش ويضحك عُجبا وجهلا ، ثم يأمر بالحباء والتكرمة ، ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمــه ..

ثم يسوق أبو حيان بعد هذه المقدمات نتيجة يقرّه عليها كل من يصدق كلامه ، وهى « من ينخدع هكذا فهو بالنساء الرُّعن أشبه ، وبالصبيان الضعاف أمثل[1] .. !

أم ترى أن ابن عباد كان يتفكه أو يتندر بمثل هذه الأقوال فى مجالسه التى كانت تتسع لآيات الجد ، كما كانت لا تضيق بفنون من الفكاهة والمجون ؟ ولم يكن يدرى أن هنالك حسّادا يحصون عليه كلماته ، ويجعلون من سيئاته حسنات ؟

كل ذلك تتسع له أبواب الافتراض ، وتنبسط أمامه وجوب الاحتمال ! ولكن هل كان هذا التكلف البادى فى مثل ما سقناه هو طبيعة أدب الصاحب ؟ أو أنه وحده يمثل خصائص أسلوبه فى الكتابة ؟

* * *

ان بين أيدينا كثيرا من نثر الصاحب فى رسائله ومقاماته ، وهى ترقى به وبفنه الكتابى الى الذروة والسنام فى عالم الفن الكتابى والكلامى . وهاك شيئا من نمط كتابته ، لتقف بنفسك

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٣٨ .

على حظ الصاحب من الأدب ، وتنزله ما هو أهل له من رفيع المنزلة بين الأدباء وحملة الأقلام . وهو فصل من رسالة بعث بها الى ابن العميد جوابا عن كتابه اليه فى وصف البحر :

« وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، اذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، واذا لاحت غُرر المطالب الكثيرة حبّب اليهم الغَرر[1] . وعرفت من تمنّيه كونى عند ذلك بحضرته ، وحصولى على مساعدته . ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر . ولا فضيلة عندى أعظم من اكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شىء أبلغ فى مفاخرة ، وأنفس فى جواهره من وصف الأستاذ له ، فانى قرأت منه الماء السلسال لا الزلزال[2] ، والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولمّا يخطر بفكره سعة صدره ،

---

(١) الغرر بفتح الغين — الخطر .

(٢) يقال ماء سلسل وسلسال وسلاسل سهل الدخول فى الحلق لعذوبته وصفائه .

فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلا[1] لا يفضل عن التبرّض[2] ، وثمدا [3] لا يكثر عن الترشف :

وكم من جبال جئت تشهد أنك الـ
جبال وبحر شاهد أنك البحر

* * *

وكتب فى تنوير باكورة خلاف قد نور ؛ وأهدى قضيبا منورا منه :

« لتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول أن تستقصى ، منها أنه أول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك ، ودرٌّ يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله اذّكار بقدود الأحباب ، وتهييج لسواكن الاطراب ، وحمل الىّ قضيب منه ورداته متعادلة ، ولذاته متقابلة ، فأنفذته مع رقعتى هذه اليك ، وسألت الله أن يعيده ألف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع ... مستخصّ بأحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء الينا ... وسعى فى جلاء وجه الربيع
وحكى من أحب عرفا وظرفا ... واهتزازا يثير ماء ضلوعى
رقة ما نظمت نحو بديع الـ ... مجد حاكى الربيع حسن صنيعى

* * *

(1) الوشل الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره .
(2) البرض العليل ، وبرض الماء خرج وهو قليل كابترض ، والتبرض اخذ القليل .
(3) الثمد - بسكون الميم وفتحها - الماء القليل .

وكتب رقعة مع أقلام أهداها ، وأكبر الظن أنه أهداها الى أستاذه أبى الفضل بن العميد : « قد خدمت دواة مولاى بأقلام تتخفف بأنامله ، وتتحمل نفحات فواضله ، وتأنقت فى بريها فأتت كمناقير الحمام ، واعتدال السهام ، خمسة منها مصرية مقومة ، عليها حلل مسهمة ، وعشرة منها بيض كأياديه ، وأيام مؤمليه ، والله يديم له موادّ نعمته ، ويوفقنى لشرائط خدمته » .

* * *

وهذه رسالة كتبها الى أبى على الحسن بن أحمد فى شأن أبى عبد الله محمد بن حامد . قال الثعالبى : وسمعت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن أحمد يسردها ، فزادنى جريها على لسانه ، وصدورها عن فمه اعجابا بها[1] ، وهى :

« كتابى هذا وقد أرخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله، ونحن على الرحيل غدا ان شاء الله اذا مدّ الصباح غرره ، قبل أن يسبغ حجوله ، ولولا ذلك لأطلته كوقوف الحجيج على المشاعر ، ولم أقتصر منه على زاد المسافر ، فان المتحمل له وسيع الحقوق لدىّ ، حقيق أن أتعب له خاطرى ويدىّ ، وهو أبو عبد الله الحامدى أعزه الله تعالى ، كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهيد أبى سعيد الشبيبى السعيد ، رفع الله منازله ، وقتل قاتله ، يكتب له ، فآنسنا بفضله ، وأنسنا الخير من عقله ، فلما فجع بتلك الصحبة ، وبما كان له فيها من القربة ، لم يرض غير بابى مشرعا ، وغير جنابى مرتعا ، وقطع الىّ الطريق الشاق ، مؤكدا حقا لا يشق

(١) يتيمة الدهر ٣/٢٤٩ .

غباره ، ولا ينسى على الزمان ذماره . وكنت على جناح النهضة التى لم يستقر نواها ، ولم تبن حصباها ، ولم تلق عصاها ، فأمرج الحرّ المبتدأ الأمر ، القريب العهد بوطأة الدهر ، حامل عليه بالمركب الوعر .

« فرددته اليك يا سيدى لتسهل عليه حجابك ، وتمهد له جنابك ، وتترصد له عملا خفيف الثقل ندىّ الظل ، فاذا اتفق عرضته عليه ، ثم فوضته اليه . وهو الى أن يتفق ذاك ضيفى وعليك قراه ، وعندك مربعه ومشتاه . ويريد اشتغالا بالعلم ليزيده فى الاستقلال ، الى أن يأتيه ان شاء الله خبرنا فى الاستقرار ، ثم له الخيار ، ان شاء أقام على ما وليته ، وان شاء لحق بنا ناشرا ما أوليته . وقد وقعت له الى فلان بما يعينه على بعض الانتظار الى أن تختار له — أيدك الله — كل الاختيار ، فأوعز الىّ بتعجيله ، واكفنى شغل القلب بهذا الحرّ الذى أفردنى بتأميله ، ان شاء الله تعالى » .

* * *

وهذه رقعة كتبها الى القاضى أبى بشر الفضل بن محمد الجرجانى عند وروده باب الرىّ وافدا عليه :

تحدثت الركاب بسير أروى ... الى بلد حططت به خيامى

فكدت أطير من شوقى اليها ... بقادمة كقادمة الحمام

أفحق ما قيل أمر القادم ؟ أم ظن كأمانى الحالم ؟ لا والله ، بل هو درك العيان ، وانه ونيل المنى سيّان ، فمرحبا أيها القاضى براحلتك ورحلك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك . ويا سرعة ما فاح

نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريّاك ، فحثّ المطىّ تزل غلّتى بسقياك ، وتزح علتى بلقياك ، ونصّ على يوم الوصول لنجعله عيدا مشرفا ، ونتخذه موسما ومعرفا ، وردّ الغلام أسرع من رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبّا فى عقال وأسر :

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوى يا زياد بن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

* * *

وكتب رقعة الى صديق أهدى اليه مصحفا :

البرّ — أدام الله الشيخ — أنواع ، تطول به أبواع وتقصر عنه أبواع . فان يكن فيها ما هو أكرم منصبا ، وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ اذ أهدى ما لا تشاكله النعم ، ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع دون معارضته على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان[1] ، وبقى ما بقى الملوان[2] ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذلّ كل جبار عنيد . وفضائل القرآن لا تحصى فى ألف قران ، فأصف الخط الذى بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة الأقسام ، وزاد فى نخوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره

(1) الثقلان : الانس والجن .
(2) الملوان : الليل والنهار .

آثاره ، وعينه فراره ، وحقا أقول انى لا أحسب أحدا ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وان هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الحج على العمرة » .

أدب العهود :

كانت رسائل الدولة ذوات البال تصدر من ديوان الرسائل واليه ترد ، ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة الا فحول البلاغة ، وأهل العلم والأدب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم الملوك . وكان النظر فى ديوان الرسائل غالبا للوزير ، اما مستقلا به ، أو مستنيبا عنه ، لموضعه من ضبط أسرار الدولة ، وحفظ كرامتها ، وتفخيم شأنها فى أعين الرعية والملوك ، فكان وزراء الأمراء هم شيوخ الكتاب وأساتذتهم .

وقد تعددت موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم العديدة التى استحدثت فى الدولة ، من كتابة بيعة لخليفة أو ولىّ عهد ، أو عهد لوال أو قاض ، أو منشور باعلان أمر سياسى أو دينى .. وبعض هذه الأمور ككتابة عهد الوالى أو القاضى كان يكتب فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عصر بنى أمية ، غير أنه كان يكتب موجزا ساذجا ، يقتصر فيه على نص التولية وموجبها بايجاز . أما فى عصر الدولة العباسية ، فقد كان كل نوع من الأنواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب ، فالبيعة كانت تشحن بالايمان المحرجة التى تفنن الكتاب والفقهاء فى

اختراعها ، وكان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة ، وما يجب للأمة على الخليفة . وعهد الوالى أو القاضى يفصل فيه الصفات الحسنة التى رغبت الخليفة فى اختياره ، وعدد البلدان والنواحى التى يتولاها ونوع العمل الذى يعمله من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء ، والوصايا بالأمور التى يجب أن يأخذ بها الرعية ، وغير ذلك مما لم يكن له أصل ، أو كان له أصل غير مستوفى[1] .

تلك هى الرسائل الديوانية التى برزت بين فنون الكتابة الانشائية ، بل ان هذه الرسائل الديوانية هى التى أبرزت عدداً كبيرا من رجال القلم فى أدبنا العربى ، وعلى قدر خطورة هذه الرسائل وموضوعاتها كان خطر كتابها وعظم شأنهم فى الحياة العامة بين مدبرى شئون الدولة ومصرّفى أمورها ، وكذلك فى حياتهم الخاصة اذ ترتب على مزاولتهم هذا الفن بروز شخصياتهم وتقدمهم على أكثر طبقات المجتمع .

ولقد كان الصاحب من أولئك الوزراء الكتاب الذين ارتقى بهم القلم الى درجة التدبير ، فلما وصلوا الى درجة التدبير والتصريف لم ينسوا ماضيهم الفنى فى صناعة القلم ، بل اتخذوا من هذه الصناعة ما يدعم الوظيفة والمنصب ، وهكذا خدم القلم الدولة فدبّر أمورها ، وحل مشاكلها ، وخدمت الدولة أصحاب القلم ، فبلغوا أقصى ما يتمناه أصحاب الصناعة الفنية .

* * *

(١) تاريخ آداب اللغةالعربية فى العصر العباسى ، للأسكندرى : ص ٣٣ .

وقد قرأنا بعض النماذج للرسائل الاخوانيـة التى دبجتها يراعة الصاحب فى الوفاء وفى الوصف وفى الشفاعة وفى الشكر وفى بث الأشواق . وهى رسائل تفيض بشرح العواطف الانسانية، وتعبّر عن المشاعر التى يجدها الكاتب نحو مظاهر الحياة ونحو الأحيـاء .

وبقى أن نذكر شيئا من رسائله الديوانية ، فى ناحية واحدة، ولكنها أهـم نواحيها الكثيرة ودواعيها المتعـددة ، وتلك هى « العهود » التى كان يكتبها الصاحب عن الخليفة أو عن السلطان فى اسناد بعض أعمال الدولة الى بعض الرجال التى اجتمعت فيهم الصفات التى ترشحهم لولاية تلك اعمال .

وسنرى الصاحب فى كتابة هذه « العهود » كما عهدناه فى سائر كتاباته الاخوانية أو غيرها رجل الصنعة البليغ ، ولكن هذه الصنعة التى أصبحت طبعا عند الصاحب حتى فى كلامه الجارى وفى حديثه المرسل ، تتوارى هذه الصنعة ، وكأنه لم تكن صنعة ، أمام فيض المعانى البارزة والأفكار الواضحة والتعاليم الرشيدة، فلا يبدو أبدا أن فى هذه العهود عبارة مقسورة أو لفظا مجتلبا ، وانما هى العبارة الناصعة المتحملة لأجود المعانى وأوضحها . وقد استجمعت تلك العهود سائر الخلال المستحبة ، والمثل المتمناة فى شاغلى تلك المناصب ، ومن تسند اليهم تلك الأعمال ، بحيث يعزّ على الباحث أن يجد نقصا اذا طلبه ، أو يشعر بخطأ فيما ينبغى أن يكون كما تصوره الصاحب من المثل والفضائل والحقوق وللتكاليف والآداب التى تتطلبها الانسانية ، وتقتضيها رعـاية

العمل والنهوض به على أكمل وجه . وتلك ميزة كبرى للعهود التى كتبها الصاحب ، ففيها دليل عقله ، وحسن تقـديره ، وفيها أروع المثل لبناء الأمة الفاضلة ، والدولة الناهضة .

ونسرع بك الى نموذج من هذه « العهود » كتبه الصاحب الى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد ، حين عينه فى ولاية القضاء فى جرجان وطبرستان ، وما يليهما من أعمال ، بالاضافة الى قضاء الرىّ الذى كان يتولاه من قبل . وقد أشرنا الى فاتحة هذا العهد عند كلامنا على مدى وفاء هذا القاضى لذكرى ولى نعمته الصاحب ابن عباد ، ونذكر بغيته فيما يأتى :

(١) تقوى الله :

« أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات المردية ، الداعية من استشعرها لباساً ، وجعلها قاعدة وأساساً الىأجـدى الأقوال ، وأزكى الأفعـال ، وأرضى الأحوال ، الكاسية من اطرحها وراء ظهره ، وصرفها عن سبيله وأمره خسران الصفقة ديناً ودنيا ، وانحلال الربقة أولى وأخرى ، لا تقبل منه حسناته ، ولا تكفر عنه سيئاته ، يوم تسودّ وجوه المجرمين ، وتبيضّ وجوه المؤمنين « وينجى الله الذين اتقـوا بمفازتهم لايمسـّهم السّوء ولاهم يحزنون » .

(٢) كتاب الله :

« وأمره بأن يجعل مصباحه فى ظلم الأمور ، واستنجاحه فى الحكم بين الجمهور ، كتاب الله الذى أنزله ، وبيّنه وفصّله ،

وأودعه ماقدم وما حدث ، ونصبه حجّة على من ورث وورث ، لاتنزف بحاره ، ولا تبلغ أغواره ، ولاتكسف أضواؤه ، ولا تخلف أنواؤه [1] ، ولا تلتبس مذاهبه ، ولا تنقضى عجائبه ، قاطعة أحكامه ، ساطعة أعلامه ، كاف الزامه ، اليه يرجع كل ذاهب ، وبه يقمع كل ناكب ، ليس عن محجته معدل ، ولا يستبدل . بحجته مستبدل « تنزيل من حكيم حميد » .

(٣) سنة رسول الله :

« وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — تالية كتاب الله فى الاقتداء ، وجارية مجراه فى الاقتفاء ، اذكانت العروة التى لاتنفصم ، والعمدة التى لا تنثلم ، والصراط الذى لا يميل ، والبرهان الذى لا يستحيل ، قد رتبها الله بيانا لما أشكل ، ولسانا لما أعضل ، وعيانا لمن غاب ، وايقانا لمن ارتاب ، فالمتمسك بها ناج يوم الخيفة ، راج للدرجات المنيفة ، والمخلّ بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه ، ومن يرد الله به خيراً يهيىء له من أمره رشداً .

(٤) اجماع المسلمين :

« وأمره بأن يتلقى الاجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خصّ الله بفضيلته أمتنا دون الأمم

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق ، يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوما . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها ، وقيل الى الطالع منها ، لأنه فى سلطانه .

الماضية ، وشرفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف فى دين الله ممهود ، لاتضطرب أسبابه ، ولا يهتك حجابه ، ولا تعمل الآراء مع وجوده ، ولا تسوغ العبرة[1] بعد معقوده « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

(٥) القياس والاجتهاد :

« وأمره اذا عرض له مالم يفصح به الكتاب نصا واسماعا ، وان لم يفرط فيه تضمينا وايداعا ، ولم تأت به السّنة كشفاً وتنويها ، وان اشتملت عليه فحوى وتنبيها ، ولم يسبق فيه اتفاق، ولا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظرا يفعمه ، ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه ، فإن الله اذا علم أن الحق بغيته ، والصلاح نيته ، أدى به الى ما يريد ، ووفقه فلا يضل ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهيّأ له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يبهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه[2] .

« وأمره بأن يكون اختياره اذا اختار ، وايثاره اذا اعتمد الايثار ، من أقوال السّلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يعرج بالمذاهب الشاذة ، ولا يتقبلها، ولا يترخص فى الأقوال الشاردة ، ولا يتحملها ، ويصدر أحكامه

---

(١) العبرة : الاعتبار ، وفى مصطلح الفقهاء القياس .

(٢) يشير هنا الى الآية الكريمة « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

عن قول شهيد وبيان مستنير ، واستبصار واضح المنهاج ، واعتبار متلألىء السراج « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

(٦) الشورى :

« وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ، وللاسلام حلية . فانه وان كان موصوفا بالاستقلال ، فما أحد خلق للكمال . وقد جعل الله فى وفور العدة مزية لم يجعلها للوحدة ، وعرف فى الاستمداد والاستكثار فضيلة لم يوجدها فى الاستبداد والاستئثار . ثم له الامضاء اذا استشار ، والقضاء اذا تخير واستخار ، فقد أفصح منطوق الذكر بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » .

(٧) أخلاق القاضى ومسئوليته :

« وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب عادته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم ، فانه أحمد ما اعتاد ، والصبر ، فانه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى فى حال قلق أو غلق[1] ، أو غيظ أو حنق [2] ، أو ضجر أو ملال ، أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدّ خصاصته[3] ،

---

(١) الغلق : الاشكال،يقال كلام غلق ــ بكسر اللام ــ أى مشكل.
(٢) الحنق : الغيظ .
(٣) الخصاصة : الفقر .

وقضى عــامة أربه وخاصته ، واستظهر بملك نفسه واربه [1] ، وعرك المساخط والمغايظ بجنبه، ليؤدى فرض الله فى عظيم ماتطوقه من الفروج والدّماء ، ويحتذى أمر الله فى جسيم ما اعتنقه من حقوق الدهماء[2] . فان الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويحشر العباد عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »

(٨) العدل بين الخصـــوم :

« وأمره بأن يعدل بين الخصوم فى مجالس قضائه ، ويعمهم بحسن استماعه واصغائه ، ولا يعجل بمن قد غشيته هيبة الحكم فيحصر [3] ويحرج ، ولا من ملكته روعة الخصـم فيحسر [4] ويتلجلج ، ولا يقسم لواحد منهما فى لفظه اذا لفظ ، ولحظه اذا لحظ ، الا مثل الذى يقسمه لصاحبه ، ويوجبه لمنازعه ومجاذبه ، لئلا يطمع قوىّ فى انظـلام ضعيف ، أو يجــزع مشروف من اهتضام شريف [5] . فالحق أكبر من كل ذى محل وثروة ، والدين

---

(١) الارب ــ بكسر فسكون ــ هنا العقل .

(٢) الدهماء عامة الناس .

(٣) الحصر : العى والعجز عن الكلام .

(٤) يحسر : يعجز .

(٥) مأخوذ من رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى فى القضاء من قوله « آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك » .

أعظم من كل ذى منزلة وحظوة . ولله على كل قاض فيما يخفيه فيبطنه ، أو يبديه فيعلنه ، رقيب لا تلحقه غفلة ، وحسيب لاتفوته خصلة « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » .

(٩) اختيـــار الأعوان :

« وأمره أن يتخير كفاته وخلفاءه ، وكتابه وأمناءه ، فمن نصح وعفّ وصلح وكفّ أقره ، وفسح له ممره ، ومن صدف عن التورع والظلف [١] ، وانحرف الى الجشع والنطف [٢] قدّم عزله، وحسم عن المسلمين كَلّه[٣] ، فالمرء مسئول عن بطانته ، كما هو مسئول عن أمانته «يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون».

(١٠) الفحص عن الشهود :

« وأمره بأن يتصفح الشهود تصفح من عدالة المسلمين آثر اليه من الجرح ، وسلامتهم فى الدين أوقع لديه من القــدح ، فالمسلمون بظواهرهم عدول ، الا من ثبت منه فسوق أو غلول[٤]، وأن يخبر أحوالهم بعد ألا يقبل ظنينا[٥] ولا عبدا ، ولا من أقام عليه القذف حدا ، ويستشفهم فيما يصدرون ويوردون ، ويتحملون ويؤدون ، لئلا يقدم أحدهم فى شهادته على لبس ، أو يهجم به

(١) الظلف : الخشونة ، والمراد : الزهد .
(٢) النطف : الشر والفساد والعيب .
(٣) الكل - بالفتح - المصيبة .
(٤) الغلول : الخيانة .
(٥) الظنين : المتهم .

ضعف درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يؤتى من سوء السريرة ، وانما يؤتون من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فضل من فضله علمه ، وقدم من قدمه فهمه « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

(١١) أموال اليتـــامى :

« وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشـــديد ، فلا يعوّل فى حفظه الا على الأمين السديد ، ويوكل به عينا من ملاحظته ، ويدا من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ، ولينفق منه عليه انفاقا وسطا فى التقدير بين التبذير والتقتير ، الى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله فى يديه ، ويشهد به عليه ، « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيـــا فليستعفف ، ومن كان فقـــيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » .

(١٢) المواريث :

« وأمره بأن يضع المواريث اذا دفعت اليه مواضـــعها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها الى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمّى وأسهم ، وأبقى بعـــد ما قسم ، وأن يجرى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور

الأئمة من ايجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن فى ذلك الا حراسة التراث عن معارضة عمال المعاون[1] والأحداث لوجب تغليب من هذه فتياه ، والحق فيها غرضه ومرماه . فكيف وقد تلى فى نص كلام الله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

(١٣) الرجوع الى الحق :

« وأمره ألا ينسخ حكم القضاة قبله اذا كان مما يسوغ الرأى مثله ، فلو نقض الاجتهاد بالاجتهاد لما استقرت أحكام قضاة البلاد . وان هو وجد من ذلك ما خالف اجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة أتى فيه ما يلزمه تلافيه ، فالباطل أولى بأن يدفع ، والحق أحق أن يتبع

(١٤) تزويج الأيامى :

« وأمره بتزويج الأيامى[2] اللاتى ولايتهن اليه ، وعقدتهن بيديه ، متخيرا الأكفاء ، وطالبا فى الصدقات[3] الوفاء ، عالما بأن تقديم ذلك أدعى الى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب الى العدل ، وأبعد من العضل [4] ، وقد قال الحكيم الرحيم فى

---

(١) المعاون : الشرطة .

(٢) الأيامى : الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهما (أيم) سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج . وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا .

(٣) الصدقات ، جمع صدقة ــ بفتح فضم ــ والصداق ــ بفتح الصاد وكسرها ــ مهر المرأة .

(٤) العضل : المنع من التزويج .

القرآن المبين « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم».

(١٥) رعاية الأوقاف :

« وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ، ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضياع ، أو تفوت حقوقها باقتطاع ، ولتجرى أقسامها على ذللها ، وتصرف فى وجوهها وسبلها ، وتحمى عن مكائد من يسعى فى نقضها برأى من آراء المجتهدين ، ويتأنى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين « فمن بدّله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه » .

(١٦) انظار المعسرين :

« وأمره اذا ثبت عنده الاعسار أن ينظر ويمهل ، ويؤخر ويؤجل ، فان الله فرق بين ذى المتربة[1] والمقدرة ، فقال « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » .

(١٧) ضرب السكك (العملة) :

« وأمره بأن ينصب لحفظ السكك فى دور الضرب أمناء يحرسون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يطبع على الامام [2] المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد

---

(١) المتربة : المسكنة والفاقة ، ومسكين ذو متربة أى لاصق بالتراب .

(٢) المقصود بالامام المعلوم النموذج الذى يضرب النقود على مثاله .

دغلا[1] أن يوقع خللا ، فتجرى المعاملات على السداد ، وتحفظ النقود عن الفساد ، « والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

(١٨) درء الحدود بالشبهات :

« وأمره اذا رفع اليه ما يوجب حدا أو قطعا أو قتلا أو جلدا أن يأخذ بأبعد المذاهب من اباحة ظهر المسلم فانه الحمى ، واراقة دمه فانه الحرمة العظمى ، وابانة أعضائه فالأصل الحظـر ، ولا اطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يجـرد عند ذلك المسألة عن البينات ويأخذ بالسنة فى درء الحدود بالشبهات ، فان وضح له ما يوجب اقامة الحدّ أنهاه ونفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رأفة فى دين الله .

هذا عهدنا اليك ، وعهد الله به عليك لم نألك فيه تذكيرا ، وان كنت به بصيرا ، ولم ندخر عنك بيانا ، وان كنت تقتله علما وايقانا . فاستخر الله المقيت يلقك سددا ، ويؤتك ما بقيت رشدا ، اليه تفويضنا فيما نبدىء ونعيد ، وعليه تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

* * *

تلك صورة تخيرناها من العهود المستفيضة التى كتبها الصاحب، واذا صرفنا النظر عن صياغتها الفائقة وأسلوبها الممتاز ، فانا نجد فيها دقة واحكاما لما تضمنته من الأوامر والتوجيهات والأحكام التى تتصل بمصالح الرعية ، وتدل على معرفة الصاحب وفقهه ،

(١) الدغل ــ بفتحتين ــ الفساد مثل الدخل .

فقد ذكر فيها أصول التشريع ومصادر الأحكام ، وهى : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع المسلمين ، والاجتهاد والقياس فيما لا نص عليه من كتاب أو سنة أو اجماع على مثله مما له نص من الكتاب والسنة والاجماع . كما ذكر ضرورة الشورى فيما يحتاج اليها ، وحذر من الاستبداد واطاعة الهوى ، ونبه القاضى الى رياضة نفسه وتهذيبها ، والعدل بين الخصوم ، والعناية بتخير أعوانه وأمنائه ، والفحص عن الشهود والاستيثاق من عدالتهم ، ورعاية اليتامى واتباع أحكام المواريث، وعدم نقض الأحكام الا اذا ثبت خطؤها ، وتزويج الأيامى ، ورعاية الأوقاف ، والتخفيف على المعسرين ، ودرء الحدود بالشبهات . وكلها تتصل بأعمال القاضى وما ينظر فيه .

وهذا العهد كما رأينا طابعه الايجاز ، وان بدا طويلا فلكثرة ما عرض له من الواجبات ، كما رأينا استشهاده فى أكثر مسائله بآيات من كتاب الله يدعم بها أوامره ، ويؤيد بها نصيحته ، وما أجدر الأدباء بهذه الثقافة التى تعرفهم مناهج الحق ، وما أجدر من يتولون الفصل بين الناس بتدبر أمثال هذا العهد الفريد .

وانك لنقرأ كثيرا من أمثال هذا الأدب العالى والنمط الفريد فى مجموع رسائله التى كتبها فى أغراض مختلفة ، وكلها تشهد بالأصالة والقدرة على الابداع [1] .

* * *

(١) طبعت هذه الرسائل فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٤٧) وصححها وقدم لها المرحوم الدكتور =

وللصاحب غرر من فقر ألفاظ تجرى مجرى الأمثال ، منها ما أخرج الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد فى كتابه الذى سماه « ملح الخواطر ، وسيح الجواهر » ومنها مما أخرجه الثعالبى :

من استماح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب

من طالت يده بالمواهب امتدت اليه ألسنة المطالب

من كفر النعمة استوجب النقمة

من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام

من غرته أيام السلامة حدثته ألسن الندامة

ربّ لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال

الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما أودعه

الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذل ثم يورق

العلم بالتذاكر ، والجهل بالتناكر

الضمائر الصحاح أبلغ من الألسنة الفصاح

الآمال ممدودة ، والعوارى مردودة

= عبد الوهاب عزام والدكتور شوقى ضيف • وقد نسقت فى عشرين بابا يشتمل كل باب منها على عشر رسائل ، عدا الباب التاسع والعاشر والخامس عشر فان كل باب منها يشتمل على احدى عشرة رسالة ، والباب السابع عشر فانه يشتمل على أربع رسائل . وليست هذه الرسائل مع كثرتها وغزارتها كل ما كتب الصاحب. وفى يتيمة الثعالبى منها كثير .

متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية ألين ، ونابها أخشن .

بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة

قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر

ربما كان الاقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور

ربما كان الامساك عن الاطالة أوضح فى الابانة والدلالة

تلقى الاحسان بالجحود تعريض النعم للشرود

ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم مزن يسقاه

ان الأحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث

من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ، ومن استمرت به الغرة طال حزنه

* * *

وللصاحب من التوقيعات — وهى التعليقات الموجزة الحكيمة التى اشتهر بها بعض الخلفاء والوزراء والكتاب — التى كان يكتبها عفو الخاطر ، تعليقا على بعض ما كان يرفع اليه ما يشهد على علوّ كعبه فى البلاغة ، وبعضها كان يقتبسه من كتاب الله ، ومنها :

(١) كتب انسان رقعة ، وقد أغار فيها على رسائله ، وسرق جملة من ألفاظه ، فوقع الصاحب فيها « هذه بضاعتنا ردت الينا »!

(٢) ووقع فى رقعة استحسنها « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » ؟

(٣) ووقع فى رقعة أبى محمد الخازن ، وكان ذهب مغاضبا ،

كتب اليه يستأذنه فى معاودة حضرته « ألم نربك فينا وليـدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت » ؟

(٤) وكتب بعض العمال رقعة الى الصاحب فى التماس شغل ، وفى الرقعة « ان رأى مولانا أن يأمر باشغالى ببعض أشـغاله » فوقع الصاحب تحتها : « من كتب اشغالى لا يصلح لأشغالى » !

(٥) ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب فى ظلامة لهم مترجمة بالضرابين ، فوقع تحتها « فى حديد بارد » !

(٦) ووقع على رقعة لأبى الحسن الشقيقى البلخى : « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر »!

(٧) ورفع اليه بعض منهى الأخبار أن رجلا ممن ينطوى له على غير الجميل يدخل داره فى الناس ، ثم يتلوم على استراق السمع ، فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان » !
غير الجميل يدخل داره فى الناس ، ثم يتلوم على استراق السمع ، فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان » !

(٨) وكان مكىّ المنشد قد اتناب الصاحب بجرجان ، وكان قديم الخدمة له ، فأساء أدبه غير مرة ، فأمر الصاحب بحبسه ، فحبس فى دار الضرب ، وهى بجواره بجرجان ، فاتفق أنه صعد يوما سطح داره لحاجة فى نفسه وأشرف على دار الضرب ، فلما رآه مكىّ نادى بأعلى صوته « فاطلع فرآه فى سواء الجحيم » فضحك الصاحب وقال « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ! ثم أمر

باطلاقه . وهذا الخبر وان لم يكن من التوقيعات المكتوبة الا أن له ما للتوقيع المكتوب من حضور الذهن وسرعة الجواب !

ما عد من سرقاته :

وقد كانت الثقافة الأدبية الواسعة التى حصلها الصاحب ، وأفادها من أساتذته وجلسائه وقراءاته ، ذات أثر واضح فى أسلوبه الكتابى الذى يبدو فيه تأثره بالمعانى والأفكار التى علقت بذهنه مما قرأ وحفظ من كتاب الله تعالى ، ومن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلام فصحاء العرب وشعرائهم على مر العصور ؛ ولم تكن هذه الافادة معدودة من عيوب الكاتب أو من عيوب كتابته؛بل كان بعضهم يرى أن هذه الافادة ضرورية لتدل على مبلغ حفظه واطلاعه على عيون الأدب وفنون القول ، وهى ثقافة لازمة للأديب بعامة ، ولأولئك الأدباء الكتاب المكثرين بخاصة ، حتى عقد ضياء الدين بن الأثير فصلا فى «الطريق الى تعلم الكتابة» وقال انه وجد الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه أدنى الطبقات .

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، اما فى تحسين ألفاظ ، أو فى تحسين معان ، وهذه هى الطبقة الوسطى ، وهى أعلى من التى قبلها .

الثالثة : ألا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شىء فيها،

بل يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الاجادة فى المعانى والألفاظ . ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة، أعنى القرآن ، والأخبار النبوية ، والأشعار. فيقوم ويقع ، ويخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريقة أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد اماما فى فن الكتابة ، كما يعد الشافعى وأبو حنيفة ومالك — رضى الله عنهم — وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه ، الا أنها مستوعرة جدا ، ولا يستطيعها الا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما ، وخاطرا رقاما .

ثم قال ابن الأثير : وقد سهلت لك صعابها ، وذلك محاجها ، وكنت أشح باظهار ذلك لما عاينت فى نيله من العناء ، فانى سلكت اليه كل طريق حتى بلغته آخرا ، وانما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ، ومشقة وصولها .. ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، اذ لم يظفر غيرى بأحجارها ، فما وجدت أعون الأشياء عليها الا حل آيات القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية.. ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر ، بحيث أنه لا ينشىء كتابا الا من ذلك ، بل أريد أنه اذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن

ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش عن دفائنه ، وقلبه ظهراً لبطن ، عرف من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية [1] ..

والسبب فى ذلك ما قدمنا من حاجة الكتاب المكثرين الذين يكتبون الرسائل الطوال فى كل يوم فى شئون مختلفة ، ولا يقتصرون على ما يؤدى الغرض المقصود فى كلمات موجزة ، وعبارات قصيرة ، تقتصر على الخبر أو تقف عند حدود الأوامر والنواهى ، والا تساوت الرسائل ، وتعادل الكتاب ، ولم يظهر بينهم من الفروق ما يمكن أن يقال معه : هذا فاضل وذاك مفضول، أو هذا أفضل ، بل ان الصناعة وما تقتضى من التأنق هى التى تميز كاتبا من كاتب ، فكان فى هذا التحصيل مدد كبير ، وعون أى عون على بلوغ ما كانوا يتطلعون اليه من الاجادة والتمييز ..

وقد أورد أبو منصور الثعالبى بعض الأمثلة من حل الصاحب ابن عباد أبياتا لأبى الطيب المتنبى ، وأدخلها فى كلامه ، بعد أن قال : « واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ، ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا اياها ، وتمثلا بها فى محاضراته ومكاتباته ، وكان مثله معه كما قال الشاعر :

شتمت من يشتمنى مغالطا لأصرف العاذل عن لجاجته

فقال : لما وقع البزاز فى الثـ ـوب علمنا أنه من حاجته

---

(١) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١/١٢٩ .

وكما قال الآخر :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   ولم أر كالدنيا تذم وتحلب

وكما قال الآخر :

نبئت أنى اذا ما غبت تشتمنى   قل ما بدالك فالمحبوب مسبوب

ومما مثل به الثعالبى من حلّ الصاحب نظم المتنبى .

(١) قول الصاحب فى فصل له من رسالة فى وصف قلعة افتتحها عضد الدولة « وأما قلعة ... فقد كانت بقية الدهر المديد والأمد البعيد تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامح على الخطبة ، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع ، وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله للدنيا ابن بَجْدَتِها[١] ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون[٢] ما بين البحور والأنهار ، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق ومجرّ العوالى[٣] ، ومجرى السوابق » .. وانما ألم فيه بألفاظ بيتين لأبى الطيب ، أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها   فشكا اليه السهل والجبل

(١) بجدة الشىء : أصله وباطنه ، وابن بجدتها : يقال للعالم بالشى ، وللدليل الهادى .

(٢) البون : الفضل والمزية .

(٣) العوالى : الرماح ، جمع عالية وهى فى الأصل أعلى القناة أو رأسه أو النصف الذى يلى السنان .

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق ... مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

(٢) قول الصاحب فى فصل له : « لئن كان الفتح جليل الخطر ، عظيم الأثر ، فان سعادة مولانا لتبشر بشوافع له ، يعلم منها أن لله أسرارا فى علاه لا يزال يبديها ، ويصل أوائلها بتواليها »
وهو من قول أبى الطيب :

ولله سرّ فى علاك وانما ... كلام العدا ضرب من الهذيان

(٣) وقول الصاحب : « ولو كان ما أحسنه شظية فى قلم كاتب لما غيّر خطه ، أو قذى فى عين نائم لما انتبه جفنه » . وهو من قول أبى الطيب :

ولو قلم ألقيت فى شق رأسه
من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقول نصر :

ضنيت حتى صرت لوزج بى ... فى ناظر النائم لم ينتبه

ومنه أخذ ابن العميد قوله :

فلو ان ما أبقيت فى جسدى قذى
فى العين لم يمنع من الاغفاء

(٤) وقول الصاحب فى فصل من كتاب فى التعزية « اذا كان الشيخ القدوة فى العلم وما يقتضيه ، والأسوة فى الدين وما يجب فيه ، لزم أن يتأدب فى حالات الصبر والشكر بأدبه ، ويؤخذ فى تارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته عند حادث رزيته ،

الا اذا روينا له بعض ما أخذناه عنه ، وأعدنا اليــه طائفة مما استفدناه منه ؟ » وانما هو حلّ من قول أبى الطيب :

أنت يا فوق أن يعزّى عن الأحـ
باب فوق الذى يعزّيك عقــلا
وبألفــاظك اهتــدى فاذا عــزا
ك قــال الذى قلت قبــــلا

(٥) ومن فصل للصاحب « وقد أثنى عليه ثناء لسان الزهر على راحة المطر » .. وهو من قول أبى الطيب :

وذكىّ رائحــة الرياض كلامها
تبغى الثناء على الحيا فيفوح[1]

والأصل فيه قول ابن الرومى :

شكرتْ نعمة الولىّ على الوسـ
مىّ ثم العهاد بعــد العهــاد[2]
فهى تثنى عــلى الســماء ثنــاء
طيب النشر شــائعا فى البــلاد
من نســـيم كأن مسراه فى الأر
واح مسرى الأرواح فى الأجساد

(٦) ومما أورده الصاحب من أبيات أبى الطيب كما هى قوله

---

(١) الحيا المطر . شبه رائحة أزهار الرياض بالكلام ، ثم بين أن الرياض أرادت أن تتحدث عن صنائع المطر ، فأرسلت عبير أزهارها تحدث عنــه .

(٢) الولى المطر بعــد مطر ، والوسمى مطر الربيع ، والعهاد ـ بكسر العين ـ أول المطر ، وفاعل شكرت ضمير يعود الى الرياض .

فى كتاب أجاب به ابن العميد عن كتابه الصادر اليه عن شاطىء البحر فى وصف مراكبه وعجائبه « وقد علمت أن سيدنا كتب وما أخطر بفكره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلالا يفضل عن التبرّض[1] ، وثمرا لا يكثر عن الترشف[2] :

وكم من جبال جبت تشهد أننى الـ
جبال وبحر شاهد أننى البحر[3]

(٧) وللصاحب من رسالة فى التهنئة ببنت أولها : « أهلا بعقيلة النساء ، وكريمة الآباء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ... ثم يقول فيها :

ولو كان النساء كمثل هذى
لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وهما لأبى الطيب من قصيدة فى مرثية والدة سيف الدولة ، الا أنه يقول : * ولو كان النساء كمن فقدنا * .

(٨) وللصاحب من كتاب تعزية : « وقلنا قد أخذنا الزمان من أخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد أسلم

---

(١) الوشل ـ بفتح الواو والشين ـ القليل من الماء ، والتبرض الاكتفاء والتبليغ بالقليل ، لا يفضل عنه ولا يزيد على قدره .

(٢) الثمد ـ بفتحتين ـ الماء القليل ، والترشف أخذ الماء جرعة بعد جرعة .

(٣) جبت : قطعت ، جاب الأرض : قطعها .

الشمس للطفل [1] ، ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع الكسوف الى الخسوف ، فأبى حكم الملوين[2] وقد غبنك اذ قاسمك الأخوين ، الا أن يعود فيلحق الباقي بالفانى ، والغابر بالماضي :

وعـاد فى طلب المـتروك تاركه
انا لنفعـــل والأيام فى الطلب
ما كان أقصر وقتـا كان بينهما
كأنه الوقت بين الورد والقـرب

أقول : هذا كعادة المصدور فى النفث ، وشكوى الحـزن والبث ، والا فما يعجب السفر من تقدم بعض وكلّ بين الراحلة والرحل ، لا يترك الموت ساعيا على وجه الأرض ، حتى ينقله الى بطن الترب :

نحن بنو الموتى فما بالنـا ... نعـاف ما لابد من شربه
تبخـل أيدينـا بأرواحنـا ... على زمـان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جـوه ... وهـذه الأجسام من تربه

قال الثعالبى : وهذا غيض من فيض ما اغترفه الصاحب من بحر المتنبى ، وتمثل به من شعره .. ثم اعتذر عن الصاحب بأن ذلك شأن الأدباء الكتاب « وليس هو بأوحد فى الاقتباس من كلامه ، هذا أبو اسحاق الصابى رسيله فى ذلك وزميله [3] ..

* * *

(١) الطفل ـ بفتحتين ـ الوقت عند غروب الشمس .
(٢) الملوان : الليل والنهار ، الواحد ملا .
(٣) يتيمة الدهر ١/١٢٦ .

واذا تدبرنا هذه المآخذ ألفيناها نوعين :

أولهما : الأبيات الشعرية التى وشى بها الصاحب كتبه ورسائله ، وقد نقلها نقلا أمينا . لم يحور فيها شيئا ، الا فى قوله « ولو كان النساء كمثل هذى » بديلا من قول المتنبى « ولو كان النساء كمن فقدنا » وذلك لاختلاف الغرض ، فان قصيدة أبى الطيب فى الرثاء ، ورسالة أبى القاسم فى التهنئة بالولادة ، ولا عيب فيما فعل الصاحب فى هذا الاقتباس ، فتلك سنة مطروقة سلكها الأدباء ، وان أخذ على الصاحب أنه لم يشر الى صاحب الأبيات فليس هذا عيبا ، ولا يعد من السرقة فى شىء لأن تلك الأبيات التى نقلها مشهورة متداولة ، يعرفها الناس ويعرفون صاحبها الذى ملأ شعره الأرض ودوى فى سائر البقاع ، ومنها البقاع التى كان يعيش فيها الصاحب ، والتى انتجعها المتنبى وزارها ، وشاع فيها شعره ، وذاع له ذكره ، واشتعلت نار المعارك الحامية بينه وبين حساده ، أو بين حساده وأنصاره

والنوع الآخر : الأبيات الشعرية التى حلها ثم سبكها فى كلامه المنثور ، وفى بعض ما ذكر شىء من الصواب لاتحاد المعنى أو قربه فى الشعر والكلام المنثور ، وقد قدمنا أثر الثقافة والاطلاع والتحصيل فى ذلك ، وهذا عند بعض النقاد معدود من محاسن الكتابة ، وضرورة من ضروراتها ، ولا يعاب المستفيد الا اذا نقل المعنى بألفاظه ، وهذا أدنى درجات الأخذ مرتبة ، قال ابن الأثير ان هذا — أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة — عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عقدا قد أتقن نظمه

وأحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده ، وكان يقوم عذره فى ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا الى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضا فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة ، فيقال هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء[1] ..

ولم يظهر فيما كتب الصاحب أنه نقل نقلا حرفيا ، وانما كل ما فعله — على فرض التسليم المطلق بذلك — أنه أخذ بعض المعانى فأعاد تأليفها وصياغتها ، وزاد عليها ، وهذا أعلى الأقسام فى نظر ضياء الدين[2] وغيره ، وهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، وثم يتبين حذق الصائغ فى صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه فى صناعته ، فان استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول . وقال أبو هلال « من أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب » وقال : « وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعانى بينهم ، فليس على أحد فيه عيب الا اذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأفسده ، وقصر فيه عمن تقدمه .

فهل كان ذلك ما فعله الصاحب ؟ ، أو ما كان يفعله فى جل كتاباته ؟ ليس ذلك صحيحا وانما هى نتف من متخير المعانى أوردها بعبارته الممتازة ، وبين معانيه الرائعة . وقد قيل للعتابى : بم قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام : وقال بعضهم :

---

(١) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١/١٢٩ .
(٢) المصدر السابق ١/١٣٢ .

الكتابة نقض الشعر .. وعند أبى هلال أن الحاذق هو الذى يخفى دبيبه الى المعنى يأخذه فى سترة ، فيحكم له بالسبق اليه أكثر من يمر به ، وأحد أسباب اخفاء السرق أن يأخذ المعنى من النظم فيورده فى النثر ، أو من النثر فيورده فى النظم ، أو ينقل المعنى المستعمل فى غرض الى غرض آخر ، الا أن هذا لا يكمل الا للمبرّز ، والكامل المقدم[1] ..

وقد كان الصاحب مقدما مبرزا،صناعا فى كتابته وشعره،حتى ليخفى على كثير أثر هذه الافادة .. ويبقى الفضل لصاحب المعنى الأصلى الذى ابتكره ، وعرف له من دون الناس .

الصاحبُ الشاعرُ

أما فن الشعر فان الصاحب يسمو بالمأثور منه الى درجة عالية يطاول فيها الفحول ، ولو كان الصاحب قد خلى بينه وبين هذا الفن لارتقى الى أسمى الدرجات فيه ، ولفاق الفحول المشهود لهم على مرّ العصور ، ولكانت منزلته فى فن المنظوم فوق منزلته فى فن المنثور .

ولكن أعمال الصاحب فى تصريف شئون الدولة ، وفى مجالسه التى كانت تزدان بالعلماء والشعراء وأسفاره التى يقوم بها وحده أو يصحب فيها مليكه لتفقد أحوال البلاد ، كانت تستنفد منه

---

(١) كتاب الصناعتين ١٩٧ ، ١٩٨ .

كثيرا من الوقت والجهد ، وما أحوج الشاعر الى سعة فى الزمان ، وفراغ فى البال ، يسعفه هذا أو ذاك على الاطالة والافتنان والاتقان وكان الصاحب بطبعه شاعرا ، ونقرأ معالم الشاعرية واضحة فيما حفظ من شعره ، وفيما روت الأخبار من قدرته على ارتجـال الشعر الجيد المطبوع ، وقد كان على حظ عظيم من المعرفة بروائع الفن الشعرى ، التى كان يحفظ الكثير منها ، وكانت له دراية عميقة بأسباب جودته .

* * *

وقد فضل أبو منصور الثعالبى شعراء عرب الشام على شعراء سائر البلدان فى قوله أن شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والاسـلام ، ويرجع السبب فى تبريزهم قديما وحديثا على من سـواهم فى الشعر الى قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق ، لمجاورة الفرس والنبط ، ومداخلتهم اياهم ، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة.. وبعد هذا التفضيل لشعراء الشام يذكر الثعالبى أن جماعة من أصحاب أبى القاسم اسماعيل بن عبـاد أخبروه أنه كان يعجب بطريقتهم المثلى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعـذوبة والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملى الطارئين عليه من تلك البـلاد ما يحفظـونه من تلك

البدائع واللطائف ، حتى كسَّر دفترا[1] ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ، ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، حتى صار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفى سن قلمه ، فطورا يحاضر به فى مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحلّه أو يورده كما هو فى رسائله[2] ..

ووصفه أبو حيان التوحيدى — مع عداوته له وحقده عليه — بأنه كان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان .. وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ... وفى بديهته غزارة [3] ..

ويروى أبو حيان فى أخباره من الأعاجيب ما يحير العقول فى حضور جوابه ، وغزارة بديهته . وان كان يعرض ما يعرض فى صورة الحقد المسموم ، والغضب المحموم ، وذلك بأن يزعم أن كثيرا من الشعر الذى فاضت به قرائح الشعراء فى مديح الصاحب هو من تأليف الصاحب نفسه ، وأنه ينحلهم اياه ، ويدعوهم الى انشاده بين يديه بين حشد من الأدباء والشعراء الذين ينتجعون بابه ، ليلقوا بين يديه ما قصدوه به طمعا فى وافر العطاء ، ثم يحرج أولئك الشعراء بتفضيل الشعر الذى صاغه بنفسه وألّفه بصناعته على سائر ما سمع منهم ، ثم يخص بعطائه الذين ينشدون كلامه ، كلام الصاحب !

---

(١) كسرت الكتاب على عدة أبواب ـ بتشديد السين ـ اذا كنت قد جعلته فى عدة أبواب .

(٢) يتيمة الدهر ١/١٣ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ١/٥٤ .

ومن ذلك ما ادعاه أبو حيان فى قوله : ان الصاحب كان يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعرا ، ويدفعه الى أبى عيسى المنجم ، ويقول له : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك [١] ، قد شاخ على الخدائع وتحنّك — وينشد ، فيقول له عند سماعه شعره فى نفسه ، ووصفه بلسانه : زِه يا أبا عيسى والله ! قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى .. مجالسنا تخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن[٢] عتيقا ، والمحمّر [٣] جوادا ..

ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية ، وعطية هنية ، ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضا ..

ونقف هنا لنسأل أبا حيان : أكنت معهما حين دبّرا هذه الحيلة ؟ أم باح لك الصاحب بهذا السر الدفين ليفضح نفسه ؟ أم أسرة اليك أبو عيسى المنجم ليذيع سرّ صفيّه وأثيره ؟ واذا كان الافتراض وادعاء الامكان لا ينفى شيئا من هذا ، فاننا لنقف مرة أخرى عند قول أبى حيان ان أبا عيسى « لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضا .. » !

---

(١) المحكك : المجرب المدرب .

(٢) الكودن : الفرس الهجين ، والعتيق عكسه .

(٣) المحمر : الفرس الهجين .

لقد أراد أبو حيان أن يظلم الصاحب،فظلم صاحبه أبا عيسى المنجم ، وبنو المنجم معروفون بالأدب والشعر والعلم ، وقد عقد الثعالبى فصلا فى يتيمته عن بنى المنجم قال فيه « قد تقدم ذكر بعضهم فى أهل العراق ، وهذا مكان من يحضرنى شعره منهم » ووصفهم بأنهم ما منهم الا أغر نجيب ، ولهم وراثة قديمة فى منادمة الملوك والرؤساء ، واختصاص شديد بالصاحب ، وفيهم يقول :

لبنى المنجم فطنة لهبيّه ومحاسن عجمية عربية
ما زلت أمدحهم وأنشر فضلهم حتى اتهمت بشدة العصبيه

وروى الثعالبى لأبى عيسى المنجم :

آخ من شئت ثم رم منه شيئا
تلف من دون ما تروم الثريا

قال : وسمعت أبا الفتح على بن محمد البستى يقول : أنشدت لأبى عيسى :

رغيف أبى على حل خوفا من الأسنان ميدان السماك
اذا كسروا رغيف أبى على بكى يبكى بكاءً فهو باك

ولأبى عيسى[1] :

لوم النديم منغص طيب المجالس والندام
وسماحة الحر الكريـ ـم تزيد فى طيب المدام
فاذا شربت الراح فاشـ ـربها مع النفر الكرام
وتنكبن ما استطعت أخـ ـلاق اللئام بنى اللئام

ومن الطرائف التى تذكر لأبى عيسى بن المنجم أنه نفق له

(1) يتيمة الدهر ٣/٣٩٠ .

برذون كان أصدأ [١] قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له :
فقال أبو عيسى فى ذلك قصيدة طويلة مطلعها :

لقد عظمت منى المصيبة فى الأصدا
وأبدت لى اللذات من بعده صدا
وأهدى الى قلبى المصاب بفقده
من الحزن ما لو نال يذبل لانهدا

وأوعز الصاحب الى ندمائه أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصدأه فقال كل منهم قصيدة فريدة ، منهم أبو القاسم الزعفرانى ، وأبو الحسن بن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو القاسم بن أبى العلاء، وأبو الحسن السلامى ، وأبو محمد الخازن ، وأبو سعيد الرستمى، وأبو دلف الخزرجى ، وأبو العباس الضبى ، وأبو محمد محمود .. وكلها قصائد تتنافس فى الجودة والعذوبة [٢] ..

ولم يكن أبو عيسى — أحمد بن على بن يحيى — أديبا شاعرا فحسب ، بل كان عالما مؤرخا ، ذكر النديم [٣] أن له من الكتب كتاب « تاريخ سنى العالم » . ووصفه ياقوت [٤] بأنه كان نبيلا فاضلا ..

وفى هذة الاشارات ما يلقى بعض الضوء على أبى حيان، ومدى

---

(١) الصدأة ــ بضم فسكون ــ شقرة الى السواد ، يقال صدىء الفرس فهو أصدأ .

(٢) راجع اليتيمة ٢١٤ ــ ٢٢٩ من الجزء الثالث .

(٣) الفهرست ٢٠٧ .

(٤) معجم الأدباء ٣/٢٤٤ .

الثقة فى أخباره ، وما يؤكد أنه لم يخدم الحقيقة فيها بقدر ما أطاع شهوته فى النيل من الصاحب ومن صحابته .

* * *

ومن تلك الطرائف التى ساقها أبو حيان، وتتصل بهذا السياق ما ذكره من أن الصاحب قال يوما : من فى الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتب وابن ثابت ، فعمل فى الحال بيتين ، وقال لانسان بين يديه : اذا أذنت لهذين الرجلين فادخل بعدهما بساعة ، وقل ، « قد قلت بيتين ، فان رسمت لى انشادهما أنشدت » وازعم أنك بدهت بهما ، ولا تجزع من تأففى بك ، ولا تفزع من نكرى عليك !!

ثم دفع البيتين اليه ، وأمره بالخروج الى الصحن ، وأذن للرجلين حتى وصلا ، فلما جلسا وأنسا دخل الآخر على تفيئتهما[1]، ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمظ يرى أنه يقرض شعرا ، ثم قال : « يا مولانا ، قد حضرنى بيتان ، فان أنت أذنت لى أنشدت » !

قال الصاحب : « أنت انسان أخرق سخيف ، لا تقول شيئا فيه خير ، اكفنى أمرك وشعرك » !

قال : « يامولانا ، هى بديهتى ، فان نكرتنى ظلمتنى ، وعلى كل حال فاسمع ، فان كانا بارعين ، والا فعاملنى بما تحبّ » !

قال : « أنت لجوج ! هات » فأنشد :

يأيها الصاحب تاج العلا لا تجعلنى نهزة الشامت

(١) أى دخل على أثرهما .

بملحـــد يكنى أبا قاســـم ومجبر [1] يعزى الى ثابت

قال : قاتلك الله ! لقد أحسنت وأنت مسىء !!

ثم يذكر أبو حيان أن أبا القاسم قال له : كدت أتفقأ غيظا ، لأنى علمت أنه من فعلاته المعروفة . وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتا ، ثم حدثنى الخادم الحديث بنصه [2] ..

وهذه كما ترى صوة رائعة لخيال بارع رسمها أبو حيان لبعض ماكان يصنع الصاحب فى زعمه ، وان كان صادقا فهى شهادة بقوة الصاحب ، وسرعة خاطره ، وحضور بديهته ، وغزارة أدبه .

* * *

والتأمل فيما أثر للصاحب فى فن الشعر يهدى الى أن السمة المميزة له والغالبة عليه هى سمة الترف ، وترى هذه السمة واضحة فى الفنون والموضوعات التى عالجها ، كما تراها فى الأخيلة والمعانى التى صورها ، وفى الألفاظ التى تخيرها والتراكيب التى ألفها .

ويتجلى كل ذلك فى وصف متع الحياة ومباهج النفس التى كانت تنعم بها تلك الطبقة من حكام ذلك الزمان الذين كـانوا يسكنون شامخ القصور ، ويتمتعون بالمناظر الفـاتنة ، والمجالس العامرة بأسباب الأنس والطرب ، ويملكون أسبـاب الترغيب والترهيب ويقدرون على الابعاد والتقريب ، والوصل والجفاء .

فشعر الصاحب فى جملته يمثل فى فنونه ومعانيه شعر الكبراء

---

(١) المجبـــر - بفتح الباء المنســـوب الى مذهب الجبرية ، وهم فرقة يقولون ليس للعبد قـدرة ، وان الحركات الارادية بمثابة الرعدة والرعشـــة .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/٥٧ .

أو شعر الكبرياء ، الذى قد يسمى شعر الخاصة ، ولكنها ليست خاصة الفن التى كثيرا ما تكون فى متناول الطبقات المتفاوتة فى المجتمع ، وانما هى خاصة الحياة ، وخاصة المنصب والجاه .

واذا ما حاولنا أن نلتمس للصاحب شبيها فى فنه ، فاننا نجد هذا الشبيه فى عبد الله بن المعتز الذى صاح ابن الرومى فى وجه من أنشده بعض شعره « ويحك ! انما يصف هذا ما عون بيته » !

ولو خلي بين الصاحب وبين شاعريته حتى تصل الى مداها ، وتستوفى غايتها ، وتبوح بمكنونها لكان الى الشريف الرضى أقرب ، ولكان فنه بفن الشريف أشبه . ولكن الوقت والفراغ كانا فى يد الشريف بقدر ما كان الصاحب فى يد الدولة وفى حوزة المنصب .

كانت جل الأغراض التى عالجها الصاحب فى شعره تدور حول تلك الحياة الخصبة التى كان يحياها ، وتصف ألوان المتعة التى كان يجدها فى الطبيعة أو فى الحياة والأحياء ، وهى متعة لم تكن مستعصية عليه ، بل كانت طوع يمينه وبين يديه ؛ ولكنها النفس التى كانت تطلب من هذه المتعة المزيد . وأكثر هذا الشعر يصوّر الرجل المقصود الذى تتطلع اليه الآمال ، ولم يكن يصور الرجل المتطلع الى الآمال ، فقد بلغ غايته الرفيعة ، كما يصوّر الرجل المتفضل الذى يجود بماله كما يجود بأدبه ، ويؤدب بهذا الأدب كما يؤدب بالحرمان من عطائه المال ..

ولكل هذا نرى أن المديح فى شعر الصاحب قليل ، ولا يتوجه فيه الا الى ولىّ من أولياء نعمته ، وهم قليل .. ومنه قوله فى عضد الدولة :

همام رأى الدنيا سواما فحاطها
ليالى فى غير الزمان وقور
ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها
فموقعها من راحتيه يسير
ولكن له طبع الى الخير سابق
ورأى بأبناء الرجال بصير
وان لم يلاحظهم بعين حميّة
فتلك أمور لا تزال تمور

وقوله فى عضد الدولة من قصيدة أخرى :

سعود يحار المشترى فى طريقها
ولا تتأتى فى حساب المنجم
وكم عالم أحييت من بعد عالم
على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى
مقال النصارى فى المسيح بن مريم
محامد لو فضت ففاضت على الورى
لما أبصرت عيناك وجه مذمم
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها
لما سمعت أذناك ذكر ملوم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى
لغيرك لم أحرج ولم أتأثم

وقوله فيه :

يأيهـا الملك الذى كل الـورى
قسـمان بين رجـائه وحـذاره
فمناصح قد فاز سـهم طـلابه
ومـداهن قد جـال قدح بواره
هذى بخارى تشتكى ألم الصدى
وتقـول قولا نبت فى أخبـاره
مـاذا عليـه لو يهـم بعرصتى
فأكـون بعـض بـلاده ودياره

وكتب الى مؤيد الدولة أبى منصور :

سعادة ما نالها قـط واحـد	يحوزها المولى الهمام المعتمد
مـؤيد الدولة وابن ركنهـا	وابن أخى معزّها أخو العضد

وقال فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيـا للقصر بل للعـلا	همـك والفرقد سـيان
لم تبن هذا القصر بل صغته	تاجا على مفـرق جـرجان
وقصرك المبنى من قبـله	ملكك ، والله هو البـانى
فاقبل نثار العبـد بل نظمه	فانه والدرّ مثـلان

وهذا الشـعر كما نرى وان كان فى المديح الا أننـا نرى الصاحب من خلاله ، لا يزال متماسكا ، فلا نقرأ فيه ذلة الخضوع والضراعةالتى نقرؤها فى أكثر ما نقرأ من شعر المديح للمتكسبين من الشعراء الذين كانوا ينسون أنفسهم ، بل يهبطون بها الى حضيض الاستعطاف والمذلة والاسفاف ، وأولئك الثلاثة كما رأينا

من أبناء بويه ، وهم أولياء نعمته الذين احتضنوه وارتقوا به فى دولتهم الى منصب الوزارة .

* * *

ولا يخدعنا عن هذه الحقيقة ما فى هذا الشعر من المبالغات التى نأباها ونرفضها ، فانها من أقاويل الشعراء ، ولا تظهر فيها شخصية الصاحب التى تلصقها به ، وتجعلها علما عليه ، بل ان من المستطاع أن تنسب الى غيره ممن شئت من شعراء المبالغات كما ينسب اليه فى ذلك العصر الذى نأت الحيـاة فيه عن مظاهر البساطة ، وجنحت فيه المعانى الى الغلوّ الذى يشين ، والذى يقرب من الكذب ، بل قد يصل فى بعض الأحيان الى درجـة الكفر .

ومن الذين مدحهم من أصحاب الفضل عليه أبو الفضل بن العميد ، وهو أستاذه ومدربه . ومن قوله فيه يذكر نقرسا أصاب يمنـاه :

أبو الفضل من أجرى الى الفضل يافعا
فظـل به يدعى وصـار به يكنى
سلامته شـمس المعـالى وسـقمه
كسوف المعالى لا كسفن ولا بنـا
ولـم يأته ورد السـقام لغـير ما
عرفنـا فخـذ معنى تألمـه منـا
ومـا راده الا ليشـغل عن ندى
والا فلم قد خصّ بالألـم اليمنى

وما يحجز البحر الخضم عن الندى
ولا السيد الأستاذ عن جوده يثنى

وهى كلمة وفاء كان جديرا أن يكتبها لأستاذه فى علته ، وقد ظهر فيها ذلك المعنى البكر الذى أحسن فيه التعليل ، وادعى فيه أن العلة انما لزمت يده اليمنى لتكفه عن نداه المسرف ، ولكن هيهات أن تثنيه عما طبع عليه ، كالبحر لا يستطيع أن يكفه أحد عن العطاء !

أما الاخوانيات فان للصاحب المقام الأوفى فى صياغتها ، وتكاد تسيل رقة لفرط ما حملته من ألوان الصفاء فى معانيها وفى لغتها التى لا تجدها فيها كلمة نابية أو لفظا مستكرها ، وانما هى أشبه شىء بالنمير الصافى الذى لا يكدره تصنع ولا تعمل ولا اكراه ، بل هو يجرى فيها على سجية رفيقة ، وطبع سلسال لا يتحجر ولا يتعثر ، فهو اذ يتحدث الى صاحبه فى مداعبة أو عتاب فكأنه يتحدث عن نفسه ، أو كأنه يحدث نفسه ، لفرط ما أصفى من الودّ ، وما بذل من صفاء الروح . وتجد مثلا لهذه الشاعرية الثرة بالودّ المترعة بالصفاء فى مثل ما كتب الى أبى الفضل بن شعيب :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا
فأسأنا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا
فاذا أنت ذلك المتمنى

فبغصن الشباب لما تثنى

وبعهد الصبا وان بان منا

كن جوابى اذا قرأت كتابى

لا تقل للرسول كان وكنا

وفى مثل ما كتب الى أبى بكر الخوارزمى :

أسعدك الله بيوم الفصح وعشت ما شئت بيوم سمح

يا رأس مالى فى الورى وربحى وظفرى ونصرتى ونجحى

شربا ولا تصغ لأهل النصح فالحزم أن تسكر قبل تصحى

سكر النصارى فى غداة الفصح

أرأيت الى الصاحب كيف يحيّى هذا الصديق الأديب ، وكيف يتبسط معه فى الحديث ويتلطف معه فى الخطاب ، وكيف يعدّه رأس ماله وربحه وظفره ونصرته ونجاحه ؟ ثم انظر الجزاء الذى يلقاه به الخوارزمى وقد نال من برّه وتقريبه الكثير ، فى مثل قوله :

لا تحمدنّ ابن عباد وان هطلت

كفاه يوما ولا تذممه ان حرما

فانها خطرات من وساوسه[1]

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

ماذا كان يريد أولئك الأصفياء من ذلك الرجل الذى قربهم ، وأفاض عليهم من أدبه وماله وقلبه ما كان يستطيع ؟ لعلهم كانوا

(١) الوساوس جمع وسواس وهو حديث النفس المختبلة .

لا يقنعون الا بأن يصبوا أموال الدولة وأمـوال فى جيوبهم ، أو ينزل لهم عن منصبه ليخلفوه فيه !!

ما هذا الجحـود الغريب الذى يثنى الكرام عن المكارم ، وينتزع من القلوب الثقة بمن هم أحق الناس بالثقة ممن ينتسبون الى العلم أو الى الفن ؟ ان مثل هذا الجحود لسبب من أعظـم الأسباب فى تزهيد الفضلاء فى الفضل ، وترغيب الكرام عن المكارم، وما أصدق الذى قال « والكفر مخبثة لنفس المنعم » وما أحق الصاحب أن يقول عندما بلغه خبر وفاة أبى بكر الخوارزمى :

أقول لركب من خراسـان رائح :
أمات خوارزميكم ؟ قيل لى : نعم !
فقلت : اكتبوا بالجصّ من فوق قبره
« ألا لعن الرحمن من كفر النعم » !

وهما بيتان يشعران بما كان يجـده الصاحب من مـرارة الجحود ممن أحسن اليهم وأحسن بهم الظن !

ومن اخوانيات الصاحب الرقيقة الرائقة ما كتبه الى صاحبه أبى القاسم القاشانى :

يا أبا القاسـم قـل لى	قـل لمـاذا لا تزور
كنت قد قدّمت وعـدا	فاذا وعـدك زور
وبذرت الـود بالقـو	ل فلـم تزك البـذور
ونحـرت الودّ بالهجـ	ر كما يهـدى الجـزور
ان أم الصـدق فى الـ	ـود لمقـلاة نزور

وفى هذا العتب المتبسط الذى كتبه اليه :

مولاى لـم تدع عبـ ـدك عند احضار المدام
أعرفتـــه من بينهـم متبسّطا وقت الطعـام
أم قيـل عربد ذات يو م حين صار الى المـدام
أم لم يساعد حـين مل ت الى الغلامة والغلام
ان كنت تبخل بالطعـا م فكيف تبخل بالكلام
لسـنا نحـاول دعـوة فاسمح علينا بالسـلام

وحدث الثعالبى عن أبى نصر التهذيبى ، قال : سمعت القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى يقول : انصرفت يوما من دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد ، فجاءنى رسوله بعطر الفطر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يأيها القـاضى الذى نفسى له مع قرب عهـد لقائه مشتاقه
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما أهـدى له أخـلاقه

قال : وسمعته يقول : ان الصاحب يقسم لى من اقباله واكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ، وقد استعفيته يوما من فرط تحفّيه بى ، وتواضعه لى ، فأنشدنى :

أكرم أخـاك بأرض مولده وأعزّه ما نيـل فى الوطن
فالعـزّ مطـلوب وملتمس وأمدّه من فعلك الحسن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية ، فقلت : لعل مولانا يريد قولى :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل
ألا ليت قومى يعلمون صـنيعى !

فقال : ما أردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى « يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » !

فهذا كلام من يعرف الفضل لأصحابه ، ومن ينصف الصديق، ومن يعرف أثر تكرمته فى وطنه وبين أهله وعشيرته ، وهو أثر بعيد لا يدركه الا عالم بأسرار النفوس من أمثال الصاحب فى فطنته وبعد نظره وطهارة قلبه .

* * *

أما الوصف فقد كان الصاحب فيه من أعلام المبرزين ، وأوصافه تزخر بالتصوير الرائع ، وتفيض بالتشبيهات البارعة . وأكثر أوصافه فى مباهج الطبيعة وفى الأزهار والثمار وفى الخمريات ، وهو صاحب البيتين المشهورين اللذين هام بهما البلاغيون :

رقّ الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

ومن خمرياته :

وقهوة قد حضرت بختمها ... فقلت للندمان عند شمها
لا تقبضن بالماء روح جسمها ... فحسبها ما شربت من كرمها

وقوله :

متغايرات قد جمعن وكلها ... متشاكل أشباحها أرواح
واذا أردت مصرحا تفسيرها ... فالراح والمصباح والتفاح
لو يعلم الساقى وقد جمعن لى ... من أىّ هذى تملأ الأقداح

وقوله :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا
دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقيها : أدرها فانها
خدود عذارى قد جعلن على طبق

ومن أبدع ما قال فيها من قصيدة :

وكأس تقول العين عند جلائها
أهل لخدود الغانيات عصير ؟
تحاميتها الا تعلل واصف
وقد يطرب الانسان وهو كبير !

وقوله فى جلوسه مع الشَّرب من غير شُرب :

تمتع ندمان بها وأحبة
وحظى منها أن أقول ألا انعمى
لك الوصف دون القصف منى فخيمى
بغير يدى وارضى بما قاله فمى

ومن ملح أوصافه وتشبيهاته :

أقبل الثلج فانبسط للسرور ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجوّ فى غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الأر ض فصار النثار كالمنثور

وقال فى النارنج :

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه
فقيل على الأغصان منه نوافج[1]

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهو وعاء المسك (معرب) .

كرات من العقيان أحكم خرطها
وأيدى الندامى حولهن صوالج[1]

وقال فى الند[2] :

ند لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفا من نسيم يديه
فكأنما عجنوه من أخلاقه وكأنه طيب الثناء عليه

وقال فى حبة عنب :

وحبة من عنب من المنى متخذه
كأنها لؤلؤة فى وسطها زمردة

وقال فيها أيضا :

وحبة من عنب قطفتها تحسدها العقود فى الترائب
كأنها من بعد تمييزى لها لؤلؤة قد ثقبت من جانب

وقال فى التين :

تين يزين رواؤه مخبوره متخير فى وصفه يتحير
عسل اللعاب لديه مما يجتوى وجنى النخيل لديه مر ممقر[3]
وكأنما هو فى ذرا أغصانه قطع النضار أدارهن مدور
ويقول ذائقه لطيب مذاقه الله أكبر والخليفة جعفر

---

(١) العقيان : الذهب الخالص .
(٢) الند ـ بفتح النون وكسرها ـ طيب ، أو هو العنبر .
(٣) اجتوى : أصابه الجوى ، وهو الحرقة وشدة الوجد .
وشىء ممقر ومقر ـ على وزن كتف ـ حامض أو مر .

ومن قوله يصف الشمع :

ورائق القـد مستحبّ　　يجمع أوصاف كل صبّ
صفرة لون وسكب دمع　　وذوب جسم وحرّ قلب

وقال فى الخط واللفظ :

بالله قـل لى أقرطاس تخـط به
من حـلة هو أم ألبسـته حـللا ؟
بالله لفظك هـذا سال من عسـل
أم قد صببت على أفواهنا عسلا ؟

ومن ملح شعره فى الغزل :

وشادن أصبح فوق الصفه　　قد ظلم الصب وما أنصفه
كم قلت اذ قبّل كفى وقد　　تيمنى : يا ليت كفى شـفه

وقوله :

تسحب ما أردت على الصباح　　فهم ليل وأنت أخو الصباح
لقـد أولاك ربك كل حسن　　وقد ولاّك مملكة المـلاح
وبعـد فليس يحضرنى شراب　　فأنعـم من رضابك لى براح
وليس لدىّ نقـل فارتهـنى　　بنقل من ثنـاياك الوضـاح

وقال من باب الاقتباس من الحديث الشريف :

ومهفهف يغـنى عن القمـر　　قمر الفـؤاد بفاتن النظـر [1]

---

(١) امرأة مهفهفة أى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد ـ على زنة طرب ـ تحير .

خالسته تفاح وجنته   من غير ابقاء ولا حذر
فأخافنى قوم فقلت لهم   « لا قطع فى ثمر ولا كثر »[1]

ومن بديع غزله :

أتانى البدر باكيا خجلا   فقلت ماذا دهاك يا قمر ؟
قال غزال أتى ليعزلنى   بحسنه فالفؤاد منفطر
فقلت قبّل ترابه عجلا   واسجد له ، قال: كلا ذا غرر
قد بايعت أنجم السماء له   فليس لى مفزع ولا وزر

وقال متغزلا :

بدا لنا كالبدر فى شروقه   يشكو غزالا لجّ فى عقوقه
يا عجبا والدهر فى طروقه   من عاشق أحسن من معشوقه

قال أبو بكر الخوارزمى : أنشدنى الصاحب هذه القوافى ليلة ، وقال : هل تعرفون نظيرا لمعناها فى شعر المحدثين ؟ فقلت : لا أعرف الا قول البحترى :

ومن عجب الدهر أن الأمير   أصبح أكتب من كاتبه

فقال الصاحب : جوّدت وأحسنت ، وهكذا فليكن الحفظ !

وللصاحب فى شعر المجون باع طويل ، يقصر عنه المفلقون المجوّدون ، وكان مبعث ذلك روح النقد التى تمكنت منه ، فبرع فى رسم صور خلابة تشيع فيها روح السخرية ممن سلط عليهم شاعريته المبدعة ، وله هجاء لاذع يقصر عنه الهجاؤون الذين

---

(1) الكثر — بفتحتين — جمار النخل ، والشطر كله حديث « لا قطع فى ثمر ولا كثر » .

تخصصوا فى النيل من الأعراض ، ومن قوله فى قاض لم يثبت عنده هلال شوال :

ان قاضـــينا لأعمى   أم على عمد تعامى ؟
سرق العيــد كأن الـ   ـعيد من مال اليتامى!

وقوله فيه :

يا قاضـيا بات أعمى   عن الهـلال السعيد
أفطرت فى رمضــان   وصمت فى يوم عيد

وأنشد له الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى :

نبئت أنك منشـــــد ما قلتـــه
فى سبّ عرضك لا تخاف وعيـدى
والكلب لا يخـزى اذا أخسـأته
والقـــار لا يخشى من التســويد

وأنشد له غيره :

تزلزلت الأرض زلزالهـــا   فقالوا بأجمعهـم ما لهـا
مشى ذا الثقيل على ظهرها   فأخرجت الأرض أثقالهـا

ولو ذهبنا نتخيّر للصاحب روائع شعره فى سائر الفنون التى أجاد فيها الصاحب وأبدع ، ثم شرحنا أسباب الاجادة ومظاهر الابداع ، لاتسع مجال القول ، وضاقت عنه هذه الصفحات ، ولكنا نجتزىء بهذه الأمثال التى يستطيع القارىء أن يستشف من خلالها طبيعة شعر الصاحب ، وما أتيح له من ملكة بارعة وقدرة فائقة على التحليق فى سماء هذا الفن الرفيع ، ونختم هذه الروائع بقوله :

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممتثل فى الأمم ؟
فقلت دعينى على غصتى فان الهموم بقدر الهمم!

* * *

ولا يتسرب الينا شك فى أن أى ناظر الى هذا الشعر سيقع منه موقع القبول ، وأنه سيجد فيه من القـوة ما يرفعه الى درجـة الفحول المطبوعين . ولكن أبا حيان التوحيدى ، وقد عرفنا من عداوته للصاحب ما عرفنا ، وعرفنا ولوعه بثلبه وانتقاصه ، لمـا قدمنا من الأسباب ، يذكر جملة من الآراء تساير رأيه فى الصاحب، وينسبها الى غيره من الناس ، والله أعلم بصحة ذلك ، فقد سأله الوزير أبو عبد الله العارض : كيف بلاغة الصاحب من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف [1] والصابى[2] ؟.

وأراد أبو حيان أن ينسب ما أراد من قدح فى الصاحب الى غيره فقال : قد سألت جماعة عن هذا ، فأجابنى كل واحد بجواب اذا حكيته عنه كان ما يقال فيه ألصق وكنت من الحكم عليه

---

(١) ابن يوسف الذى يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب فى دولة بنى بويه ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده .

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابى كاتب الانشاء ببغـداد عن الخليفـة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلـد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ونقم عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ، فلما ملك عضـد الدولة أراد قتله فشـفعوا فيه فأطلقه ، وألف له كتاب « التاجى » فى أخبار بنى بويه ، وظل على دين الصـائبة الى آن مات سنة ٣٨٤ هـ كما روى ابن خلكان ، وقال صاحب الفهرست أنه مات قبل سنة ٣٨٠ هـ والأول هو الأصوب .

وله أبعد ! ... سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد فى كتابته ، فقال : يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أودرجتين ..

وقال على بن القاسم : هو مجنون الكلام ، تارة تبدو لك منه بلاغة قس ، وتارة يلقاك بعّى باقل ، تحريف كثير فى المعانى ، واحالة فى الوضع ، وغلط فى السجع ، وشرود عن الطبع .

وقال ابن المرزبان : هو كثير السرقة ، سيىء الانفاق ، ردىء القلب ، فروقة [١] فى ايراده ، هزيمته قبل هجومه ، واحجامه أظهر من اقدامه ..

وقال الصابى : هو مجتهد غير موفق ، وفاضل غير منطق[٢].

وقال على بن جعفر : هو يكذب نفسه بحسن الظن فى البلاغة، وطباعه تصدق عنه بالتخلف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والاخلال والفجاجة . وأما احالته فبالابعاد عن حومة القصد والارادة ، والعجب أنه يحفظ الطّم والرِّم[٣] من النثر والنظم ، ثم اذا ادعاهما يقع دونهما سقوطا ، أو يتجاوزهما فروطا [٤] ، وهذا مع الكبر الممقوت والتشيع الظاهر ، والدعوى العارية من البينة العادلة ..

وقال أحمد بن محمد : ... بلى ابن عباد فى هذه الصناعة بأشياء

---

(١) رجل فروقة شديد الفرق ــ بفتحتين ــ وهو الفزع .
(٢) غير منطق أى غير بليغ النطق .
(٣) الطم والرم : العدد الكثير ، يقال جاء بالطم والرم ، والطم فى الأصل الماء الكثير أو ماساقه الماء من غثاء ، والرم الثرى .
(٤) الفروط التقدم .

كلها عليه لاله .. فأول ما بلى به أنه فقد الطبع وهو العمود ، والثانى العادة وهى المواتية[1] ، والثالث الشغف بالجاسى [2] من اللفظ وهو الاختيار الردىء ؛ والرابع تتبع الوحشى وهو الضلال المبين ، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس استكراه المقصود من المعنى واللفظ على النبوة ، والسابع التعاظل[3] المجهول بالاعتراض ، والثامن الف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص ، والتاسع قلة الاتغاط بما كان — للثقة الواقعة فى النفس — من الفائت ، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار فى سوق العز ، وهذه كلها سبل الضلالة ، وطرق الجهالة[4] ..

ونعتقد أن شيئا من هذا الكلام أو هذه النعوت لا ينطبق على شيء من شعر الصاحب ، وان كان ينطبق بعضه على شيء من نثره المسجوع من أمثلة ما روى أبو حيان نفسه شيئا منه أوردناه فيما تقدم ، وقلنا رأينا فيه .. وهذا أيضا على فرض التسليم بصحة ما أورد من السجع المتكلف واللفظ الغريب والحوشى ، وعلى فرض التسليم أيضا بصحة صدور هذه الأحاديث والآراء عمّن ذكر أسماءهم ! .

ولا يستبعد الأستاذ أحمد أمين فى مقدمته التى كتبها للامتاع

(١) المواتية أى المساعدة المعينة .
(٢) الجاسى : الجاف الصلب .
(٣) التعاظل التعقيد ، وللتعاظل معان أخرى ، أكثرها مناسبة هنا التعقيد بعدم تنسيق الكلام ووضع كل كلمة فى موضعها .
(٤) الامتاع والمؤانسة ٦٥/١ .

والمؤانسة أن يكون أبو حيان قد تزيّد فيه ، واخترع أشياء لم تجر فى مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، وقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبى الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوة الى أبى عبيدة على لسان أبى بكر وعمر فى حق علىّ بن أبى طالب ، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التى دعته أن يرجو أبا الوفاء — وهو الذى كتب له ما جرى بينه وبين الوزير أبى عبد الله العارض — فى أن يكون الكتاب سرًّا ، فانه ألف الكتاب فى حياة الوزير ، وخشى أن يطلع عليه الوزير ، فيعلم مقدار ما تزيد [1] ..

لقد جمع القائلون فى هذه الكلمات ، أو جمع لهم أبو حيان ، جميع عيوب الفن الأدبى ، وصبوها على أدب الصاحب الذى لم يبرأ ولا سيما بعض نثره منها ، ولكن تجريد هذا الأدب من كل مزية والصاق كل نقص به محال فى مجال النقد النزيه الخالص من نزعات الكيد والانتقام التى سممت آراء أبى حيان وروايات أبى حيان .

ذلك أن القول المطبوع ، والأدب الصافى ، والشاعرية المرهفة كل ذلك واضح المعالم فى أدب الصاحب لكل منصف يطلع على شعره وأكثر نثره .

لقد كان الصاحب يرتجل الشعر ، فتخال لفرط اتقانه وصفاء ديباجته أنه شعر معدّ مهذب أعاد صاحبه النظر فيه ، لولا أن رواته

---

(١) انظر مقدمة (الامتاع والمؤانسة) بقلم الأستاذ أحمد أمين : ص : ف .

سمعوا هذا الشعر ، وأخبروا عن ارتجاله فى مناسباته . بل لقد كان الصاحب يسبقهم الى أشطرهم وقوافيهم التى ينشدونها فى حضرته فتكون تلك الأشطر هى عين ما قالوا ، ومن أمثلة ذلك ما حدث أبو الرجاء الضرير الشطرنجي العروضى الشاعر الأهوازى فى قوله : قدم علينا الصاحب بن عباد فى السنة التى جاء فيها فخر الدولة ، ولقيه الناس ، ومدحه الشعراء ، فمدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبى القاسم الصـ ـاحب اسماعيل كافى الكفاة

فقال الصاحب : قد كنت والله أشتهى أن تجتمع كنيتى واسمى ولقبى واسم أبى فى بيت !

قال أبو الرجاء فلما انتهيت الى قولى فيها :

* ويشرب الجيش هنيئا بها *

قال الصاحب : يا أبا الرجاء ، أمسك ! فأمسكت ، فقال :

ويشرب الجيش هنيئا بها

من بعد ماء الرىّ ماء الصَّراةِ [1]

هكذا هو ؟ قلت : نعم ! قال : أحسنت ! قلت : يا مولاى ، أحسنت أنت ، عملت أنا هذا فى ليلة ، وأنت عملته فى لحظة[2] !

وروى عون الهمذانى أن الصاحب أتى بغلام مثاقف[3] ،

---

(١) الصراة نهر بالعراق .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٥٤ .

(٣) المثاقفة الملاعبة بالسلاح .

فلعب بين يديه ، فاستحسن صورته وأعجب بمثاقفته . فقال لأصحابه : قولوا فى وصفه ، فلم يصنعوا شيئا ، فارتجل الصاحب :

مثاقف فى غاية الحذق فاق حسان الغرب والشرق
شبهته والسيف فى كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق(1)

واتنحل أحد المتشاعرين بعض شعر الصاحب ليمدحه به ، فبلغ الصاحب ذلك ، فقال : ابلغوه عنى :

سرقت شعرى ، وغيرى يضام فيه ويجزع
فسوف أجزيك صفعا يكد رأسا وأخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

وكتب اليه أبو منصور الجرجانى :

قل للوزير المرتجى كافى الكفاة الملتجا
انى رزقت ولداً كالصبح اذ تبلجا
لا زال فى ظلك ظـ ـل المكرمات والحجا
فسمّه ، وكنّه مشرّفا ، متوجا

فوقع الصاحب تحت هذه الأبيات :

هنئته ، هنئته شمس الضحا ، بدر الدجى
فسمّه « محسّنا » وكنّه « أبا الرجا »

وأهدى العميرى قاضى قزوين الى الصاحب كتبا ، وكتب معها :

العميرى عبد كافى الكفاة ومن اعتدّ فى وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسنها مترعات

(1) يتيمة الدهر ٣/٢٠٢ ووفيات الأعيان ٢/٢٢٥ .

فوقع الصاحب تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتابا
وردنا لوقتها الباقيات

لست أستغنم الكثير فطبعى
قول «خذ» ليس مذهبى قول «هات» !

وكتب الصاحب الى أبى هاشم العلوى ، وقد أهدى اليه فى طبق فضة عطرا :

العيد زارك نازلا برواقكا يستنبط الاشراق من اشراقكا
فأقبل من الطيب الذى أهديته ما يسرق العطار من أخلاقكا
والظرف يوجب أخذه مع ظرفه فأضف به طبقا الى أطباقكا

ولما أتت الصاحب البشارة بسبطه عباد بن على الحسنى ، ولم يكن للصاحب ولد غير أمه ، وكان قد زوجها من أبى الحسن على ابن الحسين الحسنى الهمذانى ، وكان شاعرا أديبا بليغا ، أنشأ الصاحب يقول :

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشىّ
اذ حبانى الله سبطا هو سبط للنبىّ
مرحبا ثمت أهلا بغلام هاشمىّ
نبوىّ ، علوىّ حسنىّ ، صاحبىّ

ثم قال :

الحمد لله حمدا دائما أبدا
قد صار سبط رسول الله لى ولدا

والحقيقة أن كثيرا من هذه الأشعار المرتجلة لا يصور الفحولة التى يتصف بها شعر الصاحب ، فان فيها من بساطة التعبير ، ومن قرب المعانى ، ما يهبط بها كثيرا عن درجات شعره الرائق الممتاز ، ولكن مواقف الارتجال وغزارة البداهة من غير اعداد أو تعبير ترقى به الى درجة الشعر الذى نجد فيه عذوبة الصاحب ، وسماحة طبعه ، حتى لقد يكون فى الامكان القول بأن الصاحب لو أراد أن يكون كل كلامه على هذا النمط من الشعر لم يتأب عليه القول ، ولم يستعص عليه شىء مما يريد ، فقد أصبح القريض طوع بنانه ، يكاد يسيل على عذبات لسانه .

* * *

ولقد كانت ثقافة الصاحب الأدبية واطلاعه على غرر الشعر وروائع الكلام سببا من أسباب افادته من شعر غيره ، وأخذه من معانى بعضهم فى نظر بعض الكاتبين فى تاريخ الصاحب ، كما فعل الثعالبى فى محاولته ارجاع بعض معانى الصاحب الكتابية الى أبى الطيب المتنبى ، وقد فصلنا الكلام فى هذا الموضوع ، وشرحنا رأينا ورأى النقاد فيما أثبته الثعالبى ، ونذكر هنا أن الثعالبى بعد أن أورد فى يتيمته غررا من شعر الصاحب ، ذكر نبذا من سرقاته فى شعره ، وقال فيها : سمعت أبا بكر الخوارزمى يقول : قال بعض ندماء الصاحب له يوما : أرى مولانا قد أغار فى قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا

فقال : كما أغار هو بقوله :

ما بال هذى النجوم حائرة　　كأنها العمى مالها قائد

على العباس بن الأحنف فى قوله :

والنجم فى كبد السماء كأنه　　أعمى تحير ما لديه قائد

وسمعت أيضا أبا بكر يقول : أنشدنى الصاحب تتفة له منها هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه
فقولوا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جدا حتى جمعت من حسدى له عليه ، وودت لو أنه لى بألف بيت من شعرى ! قال الثعالبى : فأنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى هذا البيت ، وحكيت له هذه الحكاية فى المذاكرة ، فقال لى : أتعرف من أين سرق الصاحب معنى هذا البيت ؟ فقلت : لا والله ! قال : انما سرقه من قول القائل . ونقل ذكر العين الى ذكر الصدغ :

لدغت عينك قلبى　　انما عينك عقرب
لكن المصة من ريـ　　ـقك ترياق مجرب

فقلت : لله درّ مولانا الأمير ! فقد أوتى حظا كثيرا من التخصص بمعرفة التلصص ! قلت : ومعنى قول الصاحب فى الثلج :

وكأن السماء صاهرت الأر　　ض فكان النثار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروسا　　وكأنا من قطره فى نثار

وقول الصاحب :

يقولون لى كم عهد عينك بالكرى
فقلت لهم : مذ غاب بدر دجاها
ولو تلتقى عين على غير دمعة
لصارمتها حتى يقال نفاها

مأخوذ لفظ البيت الثانى من قول المهلبى الوزير :

تصارمت الأجفان منذ صرمتنى
فما تلتقى الا على عبرة تجرى

وقول الصاحب :

هات مشطا الى وليك عاجا   فهو أدنى الى مشيب الرءوس
واذا ما مشطت عاجا بعاج   فامشط الآبنوس بالآبنوس

مأخوذ من قول أبى عثمان الخالدى :

ورأتنى مشطت عاجا بعاج   فامشط الآبنوس بالآبنوس

وأخذ قوله :

فم الغويرى اذا   فتشته أنتن فم
كم قلت اذ كلمنى   واأسفى على الخشم

من قول المهلبى الوزير :

وان أبصرت طلعته   فوا لهفى على العمش

وأخذ قوله فى ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا   وأبناؤه لفظا عريّا عن المعنى

من قول المتنبى :

* والدهر لفظ أنت معناه *

وقوله فى القافية الأخيرة :

وناصـــح أسرف فى النكير	يقول لى ســدت بلا نظـير
فـكيف صغت الهجو فى حقير	مقـداره أقـل من نقـير[1]
فقلت : لا تنكر وكن عذيرى	كم صارم جـرّب فى خنزير

من قول الحمدونى :

* هبونى امرأ جربت سيفى على كلب *

وقوله فى البيت الأخير من هذه الأبيات :

ومهفهف حسن الشمائل أهيف	تردى النفوس بفترتى عينيـه
ما زال يبعدنى ويؤثر هجرتى	فجذبت قلبى من اسار يديه
قالوا تراجعه ؟ فقلت بديهـة	قولا أقيم مع الروىّ عليـه
والله لا راجعتــــه ولو انه	كالشمس أو كالبدر أو كبويه

مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمتـــــه ولـو انه
كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفى[2]

* * *

ولا شك أن الافادة فى معانى هذا الشعر أوضح من الافادة فيما قدمناه من المنثور من كتابة الصاحب ، ولكن الافادة هنا لا تعنى النقل ، بل هنا تصرّف كثير . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكنه كما وقع للأول وقع للآخر . فليس هنا ما يدعو الى الجزم بأن الصاحب اطلع على الكلام الذى

(١) النقير : النقرة التى فى ظهر النواة .
(٢) يتيمة الدهر ٣/٢٧٧ .

قيل انه أفاد منه أو انه سرقه . قال أبو هلال : وهذا أمر عرفته من نفسى ، فكيف أمترى فيه ، وذلك أنى عملت شيئا فى صفة النساء

* سفرن بدورا وانتقبن أهلة *

وظننت أنى سبقت الى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت الى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين ، فكثر تعجبى ، وعزمت على ألا أحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكما حتما[1] ..

الصاحب الناقد

وكما كان الصاحب بن عباد أديبا كبيرا ، وكاتبا فى مقدمة أعلام هذا الفن عند العرب ، وشاعرا تفيض شاعريته بهذا الشعر المستعذب المطبوع ، كان كذلك ناقدا فى طليعة النقاد الذين يعتد بآرائهم ونظراتهم الصائبة الى الفن الأدبى ..

والأديب أعرف من غير شك بصناعته ، والكاتب أحق الناس بالقول فى كتابته ، والشاعر أعرف من غيره بمواضع الاجادة ، ومواطن التقصير ..

وقد عرفنا أن الصاحب كان واسع الاطلاع كثير المحفوظ من الروائع الأدبية ، وقد أعانته ادامة النظر على صحة الفكرة وجودة الرأى فيما يرى وفيما يسمع ، فقد صارت حضرته كما يقول الثعالبى[2] مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار

---

(١) الصناعتين ١٩٧ .

(٢) يتيمة الدهر ١٨٩/٣ .

الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الاعجاز ... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين ، كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتّابى ، والنمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيص ، ومروان بن أبى حفصة ، ومحمد بن مناذر ..

وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرىّ وجرجان مثل أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعيد الرستمى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى ، وأبى الفضل الهمذانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى ، وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى ، وأبى معمر الاسماعيلى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم ..

ومدحه مكاتبة الشريف الموسوى الرضى ، وأبو اسحاق الصابى ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباته ...

وحدث ابن بابك قال : سمعت الصاحب يقول : مُدحت

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، ما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر كما سرّنى أبو سعيد الرستمى الأصفهانى بقـوله :

ورث الوزارة كابراً عن كابر　　مرفوعة الاسـناد بالاسـناد
يروى عن العبـاس عباد وزا　　رته واسـماعيل عن عبـاد[1]

ان رجلا يرى هؤلاء ويقرأ شعرهم ويستمع اليه لجدير بأن يخرجه هذا فى فهم الشعر والأدب وأن يعينه على تذوقه ، ويقدره على ابداء الرأى فى صوابه وخطئه وفى جودته ورداءته ، وأن تتسع خبرته بالفن الأدبى لسائر فنونه من الكتابة والخطـابة والشعر ، ولكل ما يتصل بمبناها ومعناها وفى استطاعته أن يردّ كل قول الى أصله ، وكل سطو الى صاحبه ، ومن أمثلة ذلك ما مر من أن بعض ندماء الصاحب قال له يوما : أرى مولانا قد أغار فى قوله :

لبســن برود الوشى لا لتجمـــل
ولكن لصـــون الحسن بين برود

على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجمـــلات　　ولكن كى يصنّ به الجمالا

فقال الصاحب : كما أغار هو بقوله :

ما بال هــذم النجوم حـــائرة　　كأنهـــا العمى مالهـــا قائد

---

(١) معجم الادباء ٢٦٣/٦ .

على العباس بن الأحنف فى قوله :

والنجم فى كبد السماء كأنه … أعمى تحير ما لديه قائد

فما أكثر حفظه ، وما أسرع استحضاره !

وقال الشاعر الأوسى : مدحت الصاحب بن عباد بقصيدة ، وكنت أنشدها بين يديه ، فلما بلغت قولى :

لما ركبت اليك مهرى نعلتها … بدر السّما وسمرتها بكواكبه

فقال لى الصاحب : لم أنثت المهر وهو مذكر ؟ ولم شبهت النعل بالبدر وهو لا يشبهه ؟ ولو شبهته بالهلال لكان أحسن لأنه على صورته وهيئته !

* * *

ومع أن كثيرا من النصوص النقدية التى قيلت فى تلك المجالس وأشباهها قد أضاعه الزمن فيما أضاع من آثار الصاحب الحافلة فى فنون المعرفة والأدب فقد حفظ التاريخ شيئا من آثار النقد التى كتبها الصاحب ، وهى تنم على معرفة عميقة بالفن الأدبى ، ومذاهب أصحابه ، ولا غرو فقد كان الصاحب كما يقول عن نفسه « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء ، بالجبال تارة وبالعراق مرة ، وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب ، فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده حق نقده غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل ابن العميد ، فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى ، حتى يطالب بتخير القافية والوزن ،

وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطرافه كلامه تعلقت فيما أتحلى به فى هذا الجنس » .. وذلك بعد أن وصف المتكلمين فى الشعر الذين يتصدون لاصدار الأحكام على الأدباء ، وهم لا يملكون الأداة التى تمكنهم من اصدار هـذه الأحكام : « وقد بلينا بزمَن زمِن[1] يكاد المنسم[2] فيه يعلو الغارب[3] ، ومنينا بأغبياء أغمار [4] قد اغتروا بممادح الجهال لا يضرعون لمن حلب الدهر أشطره[5] ، ولا سيما علم الشعر فهو فوق الثريا وهم تحت الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فاذا تكلموا رأيت بهائم مرسنة [6] ، وأنعاما مجفلة[7] .

الصاحب والمتنبى :

قال الصاحب هذا فى وصف كثير من الذين كانوا يعرضون فى زمنه للكلام فى فن الشعر من غير علم ولا معرفة فى مقدمة رسالته التى كتبها فى « الكشف عن مساوىء المتنبى » لما رأى

---

(١) الزمن — بكسر الميم — المبتلى .
(٢) المنسم — على وزن المجلس — خف البعير .
(٣) الغارب : ما بين السنام الى العنق .
(٤) جمع غمر — بضم الغين وسكون الميم وضمها ، وهو الذى لم يجرب الأمور .
(٥) حلب الدهر أشطره ، مثل يضرب فى الخبرة وطول التجربة ، وهو مستعار من حلب أشطر النـاقة وذلك اذا حلب خلفين من أخلافها ثم يحلبها الثانية خلفين أيضا ، والمعنى أنه اختبر الدهـر شطرى خيره وشره فعرف ما فيه .
(٦) مرسنة أى مشدودة بالرسن وهو الحبل .
(٧) يقـال : أجفلت الدابة اذا أسرعت وذهبت فى الأرض .

كثيرا من هؤلاء يشيدون بالمتنبى ، ويغلون فى وصف شاعريته .

ولقد شغل أبو الطيب المتنبى عصره ومعاصريه بشعره وشخصيته ومطامحه ، فقد اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والثغور والجزيرة ، فمدحه بمدائح خلدت وخلّدت اسمه أبد الدهر ، وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم ، وحدث فى واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة ، وتشتت جنده ، وهلكت أتباعه ، وثبت سيف الدولة فى ستة نفر أحدهم أبو الطيب، فاخترقوا صفوف العدو ونجوا ، وبقى أثيرا عند سيف الدولة مقدّما فى جميع حاشيته وبطانته مع صلفه وتيهه ، فحسده بطانته، فوشوا به اليه حتى فارقه الى كافور الاخشيدى صاحب مصر واسع الآمال فى ملك أو ولاية ، حتى اذا طاش سهمه وخاب فأله فرّ من مصر ، قاصدا بغداد ، وقد ترفع عن مدح الوزير المهلبى ، ترفعا عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على المهلبى ، فأغرى به شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه وتباروا فى هجائه ، وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم ، وقيل له فى ذلك ، فقال : انى فرغت من اجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ... ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا

ثم ان أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجها الى حضرة أبى الفضل بن العميد مراغما للمهلبى الوزير ، فورد أرجان، وأحمد مورده .

ويقال ان الصاحب أبا القاسم طمع فى زيارة المتنبى اياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب ، ولم يكن قد استوزر بعد . وقد كتب الصاحب اليه يلاطفه فى استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله . فلم يقم له المتنبى وزنا ، ولم يجبه الى كتابه ، ولم يحقق مراده .

وقصد المتنبى بعد ذلك الى حضرة عضد الدولة بشيراز — فأسفرت سفرته — كما يقول الثعالبى[1] — عن بلوغ الأمنية ، وورود مشرع المنية .. وذلك أن المتنبى قتل عند مغادرته اياه محملا بالعطايا والهبات ..

قال الثعالبى : واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا اياها ، وتمثلا بها فى محاضراته ومكاتباته !

* * *

وقد عمل الصاحب رسالة فيما أخذه على المتنبى ، وذكر الحاتمى جملة من نقدات الصاحب فى مناظرته مع أبى الطيب المتنبى . « واذا فرضنا أن الذى دعا الصاحب الى عمل هذه الرسالة هو استياؤه من المتنبى حيث تعاظم عن مدحه ، فانا نجده لم يتحامل عليه بالباطل فى شىء منها ، ولم يظلمه بحرف واحد جاء فيها ، ولم يعبه الا بما هو عيب ، لا يمكن للمتنبى ولا لغيره أن يعتذر منه[2] .

---

(١) يتيمة الدهر ١/١٢٢ .
(٢) أعيان الشيعة ٨/١٦٠ .

وفى مقدمة تلك الرسالة التى كتبها الصاحب فى الكشف عن مساوىء المتنبى ، نجد الصاحب قبل أن يدخل فى موضوعه يبرأ من الهوى والعصبية ، ويرى أنهما يزريان بالعالم ويحطان من علمه، كما أن تغليب الهوى يطمس الحقائق « أما بعد ، — أطال الله مدتك ، وأدام فى العلو رغبتك — فالهوى مركب يهوى بصاحبه، وظهر يعثر براكبه . وليس من الحزم أن يزرى العالم على نفسه بالعصبية ، ويضع من علمه بالحمية . فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم متفقون على أن تغليب الهوى يطمس أعين الآراء ، وأن الميل مع الهوى عن الحق يبهم سبيل الصدق [١] » . ثم يذكر سبب التأليف وهو تعصب بعض الأدباء لأبى الطيب المتنبى ، ونفيهم أن له قبيحا ، وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائليها والمجوّدين فيها ، فسألنى عن المتنبى ، فقلت : انه بعيد المرمى ، وشعره كثير الاصابة فى نظمه ، الا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ! . فرأيته قد هاج وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحدانى ، فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره ، وقيّد بالخط ما تذكره ، لتتصفحه العيون ، وتسبكه العقول !

فعلت ذلك ، وان لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ،

---

(١) الكشف عن مساوىء المتنبى = الابانة عن سرقات المتنبى : ٢٢٢ .

ولا تتبع الزلات من طريقتى ! وقد قيل : أى عالم لا يهفو ، وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ وانما قلت ما قلت لئلا يقدر هذا المعترض أننى ممن يروى قبل أن يروِّى[1] ، ويخبر قبل أن يخبُر . فاستمع وأنصت ، واعدل وأنصف ، فما أوردت من كثير مازل فيه الا قليلا ، ولا ذكرت من عظيم ما اختل فيه الا يسيرا » ..

قال الصاحب : والآن حين أعود الى ذكر المتنبى ، فأخرج بعض الأبيات التى يستوى فيها الريّض والمرتاض[2] فى المعرفة بسقوطها دون المواضع التى تخفى على كثير من الناس لغموضها .

فأما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ، ولكن يعاب اذا كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحترى وغيره جل المعانى ، ثم يقول لا أعرفهم ، ولم أسمع بهم ، ثم ينشد أشعارهم ، فيقول : هذا شعر عليه أثر التوليد !؟

ثم يأخذ الصاحب فى تعداد المعايب فى بعض شعر المتنبى ، فيقول : وأول حديث المتنبى أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع ممن جمع الاحسان والاساءة فى بيت كقوله :

* بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها *

وهذا كلام مستقيم لو لم يعاقبه ويعقبه بقوله :

* وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه *

---

(١) يروى الثانية ـ بتشديد الواو المكسورة ـ ينظر ويفكر .

(٢) يقال ناقة ريض ، أول ما ريضت وهى صعبة بعد ، والمرتاض المهر صار مروضا .

فان الكلام اذا استشف جيده ووسطه ورديئه كان هـذا الكلام من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الأدباء . وأعجب من هذا هجومه على باب قد تداولته الألسنة ، وتناولته القرائح ، واعتورته الطباع باساءة لا اساءة بعدها : سقوط لفظ وتهافت معنى ، فليت شعرى ! ما الذى أعجبه من هذا النظم ، وراقه من هذا السبك ، لولا اضطراب فى النقد ، واعجاب بالنفس ؟

ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب أقرب الى الأفهام منه ، وهو:

نحن من ضايق الزمانُ له فيـ ـك وخانتـه قربك الأيام[1]

فان قوله « له فيك » لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى لنازعته المتصوفة دهرا بعيدا ..

* * *

ثم تناول الصاحب أبياتا من مرثية المتنبى فى أم سيف الدولة ، ووصفها بأنها تدل على فساد الحسّ ، وسوء أدب النفس ، وهى الأبيات :

رواق الـعزّ حولك مسبطر وملك علىٍّ ابنـك فى كمـال

وهـذا أول النـاعين طـرّا لأول ميتـة فى ذا الجـلال

صـلاة الله خالقنـا حنـوط على الوجه المكفن بالجمـال

ولا من فى جنـازتها تجـار يكون وداعهم خفق النعـال

وأفجع من فقـدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقـود المثـال

---

(١) يريد أن الزمان يهواه ويغار عليه فلا يسمح لأحـد أن يقترب منه لينفرد به دون الناس .

وقد عاب الصاحب البيت الأول بأن لفظة « الاسبطرار »[1] فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق المغير . وقال عن البيت الثانى من سمع باسم الشعر عرف تردده فى انتهاك الستر ، ولما أبدع فى هذه المرثية واخترع قال البيت الثالث ، وقد قال فيه بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ولكنها استعارة حداد فى عرس . ولما أحب تقريظ المتوفاة والافصاح عن أنها من الكريمات قال البيت الرابع بعد أن أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبدة شعره[2] ، وسخر الصاحب بقوله : لعل هذا البيت عنده وعند من يقول بامامته أحسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه   فطيب تراب القبر دلّ على القبر

أما البيت الخامس فقد قال فيه ان الناس كانوا يستبشعون قول مسلم بن الوليد :

* سلت وسلت ثم سل سليلها *

حتى جاء هذا المبدع فقال بيته ، وأظن المصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى !

وأخذ الصاحب على المتنبى التفاصح بالألفاظ النادرة

---

(١) الاسبطرار التمدد .

(٢) معنى هذا البيت انها ليست من النسوة السوقة يسير وراء جنازتها التجار والباعة ، وينفضون نعالهم بعد انصرافهم من قبرها .

والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غذى لبن [1] ، ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر[2] ، فمن ذلك قوله :

أيفطمه التوراب قبل فطامه
ويأكله قبل البلوغ الى الأكل [3] ؟

وما أرى كيف عشق « التوراب » حتى جعله عوذة شعره ؟ .

وعاب عليه قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا
فلا تحسبنِّى قلتُ ما قلتُ عن جهل

قال : وما زلنا نعجب من قول أبى تمام « لا تسقنى مـاء
والمخضرمين والمحدثين ، والصب على قوالبهم ، فقال :
الملام » فخفّ علينا بحلواء البنين . وقد أراد التشبه بالمتقدمين

ان كان مثلك كان أو هو كائن   فبرئت حينئـذ من الاسلام

و « حينئذ » هنا أنفر من عير منفلت . ومن أساليبه العجيبة فى التعزية عن المصيبة قوله :

لا يحـزن الله الأمـير فاننى   لآخـذ من حـالاته بنصيب

ولا أدرى لم لا يحزن سيف الدولة اذا أخـذ أبو الطيب بنصيب من القلق ؟ أترى هذه التسلية أحسن عند الشعراء أم قول أوس :

(١) أى كأنه أعرابى من البـادية .

(٢) المدر : المدن والحضر .

(٣) التوراب : التراب ، معنى البيت : أيفطمه التراب قبل أن تفطمه أمه ، ويأكله التراب قبل أن يبلغ سن الأكل .

أيتهـا النفس أجمـلى جزعا   ان الذى تحذرين قد وقعا ؟

وكنت أتعجب من كلام أبى يزيد البسطامى فى المعرفة وألفاظه المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا فى صفة فرس :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة   سبوح لها منها عليها شواهد

وما أحسن ما قال الأصمعى لمن أنشده :

فما للنوى جذّ النوى قطع النوى
كذاك النـوى قطّـاعة لوصـال

لو سلط الله على هذا البيت شاة لأكلت هذا النوى كله .

ولم ننفك مستحسنين لجمع الأسامى فى الشعر ، فاحتذى هذا الفاضل على طرق الشعراء فقال :

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه
تشـابه مولـود كريم ووالـد
وحمدان حمدون وحمدون حارث
وحارث لقمـان ولقمـان راشـد

وهذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهـذا الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس .. ومن بدائعه الطريفة عند متعلقى حيله وقرائحه البديعة عند ساكنى ظله :

شديد البعد من شرب الشمول   ترنج الهند أو طلع النخيـل

فلا أدرى استهلال الأبيات أحسن ؟ أم المعنى أبدع ؟ أم قوله « ترنج » أفصح ؟

ومن لغاته الشاذة ، وكلماته النادرة قوله :

كل آخائه كرام بنى الدنـ   ـيا ولكنه كريم الكـرام

ولو وقع « الآخاء » فى رائية الشماخ لاستثقل ، فكيف مع أبيات منها :

قد سمعنا ما قلت فى الأحلام فأجزناك بدرة فى المنام

والكلام اذا لم يتناسب زيفه جهابذته ، وبهرجه نقاده .

وله بيت لا يدرى أمدح القائل به أم رثاه ، وهو :

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل[1]

فلم يرض أن سرق من بشار قوله :

والخيل شائلة لشق غبارها كعقارب قد رفّعت أذنابها

حتى ضيّع التشبيه الصائب بين ألفاظ كالمصائب . والذى لا أمترى فيه أن عالما من المناضلين عنه عنده أن « شوائل تشوال العقارب » أبدع فى صفه الخيل من قول امرىء القيس :

له ايطلا ظبى وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ومن أوابده التى لا يسمع طوال الدهر مثالها قوله فى سيف الدولة :

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة

ففى الناس بوقات لها وطبول

وهذا التحاذق منه كتغزل الشيوخ قبحا ، ودلائل العجائز سماجة ، ولكن بقى أن يوجد من يسمع . وفى هذه القصيدة يقول :

(١) شوائل : يقال شالت العقرب ذنبها اذا رفعته ، يريد أنها سريعة السير ، ترفع أذنابها فى سيرها ، وذلك دليل على كرمها وقوتها .

فان تكن الدَّوْلات قسما فانها

لمن ورد المــوت الــزؤام تدول

فان قوله « الدولات » و « تدول » من الألفاظ التى لو رزق فضل السكوت عنها لحاز فضلا ، ومن مبادئه التى تجمع استكراه الألفاظ وسقوط المعنى :

وما مطّرتنيه من البيض والقنا

ورُوم العِبِدّى هاطلات غمامه[1]

ومن ركيك صنعته فى وصف شعره والزراية على غيره قوله :

ان بعضا من القريض هــراء

ومن هذا تنيجة قريحته فى وصف شعره كيف يطمع له بادعاء السبق لولا التقليد الذى صار آفة العقول وعاهة الألباب ؟ ومما لم أقدره يلج سمعا أو يرد أذنا قوله :

جواب مسائلى : أله نظــير ؟ ولا لك فى سؤالك لا ألالا[2]

وقد سمعت بالفأفاء ، ولم أسمع باللألاء حتى رأيت هــذا المتكلف المتعسف الذى لا يقف حيث يعرف . ومن استرساله الى

---

(١) البيض السيوف ، والقنا الرماح ، والعبدى ـ بكسرتين ودال مشددة مفتوحة ـ العبيد . يقول انى سائر كذلك فيمــا يمطرنى به سحاب جودك من سيوف ورماح يحملها العبيد ، فأنت وهبت لى العبيد وسلاحهم .

(٢) معناه : اذا سئلت عن هذا الممدوح : أله نظير ؟ فالجواب : لا ، ولا لك أيضــا نظير فى هذا السؤال ، فان أحدا لا يجهل هــذا غيرك !

الاستعارة التى لا يرضاها عاقل ، ولا يلتفت اليها فاضل قوله :

تتقـاصر الأفهـام عن ادراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

فالمصراعان يتبرأ أحدهما من صاحبه ، ثم « الدنا » من الألفاظ التى لا يبالى الانسان أن يعدمها فى شعره . ومن شـعره الذى يدخل فى العزائم ، ويكتب فى الطلسمات قوله :

لـم تر من نادمت الاكا لا لسوى ودّك لى ذاكا

وأحسب أنه بهذا البيت أشد سرورا من أم الواحد بواحدها وقد آب بعد فقد ، أو بشرت به عقب ثكل ، ومن أبياته السنية الجماعية قوله :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بهـا جبرين

وقلب هذه اللام الى نون أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة .. ومن عيوب قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام جمعه من الحساب ما لا يدرك بالأرتماطيقى[1] ، ولا بالأعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

أحاد أم سداس فى أحـاد لييلتنـا المنوطة بالتنـادى

وهذا كلام الحكل [2] ورطانة الزّط [3] ، فما ظنك بممدوح

---

(١) الأرتماطيقى المقصود به علم الحسـاب ، وقد نقل بعض المترجمين الكلمة بحروفها منذ عهد الترجمة والكلمة يونانيـة نقلت عنها معظم اللغات الأوربية .

(٢) الحكل بالضم ما لا يسمع صوته كالذر .

(٣) الزط : جيل من الهند ، معرب .

قد شمر للسماح من مادحه ، فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ، والمعاني المنبوذة ؟ فأي هزة تبقى هناك ؟ وأي أريحية تثبت بهذا ؟. ومن مساءلته للطلول البالية ، وكلامه أشد منها بلى ، وأكثر أخلاقا :

أسائلها عن المتديريها (1) فما تدري ولا تذري دموعا

فان لفظة (المتديريها) لو وقعت في بحر صاف لكدرته ، أو ألقى ثقلها على جبل سام لهدته ، وليس للمقت غاية ، ولا للبرد نهاية .. ومما يتصل بالفن المتقدم قوله :

عظمت فلما لم تكلم مهابة
تواضعت وهو العُظم عُظما على العُظم

وكان الرجل محاربا ، فقال في وصف الحروب وما تنتج من رعب القلوب قوله :

فغدا أسيرا قد بللت ثيابه بدم وبلّ ببوله الأفخاذا
فكأنه حسب الأسنة حلوة أو ظنها البرنّي والآزادا(2)

فلا أدري أكان في حومة الحرب ، أم في سوق التمارين في البصرة . ومن مبادئه التي تنبىء عن ركوبه لرأسه ، وعشقه لنفسه قوله :

لجنّية أم غادة رفع السَّجف
لوحشية لا ما لوحشية شنف(3)

---

(1) المتديرون الذين اتخذوها دارا . اذا سألت الربوع لا تدري ما تقول ، ولا تبكي فتساعدني على البكاء .
(2) البرني والآزاد ، نوعان من أنواع التمر الجيد .
(3) السجف جانب الستر ، والشنف ما علق في أعلى الأذن ←

وفى هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفطن لها الا من جمع فى علم وزن الشعر بين العروض والذوق ، وهو قوله :

تفكّره علم ومنطقه حكم   وباطنه دين وظاهره ظرف

وذلك أن سبيل العروض الطويل أن تقع « مفاعلن » وليس يجوز أن تأتى « مفاعيلن » الا اذا كان البيت مصرعا ، اللهم الا أن يضع عروضا لتمام الدائرة ، فهذه العروض قد ألزمت القبض لعلل ليس هذا موضع ذكرها ، ونحن نحاكمه الى كل شعر للقدماء والمحدثين فما نجد له على خطئه مساغا .. ومنها بيت قد حشا تضاعيفه بالضعف ، وهو :

ولا الضِّعف حتى يبلغ الضِّعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت على صدر الكعبة ، وينادى فى الناس : قعوا له ساجدين .. وله وقد غاص فأخرج جندلة قوله :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو

عقمت بمولد نسلها حوّاء [1]

وأنا أقول : ليت حواء عقمت ولم تأت بمثله ، بل ليت آدم

---

(١) اللذ : لغة فى (الذى) . والمعنى لو لم تكن من هذا الورى الذى كأنه منك ، لأنك جماله وشرفه وأنت أفضل أهله لكانت حواء فى حكم العقيم . قال بعضهم : نصف البيت بهى ، ونصفه ردى .

أجفر [1] ، ولم يكن من نسله ! . ومن تصريفه الحسن وضعه « التقييس » موضع القياس فى قوله :

بشر تصور غاية فى آية   ينفى الظنون ويفسد التقييسا

ويليه بيت ان لم يستحى أصحابه منه سلمنا لهم ، وهو :

وبه يضنّ على البريّة لا بها   وعليه منها لا عليها يوسى

وليس بالحلو قوله :

صدق المخبّر عنك دونك وصفه
من بالعراق يراك فى طرسوسا

وقد كنت أسمع رواية المعلّى للخليل بن أحمد :

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى   وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

فاقتفاه شاعرنا هذا وعبّر فى قفاه ، فقال :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله
ويجهل علمى أنه بى جاهل

وفى رافعى رايته من يشغف بهذا البيت أشد من شغفنا بقول حبيب الطائى :

أبا جعفر ان الجهالة أمها
ولود وأم العلم جدّاء حائل [2]

ومن رفعه وافصاحه عن عظيم محله ، وابانته عن علو همته قوله :

---

(١) أجفر عن المرأة : انقطع .

(٢) أبو جعفر كنية محمد بن عبد الملك الزيات ، والجداء الصغيرة الثدى والداهية اللبن ، والناقة الحائل التى لم تلقح سنة او اكثر .

ربما أشـــهد الطعـــام معى
من لا يساوى الخبز الذى آكله

وما أدرى الى أين ينخفض قائل هذا المقال فى سقوط النفس والسَّفال [1] ، وفى تشبيهاته المتناسقة فى الخذلان قوله :

وشوق كالتـوقد فى فـؤاد   كجمر فى جوانح كالمحاش [2]

ومن مخازيه التى خلقها خلقـا متفاوتاً تخفيفه « الغـاش » ؛ وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الأدب يسوّغه ، أو يسـمح فيه فيجوّزه ، وذلك فى قوله :

كأنك ناظـــر فى كل قلب   فما يخفى عليك محل غاش

فان جاز هذا جاز أن يقال عباس بن عبد المطلب ، والشماخ بن ضرار ، ولا تشدد الباء ولا الميم ، على أن ما أورده أشنع من هذا الذى مثلنا به ، اذ كان لفظ فاعل بنى على فاعل مشددا .. ولا يزال يركب القوافى الصعبة ثقة بالقريحة السمحة ، فيبتدىء زائيته بقوله :

كفرندى فرند سيفى الجـراز   لذة العـين عـدة للبراز [3]

حتى امتد به النفس فقال :

تقضم الجمر والحديد الأعادى   دونه قضـم سكر الأهـواز

(١) السفال – بالفتح – نقيض العلو .

(٢) المحاش : ما أحرقته النار .

(٣) الفرند جوهر السيف ، والجراز – بضم ففتح – السيف القاطع . يقول ان سيفى شبيه بى فى المضاء ، وهو جميل فى مرأى العين .

وهذا « السكر » اذا جمع الى « البرنىّ » و « والأزاذ »
فيما تقدم من شعره تم الأمر .. وليس العجب منه ، ولكن ممن
يظنه معصوما لا يرى له زلل ، ولا يوجد فى شعره خلل .. وفى
هذه يصف الممدوح ومعرفته بالمديح فيقول :

ملك منشد القريض لديه يضع الثوب فى يدى بزّاز[1]

وفى أقل ما ذكرناه غنى للمنصف ، وان لم يكن فى أكثر منه
كفاية للمتعسف . ومما دلنا على حفظه الغريب قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم
شيم على الحسب الأغرّ دلائل

يريد بالجفخ البذخ والفخر ، من قول الشاعر :

أيوعدنى بجفخ بنى عمير وقد أفحمت شاعر كل حىّ ؟

ومنه قول الآخر :

أجفخا اذا ما كنت فى الحىّ آمنا
وجبنا اذا ما المشرفية سلت ؟

وليس هذا لمثله وهو وليد قرية ومؤدب صبية ! وله ، يريد
أن يزيد على الشعراء فى وصف المطايا فأتى بأخزى الخزايا
فى قوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بُعرانا

وفى الناس أمّه ! فهل ينشط لركوبها ؟ وكذلك الممدوح لعل

(١) يقول ان ممدوحه يعرف الشعر ، كما يعرف البزاز الثياب .

له عصبة لا يحب أن يركبوا اليه [1] ، فهل فى الأرض أفحش من هذا السخب [2] ، وأوضع من هذا التبسط ؟! .. وكانت الشعراء لا تصف المآزر تنزيها لألفاظها عما يستبشع ذكره ، حتى تخطّى هذا الشاعر الى التصريح الذى لا يهتدى اليه غيره ، فقال :

انى على شغفى بما فى خُمْرها لأعفّ عما فى سراويلاتها [3]

وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا !

* * *

وأنهى الصاحب رسالته فى الكشف عن مساوىء المتنبى بقوله : هذه أيدك الله تعالى .. مقدمة علقتها ليستدل بها على ما بعدها ، لو أتيت بنظائرها مما أخرجت من شعره لأضجرت

---

(١) قال الواحدى : يقول لو قدرت لأظهرت ما وراء ظواهرهم من المعانى البهيمية ، واظهار ذلك باجرائهم مجرى سائر الحيوان بالركوب ، وانما كنت أفعل ذلك لأنه لا عقل لهم .

ويقول فى الرد على الصاحب فى نقده هذا البيت : وليس الأمر على ما قال ، لأن الشاعر اذا ذكر النــاس فانه يخرج من جملتهم كثيرا من الناس ، كما قال السرى الرفاء :

لا ان خير النــاس حيا وميتاأســـير ثقيف عندهم فى السلاسل

لم يفضل السرى احدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بهذا البيت ، وان كان أكد بقوله « حيا وميتا » .

(٢) السخب ـ بفتحتين ـ الصخب .

(٣) الخمر جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . قال الواحدى : سمعت أبا بكر الشعرانى يقول : هذا مما عابه الصاحب ابن عباد على المتنبى ، وانما قال المتنبى « عما فى سرابيلاتها » وهو جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمى . يريد المتنبى : مع حبى لوجوهها أعف عن أبدانهن ! .

القارىء ، وأمللت السامع ، فان دام هؤلاء الأغمار على النقار[1] لم يعدموا المادة ، ولم يفقدوا الزيادة :

فمن شاء فليعذر ومن شاء فليلم
وللصدق أولى من وفاق البهائم

* * *

ولو أعدنا النظر فى هذه الرسالة النقدية التى وصلت الينا لأعطتنا صورة صادقة لمقدرة الصاحب على مزاولة فن النقد الأدبى ، ولو تمحض الصاحب لصناعة النقد ، ولو كان أمامه من الوقت متسع لفاض قلمه بالعجب العجاب ، ولعد فى مقدمة النقاد العرب لأنه يفضلهم بأنه عالج هذه الصناعة وهو أديب يعالج أهم فنون الأدب وهما فن الشعر وفن الكتابة ، وهو فيهما يفضل صاحبيه الحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات اللذين قال الجاحظ انه لم يظفر بما طلب من علم الشعر الا عندهما وعند أمثالهما من أدباء الكتاب !

وقد اعترف للأدباء بالقدرة على نقد الأدب ، وفضلوا على غيرهم من العلماء فى فروع المعرفة الذين يتناولون فن الأدب من النواحى التى يحذقونها ويقفون عندها ، أو يتناولون هذا الفن عن طريق الفكر والنظر ، ومصداق ذلك ما رواه محمد بن يوسف الحمادى فى قوله : حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

---

(١) المناقرة والنقار المراجعة فى الكلام ، والأغمار الذين لم يجربوا الأمور .

وقد حضر البحترى ، فقال : يا أبا عبادة ، مسلم بن الوليد أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لأنه يتصرف فى كل طريق ، فى كل مذهب ، ان شاء جدّ ، وان شاء هزل ؛ ومسلم يلتزم طريقا واحدا لا يتعداه ، ويتحقق مذهبا لا يتخطاه .. فقال عبيد الله : ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا ! فقال البحترى : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وانما يعرف الشعر من دفع الى مضايقة ، فقال : وريت بك زنادى يا أبا عبادة ! لقد حكمت فى عمّيك حكم أبى نواس فى عمّيه جرير والفرزدق ، فانه سئل عنهما ، ففضل جريرا ، فقيل له ان أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ! فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة ، وانما يعرفه من دفع الى مضايق الشعر !

ولذلك كان الصاحب أجدر المتكلمين فى الأدب بالكلام ، وكانت آراؤه أجدر بالاعتبار والقبول .. وقد يكون السبب الذى دعا الصاحب ما قدمناه ، وهو سخطه على المتنبى لأنه لم يردّ على كتابه الذى أرسله اليه ، ولم يجبه الى ما أراد من شخوصه اليه ومديحه اياه . وقد يكون السبب فى تحبير هذه الرسالة ما ذكره الصاحب نفسه من تعصب جماعة ممن ينتسبون الى الأدب للمتنبى وشعره ، وذهابهم الى تبرئته من الأخطاء والعيوب ، ومغالاتهم فى الدفاع عنه والتعصب اليه . ولذلك كان أكثر كلام الصاحب موجها اليهم .

ومع ذلك فان الصاحب كما رأينا لم يقل ان شعر المتنبى ساقط كله ، أو مرذول أكثره ، بل ان الصاحب كما رأينا يمجد المتنبى

ويصفه بأنه « بعيد المرمى » ويصف شعره بأنه « كثير الاصابة فى نظمه » .. وكل ما ذكره سقطات معدودة ، وهنوات فى بعض أبياته، وهى تغفر فى هذا الخضم من الشعر الكثير الغزير الذى جمعه ديوانه الحافل ، وربما أتى — كما يقول الصاحب « بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء » ..

ويبدو أن أنصار المتنبى هم الذين استفزوا الصاحب كما ذكر ، ولم يرضوا حتى تحدوه ، وطلبوا اليه أن يثبت فى ورقة ما ما ينكره عليه ، ويقيد بالخط ما يذكره حتى تتصفحه العيون ...

واعتراف الصاحب بشاعرية المتنبى على الرغم من ذلك واضح لا يحتاج الى بيان ، فقد اعتذر عنه بقوله صراحة : أى عالم لا يهفو ؟ وأى صارم لا ينبو ؟ وأى جواد لا يكبو ؟ فقد جعله عالما ، وشبهه بالسيف الصارم ، والجواد السابق الكريم .. وقال الصاحب عن نفسه ان تطلب العثرات ليس من شيمته ، ولا تتبع الزلات من طريقته ..

* * *

ولكن مما لاشك فيه أن ما ذكره الصاحب من مآخذ على شعر أبى الطيب لا يسع أكثر الناس انصافا وميلا الى التسامح أن يقرّه على صحة رأيه ، ويسلّم له بنقده .

وقد ألمت هذه الرسالة الموجزة التى كان من الممكن أن تطول حتى تكون كتابا له اعتباره فى مراجع النقد وأصوله . ألمت بأكثر النواحى التى ينظر اليها فى العمل الأدبى والشعرى بصفة خاصة ،

فقد تناولت اللفظ وقيمته ، كما تناولت التركيب كله ، وعالجت الفكرة والمعنى وعالجت جو العمل الأدبي وظروفه .

فقد نقد الصاحب لفظ المتنبي المفرد وعبارته المركبة ، فذكر الغرابة والتنافر والتعقيد الذى أصيب به بعض شعر المتنبي ، كما نقد سوء المطالع التى جانب المتنبي فيها الذوق ، وتنبه الى الألفاظ الشعرية والألفاظ غير الشعرية ، والمعانى التى تقبح والتى تجمل ، والأسلوب الذى لا يناسب الغرض الذى يعالجه الشاعر ، كما نقد الابتذال فى الألفاظ والفحش فى المعانى ، فقد عاب « الاسبطرار » ولا سيما فى مراثى النساء ، وعاب الوجه « المكفن بالجمال » وقال انه « استعارة حداد فى عرس » ! وعاب التجار و « خفق النعال » بعد الجنازة ، وعاب تكرار الألفاظ التى يسبب اجتماعها تنافرا وثقلا ، وعاب التفاصح بالألفاظ النافرة المهملة كلفظ « التوراب » الذى كان المتنبي ولوعا به ، وكأنه يتخذه عوذة أورقية ، وعاب استعارته الغريبة فى « حلواء البنين » . وعاب كلمة حينئذ وهى صحيحة الا أنها ليست من لغة الشعر ، وعاب جمع الأخ على « آخاء » ولو وردت فى شعر الشماخ لاستثقل ، وعاب عليه « البوقات » و « الدولات » واستكراه الألفاظ وسقوط المعانى ، والاستعارات الخاطئة أو القبيحة كاستعارة المحول للخدود ، ومخالفته قواعد اللغة ..

ولقد اعتمد الصاحب فى نقده على ثقافته اللغوية والأدبية ، وعلى ذوقه الفنى الناضج فى أكثر ما عاب عليه أبا الطيب .

* * *

الا أننا وجدنا ظاهرة جديدة فى هـذا النقد ، وهى روح السخرية والمرح التى تفشت فى ثناياه ، مما لم نعهده فى كثير من فصول النقد الأدبى ، ولا شك أنها سخرية الفنـان التى تدفع القارىء الى التأمل ، وفى هذه السخرية العذبة التى تفيض فى ثنايا نقد الصاحب قليل من الكلمات اللاذعة التى تطغى عذوبتها على ما قد يكون فيها من الفحش .. ومن أمثال هـذه السخرية المرحة والفكاهة العذبة ، ولكنها سخرية لاذعة :

« ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب[1] أقرب الى الأفهـام منـه » ..

« قوله — له فيك — لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى[2] لنازعته المتصوفة دهرا بعيدا » ..

« هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها بمثابة « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » من القرآن ، و « اصدع بما تؤمر » من الفرقان » !

« قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ، ولكنها استعارة حداد فى عرس » !

« كان الناس يستبشعون .. حتى جاء هذا المبدع يقول » ..
« أظن المصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى » !

---

(١) رقية العقرب يشبه بها ما لا يفهم من الكلام ، وقد يقال « رقية الحية » فى الكلام الطويل الذى لا يفهم .
(٢) علمان من أعلام المتصوفة فى الاسلام .

« ما أدرى كيف عشق « التّوراب » حتى جعله عوذة فى شعره » ..

« ومن تعقيده الذى لا يشق غباره » ..

« ما أشك أن هذا البيت عند حملة عرشه .. » .

« هذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس » !

« هذا التحاذق منه كتغزل الشيوخ قبحا ، ودلال العجائز سماجة ، ولكن بقى من يسمع » !

« من افتتاحاته التى تفتح طريق الكرب ، وتغلق أبواب القلب » ..

«ومن شعره الذى يدخل فى العزائم ، ويكتب فى الطلسمات» ..

« قلب اللام الى النون فى « جبرين » أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة » ..

« لا أدرى أكان فى حومة الحرب ، أم فى سوق التمارين بالبصرة ؟ » ..

« هؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت على صدر الكعبة ، وينادى فى الناس : قعوا له ساجدين ! » .

« وقد غاص فأخرج جندلة » !

« وهذا السكر اذا جمع الى البرنى والأزاذ تم الأمر » !

ومن تهكمه المرير الذى يبدو فيه الفحش قوله : فأتى بأخزى الخزايا فى قوله :

« وفى الناس أمه ، فهل ينشط لركوبها ؟ » .

وأياما كان الأمر فان هذا اللون الساخر من النقد هو أحب الألوان الى القراء ، لأنه أسلوب خفيف يجلب المتعة ، ويسرّى عن الخاطر ، فـوق ما يستثير من الأذواق ، ويحركها فى طلب موضع النقص ، والوقوف على مظنة الطرفة ، فهو نقد أشـبه بالأدب فى عذوبة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وتلك هى طبيعـة الصاحب فى أدبه وفى أخلاقه ، كلها تفيض سماحة وسلاسـة وعـذوبة .

وكان لهذه الرسالة الموجزة التى كتبها الصاحب أثر كبير فى تنشيط حركة النقد الأدبى فدارت معارك نقدية كثيرة حول المتنبى بين خصومه الناقمين عليـه أو على أدبه ، وأنصـاره المتعصبين له ، وقد أفاد النقد الأدبى عند العرب من هذه المعارك التى ابتدأها الصاحب فوائد جليلة ، غنى بها هذا النقد ، وتعددت مناهجه ، واحتكت الآراء احتكاكا أشعل الجذوة المستترة فى النفوس ، والمواهب الكامنة فى الرءوس ، ومن أمهـات الآثار النقدية التى يعتز بها الفكر العربى ، وتزدان بها المكتبة الأدبية ، من آثار هـذه المعركة كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » الذى ألفه القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الذى قال فيه أحد الشعراء من أهل نيسابور :

أيا قاضـيا قد دنت كتبه   وان أصبحت داره شاحطه

كتاب الوسـاطة فى حسنه   لعقـد معاليك كالواسـطه

وقد كان القاضى أبو الحسن صنيعة الصاحب كما تقدم ،

قال الثعالبى [1] : ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى اظهار مساوىء المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره » فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جـودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح ..

(١) يتيمة الدهر ٤/٤ .

الفصل السادس

علم الصاحب

علم الصاحب

ذكر أبو حيان فى « الامتاع والمؤانسة » عن الصاحب أنه كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخـــذ من كل فن أطرافا ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب . قال : وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسـيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الالهى خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفى بديهته غزارة [1] ..

هذا ما ذكره أبو حيان ، وعد عرفنا ولوعه بانتقاص الصاحب ، وهو هنا لا يذكر من ثقافة الصاحب وعلمه الا الثقافة الأدبية ، كما اصطلح عليها فى أزمانهم ، فقد « نتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا » اذ كان الأدب كما كانوا يعرفونه « هو الأخذ من كل فن بطرف » .. ومعنى ما وصفه به أنه لم يكن صاحب ثقافة أصيلة ، أو معرفة عميقة يعدّ بها عالما بين علماء فن من تلك الفنون ، وحجة فى مسائله وادراك أصوله وفروعه .

ولكننا مع ذلك نقر أبا حيان على أن الثقافة المتميزة عنـــد

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٥٥ .

الصاحب هى الثقافة الأدبية وأن شهرة الصاحب فى ميدان الثقافة انما قامت على أنه أديب استوفى أداة الفن الأدبى واجتمع لديه ما يلزم لها من ألوان المعرفة . ولكن ليس معنى ذلك أن الصاحب كان أديبا فحسب ، ولكن معناه أن ثقافته الأدبية كانت الغالبة على سائر ألوان ثقافاته وان كان قد برّز فى فنون كثيرة أخرى من المعرفة ، كان عالما بها ، وكان حاذقا فى معرفتها ، وحجة فى مسائلها ، وكان صاحب قول فيها .

* * *

وقد وصفه كثير من المترجمين بوفرة العلم وتنوعه ، فقال الأنبارى فى نزهة الألباء : وأما الصاحب أبو القاسم اسماعيل ابن عباد فانه كان غزير الفضل متفننا فى العلوم ، أخذ عن أبى الحسين بن فارس .. وصنف تصانيف كثيرة كالوقف والابتداء ، والعروض ، وجوهرة الجمهرة .. ويحكى عنه أنه لما صنف كتاب « الوقف والابتداء » كان فى عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر الأنبارى ، وقال له : انما صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت فى سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت فى النيف وسبعين التى نظرت فيها ونظرت فى كتابك أيضا [1] ! . وقال فيه المولى محمد تقى المجلسى بقوله : هو أفقه أصحابنا المتقدمين والمتأخرين ، وكل ما يذكر من العلم والفضل فهو فوقه .. وهو رئيس المحدثين والمتكلمين

---

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٠ .

علامة . وعن تاريخ الوزراء : كان الصاحب الكافى اسماعيل بن عباد وحيد عصره وفريد دهره فى العلم والفضل والفهم والفطنة ، مقدما فى اصابة الرأى والتدبير واضاءة الخاطر ، وصفاء الضمير[1] ..

* * *

فهذه الأقوال الكثيرة تدل على أن الصاحب كان عالما كما كان أديبا ، وان غلب أدبه على علمه ، وربما كان ينقص بعض هذه الأقوال التوضيح اللازم الذى يدل على ما تبحّر فيه ، وجهوده الممتازة التى بذلها فى كل أصل . وفى كل فرع .

* * *

وقد عرف عن الصاحب أنه كان من أصحاب علم الكلام ، وأنه كان من فريق المعتزلة فقد كان يقول « المذهب مذهب الاعتزال » . والمعتزلة معدودون فى نظر كثير من الباحثين هم فلاسفة الاسلام ، ولهم آراء كثيرة مفصلة فى كتب الملل والنحل ، وقد تفرقوا الى فرق كثيرة ، ومن أقوالهم القول باستحالة رؤية الله عزّ وجلّ بالأبصار ، ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عزّ وجلّ وحدوث أمره ونهيه ، وكلهم يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث وأكثرهم يسمون كلامه مخلوقا ، ومنها قولهم ان العبد يكسب أعماله ولأجل هذا سموا أنفسهم أو سماهم المسلمون (قدريّة) . ومنها اتفاقهم على دعواهم فى

---

(١) أورد صاحب « أعيان الشيعة » فى الجزء الحادى عشر ، طائفة من أقوال المترجمين فى علم الصاحب .

الفاسق من أمة الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، وهى أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر ، ولذلك سماهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها [1] ..

والمعتزلة يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » . وهم أهل فصاحة وبيان وجدل ومناظرة .

وقد كان الصاحب واحدا من أولئك المعتزلة أهل العدل والتوحيد ، ومن القائلين بخلق القرآن ، وفى كلام الصاحب ما يؤيد اعتناقه مذهبهم ، وسيره فى طريقهم ، حتى ليظهر أثر هذا فى بعض شعره الذى يضمنه اشارات الى مسائل من أقوالهم التى يعتقدها ، فمن ذلك قوله :

ولما تناءت بالأحبـــة دارهم
وصرنا جميعا من عيـان الى وهم
تمكن منى الشـوق غـير مسامح
كمعتزلى قد تمكن من خصـــم

وقوله :

كنت دهرا أقول بالاســـتطاعة
وأرى الجبر ضــــلة وشناعه
ففقـدت استطاعتى فى هـوى ظب
ى فسمعا للمجـــبرين وطـــاعه

(١) راجع فى سائر آرائهم وفرقهم كتاب « الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم » لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ فى الفصل الثالث ، صفحة ٩٣ وما بعدها .

والمجبرة أو الجبرية بعكس القدرية ، ينفون استطاعة العبد قبل وبعد ووقت الفعل . وكقوله :

بالنص فاعقد ان عقـــدت يمينـــا
كل اعتقـــاد « الاختيار » رضينا
مكن لقـــول الهنـــا تمكينا

وذلك أن المعتزلة يقولون ان العبد يخلق أفعاله أو يختارها ، ولا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله تعالى ، فليس الانسان مجبرا ، وأثبتوا له قوة واستطاعة بها يفعل ما اختار فعله [1] وكذلك يذكر الصاحب « العدل والتوحيد » فى شعره ، ويقول انهما عقيدته ومذهبه الذى يدين به ، وهذا ما يقوله المعتزلة الذين يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » [2] ، كقوله :

« العدل والتوحيد » والامامه   والمصطفى المبعـوث من تهامه
وسيلتى فى عرصـة القيـامه

وكقوله :

لو شق قلبى يرى وســـطه   سطران قد خطـا بلا كاتب
« العدل والتوحيد » فى جانب   وحب أهـل البيت فى جانب

وكقوله :

« العدل والتوحيد » مذهبى الذى
يزهى به الايمان والاســـــلام

---

(١) راجع (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم ٣/١٤ .
(٢) راجع (الملل والنحل) للشـــهرستانى ١/٥٠ على هامش (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) .

وولايتى لمحمـــــد ولآلـــه

دينى وحصن الدين ليس يـــــرام

فهناك حبل الله مظفور القـــوى

وعليه من سر القضـــــاء ختــام

وكقوله ، وذكر « العدل » وحده :

نعرفت بالعــــدل فى مذهبى   ودان بحسن جدالى العـــراق

فكلفت فى الحب مــالم أطق   فقلت بتكليف مـــا لا يطاق

وقد كان الصاحب يدعو لمذهبه ، ويشجع عليه ، كما روى الثعالبى عن أبى الحسن الشقيقى البلخى أن الصاحب كتب فى توقيعه الى رقعة اليه : « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان أقمت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر » [1] ..

ومن المسائل الكبرى التى أثارها المعتزلة ، وكثر فيها البحث والمناظرة قولهم بأن القرآن مخلوق ، وقد أجمع أهل الاسلام كلهم أن لله تعالى كلاما ، وعلى أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ، وكذلك سائر الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور والصحف ، فكل هذا لا اختلاف فيه بين أحد من أهل الاسلام ، ثم قالت المعتزلة ان كلام الله تعالى صفة فعل مخلوق ، وقالوا ان الله عز وجل كلم موسى بكلام أحدثه فى الشجرة . وقال أهل السنة ان كلام الله عزّ وجلّ هو علمه لم يزل ، وأنه غير مخلوق ، وهو قول الامام أحمد بن حنبل وغيره رحمهم الله ، وقالت الأشعرية

---

(١) يتيمة الدهر ١٩٧/٣ .

كلام الله تعالى صفة ذات لم تزل غير مخلوقة ، وهو غير الله تعالى ، وخلاف الله تعالى ، وهو غير علم الله تعالى ، وأنه ليس لله تعالى الا كلام واحد[1] .

وقد تعصب لرأى المعتزلة ، وقولهم ان « القرآن مخلوق » طائفة من الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم والواثق الذين عملوا على أن يحملوا العلماء والفقهاء على الأخذ بهذا القول ، وقد كانت فتنة كبيرة أصابت أضرارها عددا كبيرا من فقهاء المسلمين وعلمائهم ، وعذب بسببها كثير من فضلائهم الذين كانوا لا يقرون القول بهذه البدعة التى لا أثر لها فى تقديم أو تأخير أو شك أو يقين ، مع أن المسلمين جميعا كانوا على القول بأن القرآن كلام الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

* * *

وجرت فى هذه الفتنة مناظرات كثيرة بين الحكام والفقهاء بأمر الخلفاء ليحملوا الناس على الأخذ بقولهم فى خلق القرآن ، فمن تابع هواهم أقرّ على عمله ، ومن أصرّ على مخالفتهم نحّى عن وظيفته ان كان صاحب وظيفة ، أو سجن وعذب ان لم تكن له وظيفة . ومن أمثلة ذلك ما كتب المأمون الى اسحاق بن ابراهيم عامله على بغداد (محافظها) وكان المأمون اذ ذاك يغزو ، فرأى أن يستعين بسلطانه فى رد الفقهاء الى رأيه ، وقال فى ختام كتابه اليه « وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ،

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣/٤ .

ولا نصيبا من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا تولية شيء من أمر الرعية » فجمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء ، وهذا نموذج من أجوبتهم لاسحاق [1] :

قال اسحاق لبشر بن الوليد :

— ما تقول فى القرآن ؟

— قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة !

— فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ..

— أقول : القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— الله خالق كل شيء !

— أما القرآن شيء ؟

— هو شيء !

— فمخلوق هو ؟

— ليس بخالق !

— ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— ما أحسن غير ما قلت ، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك !

وقال لعلى بن أبى مقاتل :

— ما تقول يا على ؟

(1) تاريخ الأمم الاسلامية ٣/٢١٣ .

— قد سمعت كلامى لأمـير المؤمنين فى هذا غير مـرة ، وما عندى غير ما سمع .

— القرآن مخلوق ؟

— القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا !

— هو كلام الله ، وان أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا .

وقال لأبى حسان الزيادى : القرآن مخلوق هو ؟

— القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين امامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى امامته امامة ، وان أمرنا ائتمرنا ، وان نهانا انتهينا ، وان دعانا أجبنا !

فأعاد اسحاق السؤال : القرآن مخلوق هو ؟ . فأعاد حسان مقالته .

قال اسحاق : ان هذه مقالة أمير المؤمنين .

فقال حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين و لايأمر بهـا الناس ، ولا يدعوهم اليها وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى به ، فأنت الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء ، فان أبلغتنى عنه بشىء صرت اليه !

قال اسحاق : ما أمرنى أن أبلغك شيئا !

فقال حسان : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها !

وقد رأينا فى هذه المحاورات اصرارا على عدم الانسياق فى تيار هذه البدعة الجديدة ، وقد كان اصرار كثير من أولئك العلماء على آرائهم والوقوف فى وجه أولئك الذين حاولوا حملهم على القول بما يرون وما نالوا بسبب ذلك من الايذاء الذى تحملوه راضين مدعاة للفخر ، والاعتراف لهم بالتضحية فى سبيل الفكرة التى يؤمنون بها .

* * *

ويهمنا هنا أن الصاحب كان يدين بقوله المعتزلة ، ويذهب مذهبهم فى القول بخلق القرآن ، بل انه كان يسلك السبيل نفسها التى سلكها أولئك الخلفاء العباسيون وأتباعهم فى حمل الناس على القول بما يقولون ، فكان يعقد المناظرات ويناقش العلماء فى هذه المسألة اقتداء بمثيريها والمتعصبين لها . وقد روى أبو حيان شيئا من هذه المناظرات ، فقال : كنت بالرىّ سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة ، قد ورد فى مهمات وحوائج . وعقد لابن عباد مجلس جدل ، وكنا نبيت عنده فى داره فى بابشير [1] ، ومعنا الضرير أبو العباس القاضى ، وأبو الجوزاء البرقى ، وأبو عبد الله النحوى الزعفرانى ، وجماعة من الغرباء ، فرأى الصاحب فى مجلسه وجها غريبا صاحب مرقّعة ،

---

(١) بابشير ــ بسكون الباء الثانية وكسر الشين وياء ساكنة ــ قرية على مقدار فرسخ من مرو .

فأحب أن يعرفه ويعرف ما عنده ، وكان الشاب من أهل سمرقند يعرف بأبى واقد الكرابيسى . فقال له : يا أخ انبسط واستأنس وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشرب مرىء ، ولن ترى الا البر ، بم تعرف ؟ فقال : بدقّاق ! قال : تدقّ ماذا ؟ قال : أدق الخصم اذا زاغ عن سبيل الحق !

فلما سمع الصاحب هذا تنكر وعجب ، لأنه فجىء ببذيئة . فقال : دع هذا وتكلم ، فقال الشاب : أتكلم سائلا ؟ ما بى والله حاجة الى مسألة ! أم أتكلم مسئولا ؟ فوالله انى لأكسل عن الجواب ! أم أتكلم مقررا ؟ فوالله انى لأكره أن أبدد الدر فى غير موضعه ، وانى لكما قال الأول :

لقد عجمتنى العاجمات فلم تجد (١)
هلوعا ولا لين المجسّة فى العجمِ
وكاشفت أقواما فأبديت وصمهم
وما للأعادى فى قناتى من وصمِ

فقال له : يا هذا ، ما مذهبك ؟ قال : مذهبى ألا أقر على الضيم ، ولا أنام على الهون ، ولا أعطى صمتى لمن لم يكن ولىّ نعمتى ، ولم تصل عصمته بعصمتى . قال : هذا مذهب حسن ، ومن ذا الذى يأتى الضيم طائعا ؟ ويركب الهون سامعا ؟ ولكن ما نحلتك (٢) التى تنصرها ؟ قال : نحلتى مطوية فى صدرى ،

(١) أى اختبرتنى وامتحنتنى ، والهلوع الجزوع .
(٢) أى ما طريقتك ؟ وما مذهبك ؟

لا أتقرب بها الى مخلوق ، ولا أنادى عليها فى سوق ، ولا أعرضها على شاكّ ، ولا أجادل فيها المؤمن !

قال له الصاحب : فما تقول فى القرآن ؟ قال : ما أقول فى كلام رب العالمين الذى يعجز عنه الخلق اذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبحثوا عن خافى سره وعجائب حكمته ؟ فكيف اذا حاولوا مقابلته بمثله ؟ وليس له مثل مظنون ، فضلا عن مثل متيقن ؟

فقال له ابن عباد : صدقت ، ولكن أمخلوق أم غير مخلوق ؟

فقال : ان كان مخلوقا كما يزعم خصمك ، فما يضرك ؟ .

فقال الصاحب : يا هذا ، أبهذا تناظر فى دين الله ؟ وتقوم على عبادة الله ؟

قال : ان كان كلام الله نفعنى ايمانى به ، وعملى بمحكمه ، وتسليمى لمتشابهه ، وان كان كلام غيره ، وحاش لله من ذلك ، ما ضرنى !

فأمسك عنه ابن عباد وهو مغيظ ، ثم قال له « أنت لم تخرج من خراسان بعد ! » . فمكث الرجل ساعة ثم نهض ، فقال له ابن عباد : « الى أين يا هذا ؟ قد تكسر الليل [1] ، بت ها هنا » . فقال : « أنا بعد لم أخرج من خراسان ، كيف أبيت بالرىّ » ! ؟ وخرج فارتاب الصاحب به ، فقفّاه بصاحب له ، وأوصاه بأن يتبع خطاه ، ويبلغ مداه ، من حيث لا يفطن له ولا يراه ، فما زاغ [2]

---

(١) تكسر الليل أى مضى منه وقت ليس بالقليل .

(٢) ما زاغ أى ما تحول وما فارق .

الرجل عن باب ركن الدولة ، حتى وصل ودخل فى ذلك الوقت الفائت اليه .

فلما قيل لابن عباد ذلك طار نومه ، وقال : أى شيطان هبط علينا ، وأحصى ما كنا فيه بلسان سليط (١) ، وطبع مريد (٢) ؟

وكان هذا الكرابيسى عينا لركن الدولة بخراسان ، فلذلك كان قريبا ، وكان أحد رجالاته (٣) .

ويبدو أن الصاحب لم يأخذ هـذه المسألة مأخذ خلفاء بنى العباس فى تعسفهم وصرامتهم مع مخالفيهم فى القول بخلق القرآن ، فان فى بعض النصوص والروايات ما يدل على عدم التشدد فى رأيه ، بل كان يتخذ ممن يخالفونه فى القول أصدقاء وسمارا ، لا يكرههم على الأخذ بقوله أو الانضمام الى جماعته ، كما روى أن قوما قالوا للصاحب : لو كان القرآن مخلوقا لجاز أن يموت ، ولو مات القرآن فى آخر شعبان ، بماذا كنا نصلّى التراويح فى رمضان ؟

فقال الصاحب : « لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لى بعدك ، ولا نصلّى التراويح ونستريح » ..

* * *

ولا يبدو فى هذا الجواب القسوة والصرامة التى كنا نتوقعها من حاكم مستبد برأيه يوجب على الناس الأخذ به ، ولا يمكنهم من مخالفته ، .. وان دخل بعضهم فى مذهبه تقربا اليه كما يروى

---

(١) سليط أى ذو سلاطة وقوة .

(٢) مريد أى عات جبـار . (٣) معجم الأدباء ٦/٢١٣

أبو حيان فى قوله : ودخل الناس فى مذهب ابن عباد ، وقالوا بقوله ، رغبة فيما لديه . واجتهد الصاحب بالحسين المتكلم الكلابى أن ينتقل الى مذهبه ، فقال الحسين : « دعنى أيها الصاحب أكن مستحدا لك [1] ، فما بقى غيرى ، فان دخلت فى المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه ، ويبدو للناس عواره » [2] !

فضحك الصاحب وقال : قد أعفيناك يا أبا عبد الله ، وبعد ، فما نبخل عليك بنار جهنم ، اصل بها كيف شئت !

وقد رأينا فى هذه الأمثلة اشارات الى المذهب واعتناق الصاحب اياه ، ولكنا لم نقرأ مناظرة كاملة نرى فيها رأيا واضحا أو فكرة مستقلة يمكن أن تنسب اليه ، وانما رأينا كلاما أشبه بالتسلية وأقرب الى الفكاهة منه الى الجدل والمناظرة التى تقرع فيها الحجة بالحجة ، ويعدّ بها أصحابه من دعائم المذهب وأركانه .

ومما لا شك فيه أن انتساب الصاحب الى المعتزلة كان موروثا ، وأنه أخذ تعاليمهم وعرف مبادئهم عن أبيه الذى كان معتزليا ، والذى صنف كتابا فى « أحكام القرآن » نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه ، وروى عنه ابنه الوزير أبو القاسم (الصاحب) ، وابن مردويه الأصفهانى وغيرهما ..

* * *

---

(١) استحد : غضب ، فمستحد اسم مكان ، يريد دعنى لأكون موضع غضبك ، كأنه يريده سببا للغضب .

(٢) العوار بفتح العين وضمها : العيب .

ومعنى هذا أن الصاحب كانت له ثقافة كلامية ، وان لم يكن معدودا من أعلام المتكلمين ، فاختلط فنّه الأدبى وأسلوبه الكتابى بطرائق المتكلمين ، كما اختلط كلامه ومناظرته وجدله بفنه الكتابى ، وهذا ما يصدق عليه قول أبى حيان الذى أسلفناه « وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب » ..

ولكننا قد وجدنا مع هذا قولا بنفوره من الفلسفة وعلم الكلام ، وهو ما ذكره أبو الفدا فى تاريخه عن الصاحب فى قوله انه كان « يحب العلوم الشرعية ، ويبغض الفلسفة وما شابهها من علم الكلام والآراء البدعية »[1] ..

وقد ردّد هذا القول بعض المترجمين ، وأرجع بعضهم سخطه على أبى حيان واقصاءه عن حضرته الى تعلق أبى حيان بالفلسفة ونفور الصاحب منها ومن منتحليها ، كما قال صاحب لسان الميزان : « وكان الصاحب يبغض من يميل الى الفلسفة ، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدى ، فحمله ذلك على أن جمع مصنفا فى مثالبه أكثره مختلق » وقال : « وكان صدوقا الا أنه كان مشتهرا بمذهب المعتزلة داعية اليه » ..

ويبدو أن الاشتهار بالاعتزال كان تهمة فى نظر غير المعتزلة ، بل كان عندهم كالزندقة والالحاد ، وهذا ما يظهر فى قوله « الا أنه كان مشتهرا بمذهب المعتزلة داعية اليه » بعد قوله فيه « انه كان صدوقا » فقد استثنى الكاتب منه مالم يكن يرضاه له . وحاول بعض مترجميه ممن كانوا يتعصبون له أن يبرئوه من تهمة

(١) البداية والنهاية ٣١٥/١١ .

الاعتزال ، لأن الاعتزال كان فى رأيهم منقصة وعيبا ، فقال صاحب أمل الآمل « وبعض العامة يتهمه بالاعتزال وهو برىء منه » ! وكان هذا رأى سائر طبقات المتكلمين فى المعتزلة ، حتى جعل البغدادى عنوان الفصل الثالث من فصول كتابه الفرق بين الفرق « فى بيان مقالات فرق الضلال من القدرية المعتزلة عن الحق »[1] ..

ولقد كان كل فريق من المتكلمين يكفّر غيره من المتكلمين أو يصفهم بالذندقة والالحاد حتى اتهم العلماء والمفكرون بعضهم بعضا فى عقائدهم « وذلك أن الطريقة التى قد لزموها وسلكوها لا تفضى بهم الا الى الشك والارتياب ، لأن الدين لم يأت بكم ولا كيف فى كل باب » . قال أبو حيان[2] : ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ، والقلب الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة ، ولم يأت الجدل بخير قط .. يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ، ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده قلبا خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دمعة ، وان كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون ولا يناظرون ولا يكرمون ولا يفضلون خير من هذه الطائفة ، وألين جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكر للمعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذ بالله من صغير الذنب ، وأرجع الى الله بالتوبة .. قال : ولم أر متكلما فى مدة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفا ، أو أقلع عن كبيرة رغبة.

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٩٣ .
(٢) الامتاع والمؤانسة ١/١٤٢ .

يتناظرون مستهزئين ، ويتحاسدون متعصبين ، ويتلاقون متخادعين، ويصنفون متحاملين » ..

والصاحب وان كانت منزلته فى علم الكلام ما أسلفنا بحيث لا يرقى الى درجة الأعلام أصحاب الرأى فى هذا الفن ، وأهل الجدل والمناظرة الا أن له الآثار والمصنفات فى العلوم التى لا تنفرد بالتفكير ، وانما يتصل فيها المعقول بالمنقول ، وتظهر فيها معالم النص والرواية بأثر الفكر والدراية ، فقد كان عالما بالتوحيد وعالما بالأصول وعارفا بالمذاهب والفرق ، وينبغى ألا تتجاوز هذه الدائرة فى وصفه بالكلام دائرة العلم والمعرفة ، لا دائرة التفكير ، وفرق بين العالم الذى يعرف والمفكر الذى يصحح ويستنبط !

فمن آثاره التى تتصل بهذا الجانب كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ، وكتاب « نهج السبيل » فى الأصول ، وكتاب الزيدية ، وكتاب « الامامة » الذى يذكر فيه فضائل الامام على ابن أبى طالب ويثبت فيه صحة امامة من تقدمه من الخلفاء الراشدين .

أما مناظراته الكلامية فاننا لم نر فيما قرأناه منها تفصيلا يدل على أنه من أهل الرأى ؛ وقد ذكر شيئا منها أبو حيان التوحيدى ذكرا أراد به التهوين من شأنه ، واظهار طربه للثناء والشهادة له أو لبلاغته دون أن يعرض علينا شيئا من كلامه الذى دفع به حجة خصمه ، وأثبت به الرأى الذى يدافع عنه وينتصر له ، فقد روى أن الصاحب ناظر بالرى اليهودى رأس الجالوت [1] فى

(١) هى هيئة دينية عندهم .

اعجاز القرآن ، فراجعه اليهودىّ فيه طويلا ، وما تنه قليلا ، وتنكر عليه حتى احتدّ وكاد يتقد .

فلما علم أنه قد سجر تنوره ، وأسعط أنفه ، احتال طلبا لمخادعته ، ورفقاً به فى مخاتلته ، فقال اليهودى : أيها الصاحب ، لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه ؟ فان كان النظم والتأليف بديعين ، وكان البلغاء فيما تدّعى عنه عاجزين ، وله مذعنين ، فها أنا أصدق عن نفسى ، وأقول ما عندى : ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده[1] به نظما ونثرا هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك سيستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة » .

* * *

هذا الحديث من المعقول أن يصدر عن اليهودى المنكر للقرآن المتملق للصاحب فى سبيل تحقيق غايته من الطعن فى كتاب الله . ولكن ليس من المعقول أن يرضى الصاحب أو ينخدع بهذه الترهات ، ولو أثنى عليه ألف ثناء ، ولكن أبا حيان على طريقته يذكر وقع هذا الخداع فى نفس الصاحب وسكوته عليه فى قوله « فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد [2] ، وسكن عن حركته ، وانحمص [3] ورمه به ، وقال : ولا هكذا يا شيخ ، كلامنا حسن

(١) أى تفاجىء وتباغت .

(٢) سكن بعد حدته ، وخمد بعد ثورته .

(٣) انحمص الورم تضاءل وانقبض .

وبليغ ، وقد أخذ من الجزالة حظا وفرا ، ومن البيان نصيبا ظاهرا. ولكن القرآن له المزية التى لا تجهل ، والشرف الذى لا يخمد ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف » ؟! هذا كله يقوله وقد خبا حميّه [١] ، وتراجع مزاجه ، وصارت ناره رمادا ، مع اعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أسارير وجهه ، لأنه رأى كلامه شبيها بالقرآن لدى اليهود وأهل الملل [٢] ..

* * *

ولقد اقتصر التوحيدى على هذا الوصف ، ولم يورد شيئا مما يتصل بالمناظرة وما دار فيها من الحجاج ووجوه الرأى ، لأنه يريد أن يصل الى غايته الكبرى من النيل من الصاحب ولو كان ذلك على حساب عقيدته فى أمر هو أهمّ ما يتصل بها ، وهو اثبات اعجاز القرآن . وقد أورد التوحيدى فى الامتاع نتفه صغيرة تتصل بالصاحب ، ونهجه فى بعض مسائل كلامية ، وذلك فى قوله : وكان ابن عباد قال لكاتبه مرة — أعنى ابن حسولة[٣] — فى شىء جرى .. « نعم ، العالم عتيق ، ولكن ليس بقديم » أى : لو كان قديما لكان لا أول له ، ولما كان عتيقا كان له أول . ومن أجل الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم ، واستحسنوا هذا الاطلاق .

---

(١) انطفأ وهدأ وسكن .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٢ .

(٣) هو أبو القاسم بن حسولة ، قيل كان يعرض الأوراق على الصاحب بن عباد .

قال التوحيدى : وقد سألت العلماء البصراء عن هذا الاطلاق ، فقالوا : ما وجدنا هذا فى كتاب الله عز وجل ، ولا كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا فى حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا سعيد السيرا فى الامام : هل تعرف العرب أن معنى « القديم » مالا أوّل له ؟ فقال : هذا ما صحّ عندنا عنهم ، ولا سبق الى وهمنا هذا منهم ، الا أنهم يقولون «هذا شىء قديم» و « بنيان قديم » ، ويسّرحون وهمهم فى زمان مجهول المبدأ [1] ..

* * *

ونعتقد بعد كل هذا أن ما أوردناه عن علم الصاحب بالكلام فيه ما يلقى الضوء على مدى علمه بالكلام ، ومدى حذقه لمناهج المتكلمين . ومن آثار هذه المعرفة حكمه على بعض أعلام المتكلمين حكما وصفه العارفون بالاصابة والقدرة على التمييز ، قال ابن الأهدل « ومن كلام الصاحب فى وصف الثلاثة المتعاصرين أصحاب أبى الحسن الأشعرى : الباقلانى نار محرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفرائينى بحر مغرق » قال ابن عساكر : كأن روح القدس نفث فى روعه بحقيقة حالهم [2] .

* * *

وكان الصاحب فى مقدمة الفقهاء المحدثين ، وكانت له محبة ظاهرة بالعلوم الشرعية ، وذكر فى أخباره أنه كان يناظر ويدرس ويصنف ويملى الحديث ، ووصف بأنه كان من أفقه فقهاء الشيعة

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٢٥ .
(٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٣/١١٦ .

المتقدمين والمتأخرين ، وقد سمع الحديث من المشايخ الجياد العوالى ، وعقد له فى وقت مجلس للاملاء ، فاحتفل الناس لحضوره ، وحضره وجوه الأمراء ، فلما خرج لبس زى الفقهاء ، وأشهد على نفسه بالتوبة والانابة مما يعانيه من أمور السلطان .. ولكن كان يخالط السلطان وهو تائب مما يمارسونه ، واتخذ بناء فى داره سماه بيت التوبة ، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته ، واستملى عليه جماعة لكثرة مجلسه ، فكان فى جملة من يكتب عنه ذلك اليوم القاضى عبد الجبار الهمذانى وأضرابه من رءوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين [١] ..

وحدث ياقوت عن أبى الحسن على بن محمد الطبرى الكيّال قال : لما عزم الصاحب بن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوما متطلسا [٢] متحنكا بزى أهل العلم ، فقال : « قد علمتم قدمى فى العلم » ، فأقروا له بذلك ، فقال : وأنا متلبس [٣] بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغرى الى وقتى هذا ، من مال أبى وجدى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات [٤] ، أشهد الله وأشهدكم أنى تائب الى الله من ذنب أذنبته » واتخذ لنفسه بيتا وسماه « بيت التوبة » . ولبث أسبوعا على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج فقعد للاملاء ، وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى

---

(١) البداية والنهاية ١١/٣١٥ .

(٢) أى لابسا الطيلسان ، ويظهر أنه كان حينذاك ثوب الكبراء والعلماء ، وهو لفظ معرب أصله « تالسان » .

(٣) أى مخالط له ملازم .

(٤) جمع تبعة ، وهى ما يعلق بالمرء من شىء لا يرضى عنه .

الواحد ينضاف اليه ستة ، كلٌ يبلّغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضى عبد الجبار [1] ..

وقد عرف عن الصاحب أنه كان من أعلام الحديث ، قال السمعانى فى الأنساب ان الصاحب سمع الأحاديث من الأصبهانيين والبغداديين والرازيين ، وحدّث ، وكان يحث على طلب الحديث وكتابته ، وروى عن ابن مردويه أنه سمع الصاحب يقول : من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام . وكان يقول شاركت الطبرانى فى اسناده ، ويقال انه كان ينتقد البخارى ولا يعوّل عليه . ولو لوعه بالحديث الشريف كان يكثر من الاقتباس منه فى شعره كقوله :

أقول وقد رأيت له سحابا ... من الهجران مقبلة الينا
وقد سحت عزاليها [2] بسكب ... « حوالينا الصدود ولا علينا »

وكقوله فى الغزل :

ومهفهف يغنى عن القمر ... قمر الفؤاد بفاتن النظر [3]
خالسته تفاح وجنته ... من غير ابقاء ولا حذر
فأخافنى قوم فقلت لهم ... « لا قطع فى ثمر ولا كثر » [4]

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٥٢ .

(٢) العزالى ـ بفتح اللام وكسرها ـ جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية ونحوها .

(٣) امراة مهفهفة اى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد ـ على زنة طرب ـ تحير .

(٤) الكثر ـ بفتحتين ـ جمار النخل .

وقوله :

قال لى ان رقيبى سيىء الخلق فداره
قلت : دعنى وجهك « الـ جنة حفت بالمكاره »

* * *

أما اللغة وعلوم الأدب ، فقل فى علم الصاحب بها وحذقه اياها ما شئت ، فقد كان حجة فيها كأعلامها الكبار الذين يوثق بهم فيما يقولونه ويوردونه ، وقد ألف فى اللغة كتابه الذى سماه « المحيط » وقد ذكر ياقوت أنه عشر مجلدات ، وقال ابن خلكان انه فى سبع مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، وكثر فيه الألفاظ ، وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر [1] . وكذلك ألف فى اللغة كتابه « جوهرة الجمهرة » .. وقد أفاد من الصاحب فى علم العربية جماعة فى مقدمتهم أبو منصور الثعالبى فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » وعدّه فى أعلام اللغة وأئمتها ، فذكر فى مقدمة هذا الكتاب أنه « انتجع من الأئمة مثل الخليل ، والأصمعى ، وأبى عمر والشيبانى ، والكسائى ، والفراء ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، وأبى عبيد ، وابن الأعرابى ، والنضر بن شميل ، وأبوى العباس [2] ، وابن دريد ، ونفطويه ، وابن خالويه ، والخارزنجى ، والأزهرى . ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٦٠ ووفيات الأعيان ٢/٢٢٥ .

(٢) يقصد أبا العباس محمد بن يزيد المبرد ، وابا العباس احمد بن يحيى المشهور بثعلب .

الى سهولة البلاغة ، كالصاحب أبى القاسم « اسماعيل بن عباد » ، وحمزة بن الحسن الأصفهانى ، وأبى الفتح المراغى ، وأبى بكر الخوارزمى ، والقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، وأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى ، واجتلى من أنوارهم ، واجتنى من ثمارهم ، واقتفى آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع [1] .. ونقل الثعالبى عن الصاحب فى هذا الكتاب فصلا فى ترتيب الشرب ، قال فيه : « ترتيب الشرب (عن الصاحب أبى القاسم) : أقلّ الشرب التغمر ، ثم المصّ والتمزمز ، ثم العبّ والتجرّع . وأول الرىّ النضح ، ثم النقع ، ثم التحبب ، ثم التفنح [2] .. وقال فى الباب السابع والعشرين فى الحجارة : قد جمع أسماءها الأصبهانى فى كتاب الموازنة ، وكسّر الصاحب « ابن عباد » على تأليفها دفيتراً ، وجعل أوائل الكلمات على توالى حروف الهجاء الا مالم يوجد منها فى أوائل الأسماء ، وقد أخرجت منها ومن غيرها ما استصلحته للكتاب ، ووفيت التفصيل حقه باذن الله عز اسمه [3] .

تلك اشارات الى حظ الصاحب من علم اللغة وفقهه فيها ، وفى تلك الاشارات ما يكفى للدلالة على وفور حظه ، وسعة معرفته ، وبهذا الحظ كان الصاحب أديبا يستطيع أن يتفهم الأدب

---

(١) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى : ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٩٢ .

ويتذوقه وينقده ، وكيف يتخير لأدبه المنظوم والمنثور ، وكيف يفيد غيره من طلاب اللغة تعليما وتأليفا .

* * *

أما علم النحو والصرف والعروض ، فقد كان تحصيل الصاحب منها لا يقل عن تحصيله من علم اللغة ، وذلك راجع الى أسباب أهمها الرغبة الدافعة ، ثم المجالسة النافعة ، ثم خزانة كتبه العامرة التى كان ينوء بحملها أربعمائة جمل ، والتى حدث أبو الحسن البيهقى أنه وجد فهرست تلك الكتب عشر مجلدات .

وكانت رحلة الصاحب الى بغداد فرصة للبوح بمكنون معرفته ، فقد اتصل بكبار علمائها وناقشهم وحاورهم ، فشهدوا له بالمعرفة والحذق ، وأفاد من عملهم ما استطاع وما امتدّ وقته فى دار السّلام ، وقد حدّث الصاحب فى كتابه « الروزنامجه » عن شىء مما حدث له فى بغداد فى قوله : وانتهيت الى أبى سعيد السيرافى [1] ، وهو شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر الحظ من علوم الأوائل ، فسلمت عليه ، وقعدت اليه ،

---

(١) كان يدرس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض ، أفتى فى مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة ، فما وجد له خطأ ولا عثر له على زلة ، وقضى ببغداد ، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة ، صام أربعين سنة ، وكان زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أجرا انما كان يأكل من كسب يمينه ، شرح كتاب سيبويه ، وله كتب كثيرة منها الوقف والابتداء المدخل الى كتاب سيبويه ، صنعة الشعر والبلاغة . توفى فى خلافة الطائع سنة ٣٦٨ هـ .

وبعضهم يقرأ الجمهرة [1] ، فقـرأ « ألمقت » ، فقلت : انما هو « لمقت » [2] . فدافعنى الشيخ ساعة ، ثم رجع الى الأصل ، فوجد حكايتى صحيحة .

واستمر القارىء حتى أنشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت فى طللـــــه كدت أقضّى الغداة من جلله

فقلت : أيها الشيخ ، هذا لا يجوز ، والمصراعان على هذا النشيد يخرجان من بحرين ، لأن :

رســـم دار وقفت فى طلله [3] كدت أقضى الغداة من جلله

فاعـــلاتن . مفاعلن . فعلن مفتعلن . مفعــلات . مفتعلن

فذاك من الخفيف ، وهذا من المنسرح !

فقال أبو سعيد : لم لا تقول الجميع من المنسرح ، والمصراع الأول مخزوم ؟

فقلت : لا يدخل الخزم هذا البحر ، لأنه أوله « مستفعلن . مفاعلن » هذه مزاحفة عنه ، واذا حذفنا متحركا بقّينا ساكنا ، وليس فى كلام العرب ابتداء به ، وانما هو :

* كدت أقْضِى الغداة من جلله *

بتخفيف الضاد [4] ، فأمر بتغييره ، ودفعنى الى جنبه .

قال : وابتـــدأ فقرىء عليه من كتـــاب « المقتضب » باب

---

(١) كتاب من أهم كتب اللغة لأبى بكر بن دريد .

(٢) اللمق ــ بفتح فسكون ــ الكتابة والمحو من الأضــداد ، وضرب العين بالكف خاصة ، والنظر ، وفعله لمق .

(٣) الطلل الباقى من رسوم الديار بعد دروسها .

(٤) فأصبح البيت كله من بحر الخفيف .

ما يجرى وما لا يجرى ، الى أن ذكر « سحَر » وأنه لا ينصرف اذا كان السحَر بعينه ، لأنه معدول عن الأول ..

فقلت : ما علامة العدل فيه ؟

فقال : انا قلنا « السحَر » ثم قلنا « سحَر » فعلمنا أنه معدول عن الأول .

قلت : لو كان كذلك ، لوجب أن تطّرد العلة فى « عتمة » ، لأنك تقول « العتمة » ثم تقول « عتمة »[1] .

فضجر أبو سعيد واحتدّ ، وصاح واربدّ[2] . وادعيت أنه ناقص ، والتمس التحاكم .

فكتبت رسالة أخذت فيها خطوط أهل النظر ، وقد أنفذت درج[3] كتابى نسختها ، وفيها خط أبى عبد الله بن رذامر عين مشايخهم .

ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزا فاضلا ، متوسعا عالما ، فعلّقت عليه ، وأخذت عنه ، وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأت صدرا منه .

قال : وهناك أبو بكر بن مقسم ، وما فى أصحاب ثعلب أكثر دراية ، وما أصح رواية منه ، وقد سمعت مجالسه ، وفيها غرائب

---

(١) منع عتمة من الصرف رأى لبعض النحاة للعلمية والتأنيث ومثلها عشية . قال فى حاشية الصبان على الأشمونى . هذا رأى ، ولكن الأفصح الصرف ، ولذا لم يذكرها بعض النحاة فى غير المنصرف .

(٢) أى تغير وعبس .

(٣) درج كتابى أى طيه .

ونكت ، ومحاسن وطرف ، من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة وتفسير بيت مشكل ، وحل عقد مفصل ، وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم . والقاضى أبو بكر بن كامل بقية الدنيا فى فروع شتى ، يعرف الفقه والشروط والحديث ، وما ليس من حديثنا ، ويتوسع فى النحو توسّعا مستحسنا ، وله فى حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفى جودة التصنيف قوة تامة ، ومن كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء وغيرهم ، وقد سمعت قدرا صالحا مما عنده [1] ..

* * *

لقد جالس الصاحب أولئك العلماء الأعلام وغيرهم وأفادوا منه كما أفاد منهم ، فكان بحرا زخارا بفيض من المعرفة بالعربية وعلومها وآدابها ، فألف فى العروض والقوافى ، وألف فى التاريخ عدة كتب منها كتاب المعارف ، وكتاب الوزراء ، وأخبار أبى العيناء ، وتاريخ الملك واختلاف الدول ..

ولم يكن شىء من ذلك مستغربا ، فبيئة الرجل العلمية وأبوه العالم وأساتذته ، ومجالسوه وثقاته من رجال العلم وأعلام الفكر ، وولوعه بالكتاب حتى قيل انه كان يستصحب فى كل سفرة حمل ثلاثين جملا موقرة بالكتب فى سائر ألوان المعرفة ، حتى استغنى الصاحب عنها كما يقال بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى .

* * *

أما علم الشعر والأدب ، والمعرفة بمحاسنهما ومثالبهما فقد

---

(١) معجم الأدباء٦/٢٧٩ نقلا عن كتاب الروزنامجة للصاحب.

نبغ فيه الصاحب وتفرع وقد سبق أن قلنا ان ثقافته الأدبية غلبت كل ثقافة سواها ، ومرجع ذلك ذوقه الأدبى وطبيعته الفنّية . ثم المعرفة الأدبية والبصيرة النافذة التى أفادها من تجاربه الطويلة فى صناعة الأدب ، ومن مناقشة الأدباء ومجاراة الشعراء ، وافادته من القراءات المستفيضة لآثار العلماء والأدباء ، ثم ما أفاده من شيخه الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد . وقد عبّر الصاحب عن هذه المخرجات فى علم الشعر ونقده فى قوله : « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء ، بالجبال تارة ، وبالعراق مرة ، وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب » .

ثم يذكر الصاحب أثر أستاذه فى تخريجه وفضل معرفته فى قوله « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد ، فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخيّر القافية والوزن ، وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى به فى هذا الجنس . وقد قال أبو عثمان الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يعرف الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فألفيته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لا ينقد الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات »

فللّه أبو عثمان لقد غاص على سر الشّعر ، فاستخرج ما هو أدق من الشعر » . وقدم الصاحب بعد ذلك شذورا سمعها من الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد فى نقد الشعر تدل على ما بعدها ، وتنبىء عما قبلها ..

قال [1] : أنشدت يوما بحضرته كلمة أبى تمام التى أولها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى
ومحّت كما محّت وشائع من بُرد [2]

الى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى
معى واذا ما لُمته لُمته وحدى

فقال الأستاذ الرئيس : هل تعرف فى هذا البيت عيبا ؟ فقلت بلى ، قابل المدح باللوم ، فلم يوف التطبيق حقه ، لأن حقّ المدح أن يقابل بالهجو أو الذم ، على أنه قد روى « ومتى ما ذمته ذمته [3] وحدى » . فقال — أيده الله — غير هذا أردت ! قلت : ما أعرف ! فقال : أجلّ ما يحتاج اليه فى الشعر سلامة حروف اللفظ من الثقل ، وهذا التكرير فى « أمدحه أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين وهما من حروف الحلق خارج عن حد

(١) من رسالة الصاحب التى سماها « الكشف عن مساوىء المتنبى » ص ٢٢٦ من كتاب « الابانة عن سرقات المتنبى » لأبى سعد محمد بن أحمد العميدى .

(٢) أقوت : أقفرت ، ومح الثوب : بلى ، والوشيعة : الطريقة فى البرد .

(٣) ذامه يذيمه : عابه .

الاعتدال ، نافر كل النفار . فقلت : هذا ما لا يدركه ولا يعلمه الا من انقادت اليه وجوه العلم ، وأنهضه الى ذراها طبعه .

وكنا يوما نتذاكر فى مجلسه ، فجرى قول الشاعر :

أعاتبكم يا أم عمـرو لحبّكم ألا انما المقلىّ من لا يعاتب

فاستحسنه الحاضرون وأعجبوا به ، وأثنوا على قائله ، فقال أيده الله : ان من انتقاد الشعر أن ينقد ما فى القافية من حـركة وحروف . فقلت : كره سيدنا « السّناد » فى تغيير حركة الاشباع اذا جاءت فتحة ، وهي فى سائر الأبيات كسرة ؟ فقال : ما أردت غيره .. وهذا قول من له بكل طرف من أطراف الفضل طرف موكل ، وناظر منتقد .

وكنت أقرأ عليه شعر ابن المعتز ، متخيّر الأنفس فالأنفس ، فابتدأت بقصيدته على المديد الأول ، فرسم تجاوزها وقدرته على حفظها ، ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع طلبه للمحدثين جيّد الشعر ، فتتبّعت عدة قصائد على هـذا الصنف ، فوجدتها فى نهاية الضعف ..

وجرى حديث أبى عبادة البحترى ، وهو يوفيه حقه الذى استوجبه بجزالة لفظه ، وبشاشة نسجه ، وغزارة طبعه ، وحلاوة شعره ، فذكر القاضى الجعابى سبطا لأبى عمر قاضى القضاة ، وانفاذه اليه ما استدركه فى شعر البحترى وطعن به عليه ، وأنه ينقبض عن اظهاره لشغف سيدنا بأشعاره ، فقال الأستاذ : نحن وان عرفنا للبحترى فضله فما ندّعى العصمة له ، وفى شـعره الكسر والاحالة واللحن ! وأقبل علىّ فقال : تعرف للبحترى

ما يخرج فيه عن الوزن ؟ فقلت : بلى ، أنشدنى أبو الحسن المنجم قال : أنشدنى أبو الغوث لأبيه من قصيدة :

وأحق الأيـــام بالأنس أن يؤ
ثر فيه يوم المهـــرجان الكبير (١)

قال — رحمه الله — : غير هذا أردت ! فقلت : لا أعرف ، فأنشد قصيدته التى أولها :

ظلم الدهـــر فيكمُ وأساء　　فعـــزاء بنى حميـــد عزاء

الى أن انتهى الى قوله :

ولماذا تتبّع النـــاس شـــيئا　　جعل الله الفردوس منه جزاء

فقلت : هو ما قال سيدنا ، لأن البيت من الخفيف ، وفيه زيادة سبب ! فقال تنشده * جعــل الله الخــلد منه جــزاء * ليستقيم . ثم ابتدأ بذكر سقطات البحترى ، وعدّ ما حرتُ فيه وعجزت عن استيفاء حفظه وتقصّيه ، فمما علق بنفسى أن أنشد قصيدته التى أولها :

أبا خالد بالجود تذكر واجبى　　اذا ما غنّى الباخلين نسِـــيه

فان قوله « نسيه » مختل الاعراب ، بعيد من الصواب . وذكر من قصيدته التى أولها :

* عذيرى من نأى غداً وبعاد *

---

(١) فى ديوان البحترى :

وكـان الأيـام أوثر بالحســـ　　ـن عليهـا ذو المهرجان الـكبير

وفى الموشح للمرزبانى :

وكـان الأيـام أوثر بالحســ　　ـن عليهـا يوم المهرجـان الكبير

حتى ذكر قوله :

على باب قنّسرين والليل لاطخ جوانبه فى ظلمة بمداد

وأنشدنى من قصيدة فى أبى اسحاق بن كنداج :

وجوه حسّادك مسودّة أم خضبت بعدى بالزاج [1]

فان هذين التشبيهين غير رائعين ولا بارعين . وقال فى أثناء هذا المجلس : ما علمنا أن فى طبع البحترى تكلفا الى أن قرأت قصيدته فى صفة الايوان * صنت نفسى عما يدنس نفسى * وسمعته — أيده الله — ينشد أبيات أبى تمام التى أولها :

* أما وقد ألحقتنى بالموكب *

فأنشد :

أبديتَ لى عن صفحة الماء الذى

قد كنت أعهده كثير الطحلب [2]

فقلت : زيّن سيدنا هذا الشعر باقامته « الصفحة » مقام « الجلدة » ! فقال : كذا يلزمنا لمثل أبى تمام اذا أمكن اصلاح بيت بلفظة ، وتهذيب قصيدة بكلمة !

وسمعته — أيده الله — يقول : ان أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أى المواقف

---

(١) الزاج : من اخلاط الحبر .

(٢) الطحلب : خضرة تعلو الماء من طول المكث .

يحصّل أحمد اطرادا ، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه به والتياثه عليه[1] .

فقلت : لو مثّل سيدنا هذا لكان أقرب الى القلب ، وأوقع فى النفس . فقال : نعم ، هذا البحترىّ أراد مدح أبى الخطاب الطائى ، وقد كان ابن بسطام أحسن الى أبى عبادة بمائتى دينار ، فجعلها أبو الخطاب آلافا وأضعفها ، وجارى ابن بسطام بها ، فنظر البحترىّ وقد جاراه أضعافا ، وجعل مئته آلافا ، وقد كان يكفى أن يزيده الى الآحاد أنصافا ، فبنى قصيدته على هذه القافية ، حتى اتسق له ما أحبّ ، وبلغ ما طلب ، فقال :

قضيت عنى ابن بسطام صنيعته
عندى وضاعفت ما أولاه أضعافا

وكان معروفه قصدا الىّ وما
جازيت عنى تبذيرا واسرافا

مئون عينا توليت الثواب بها
حتى انثنت لأبى العباس آلافا

قد كان يكفيه فيما قدمت يده
ربحا يزيد الى الآحاد أنصافا

وذكر — أيده الله — يوما الشعر ، فقال : ان أول ما يحتاج اليه حسن المطالع والمقاطع ، فان فلانا أنشدنا فى يوم نيروز قصيدة أولها : * أقبرٌ وما طلّت ثراك يد الطلّ * فتطيرت من افتتاحه

(١) الالتياث : الاختلاط .

بالقبر وتنغصت باليوم والشعر . فقلت : كذا كانت حال أبى مقاتل لمّا مدح الداعى الحسن بن زيد بن محمد :

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعى ويوم المهـرجان

فنفر من قوله « لا تقل بشرى » أشد نفار ، وقال : أعمى ويبتدىء بهذا فى يوم المهرجان ؟

قال الصاحب : ولو تتبّعت ما علّقت ، وحفظت عن الأستاذ الرئيس فى هذا الباب لاحتجت الى عقد كتاب مفرد ، ولعـلى أفعل ذلك فيما بعد ..

وذكر — أيده الله — اختيارات الشعر ، فقال : ليس فيها أحسن من كتاب « الحماسة » . ولقد نظرت فى الدواوين لأجد ما يلحق بكل باب منه ، فلم أر ما يستحق الاضافة اليه . قال : وخير الاختيارات بعدها اختيارات المفضل باسـقاط قصـيدتى المرقش .

من ذلك الخضم الضخم استقى الصاحب بن عباد ثقافتـه الأدبية التى أفادته فى ناحيتين :

أولاهما : فبّه الأدبى الذى تهذّب بهذا الفيض الزاخر من علم أستاذه وثقافته وظهر أثر هذا التهذيب فيما ألّف من شـعر رقيق ، يتدفّق فى يسر وفى عذوبة ، وفيما كان يكتب من كتب ورسائل أبدع فيها وأجاد ، وعدّ بها اماما من أئمة الكتاب .

والناحية الأخرى : نظراته فى الأدب منظـومه ومنثوره ، وجودة آرائه فيه ، فقد تخرج بهذا عالما بالشعر ، فى طليعة نقاده العارفين بأصوله ومذاهب أصحابه . واعتمد عليه فى نقد ما كان

يدور فى مجالسه من فنون القول التى كان يراجع فيها الشعراء والأدباء ، ويناقش العلماء .

وبرز هذا بروزا واضحا فى رسالته النقدية التى كتبها فى نقد شعر المتنبى ، والتى سمّاها « الكشف عن مساوىء المتنبى » أو « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » ..

على أننا قد رأينا فى ثنايا وصف ما سمعه من أستاذه أبى الفضل ابن العميد ، أنه كان يسأل الصاحب ، وكثيرا ما كان يجد عنده الرأى والجواب الذى يدل على البصيرة والفهم والمعرفة بالشعر والأدب ، والقدرة البارعة على تذوقه ونقده ..

وحسبنا هذا المقدار من الحديث عن علم الصاحب بالأدب والشعر ، وعوامل تخريجه فيه ، وقد فصلنا القول فى شعره ونثره وكتابته ونقده فى فصل آخر من هذا البحث عند دراستنا للصاحب الأديب .

* * *

ولم تقف ثقافة الصاحب الواسعة عند حدود الثقافة الأدبية والفلسفية فى اللغة والأدب وعلم الكلام وعلم الأصول ، فقد كانت له مشاركة فى فن الطب ، وثقافة فيه ، ويبدو ذلك مما ذكره أبو جعفر الطبرى المعروف بالبلاذرى فى قوله « ان للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكرياء لما زاد عليها » ! قال الثعالبى : فسألته أن يعيرينها ان كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ، ونسبته فى نفسى الى التزيد والتكثر ، الى أن

ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه ، وقوة المعرفة بدقائقه ، وهذه نسختها :

« قد عرفت ما شرحه مولاى من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه ، فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة وترجع العادة السابقة . والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفئات ، ولزت بهـا المبردات قلت الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلابد مما يطفىء ويغذى ، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوى منها ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل « جالينوس » ، قدّم علاج الأهم ، ثم عد وأصلح ما أفسدت ! والأقراص فى آخـر الحميات خير ما نقيت به المعدة ، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال ، ليتمكن من جذب العكر ، لا سيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها ، والبلدة التى وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقيا من الفضول لما أثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل .

« وانما اغتر مولاى بأيام السلامة ، فكان يتبسّط فى أنواع الطعام ، ويسرف فى تنـاول الشراب ، فامتـلأ الجسم من تلك الكيموسات الرديئة . وورد بلدا شديد التحليل مضطرب الأهوية

فوجدت النفس عونا عـلى حل ما انعقد ، ونقض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسّلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الابريز ، واذا زال عنه الخبث وسـبك ففارقه الدرن .

« وأما الرعشة التى يتألم مولاى منها ، ويضيق صدرا بها ، فليست والحمد لله محذورة العاقبة ، وانها لتزول باقبال العافية . فالرعشة التى تتخوف هى التى تعرض من ضعف القوة الحيوانية ، كما تعرض للمشايخ ، وتؤذى لمشاركتها الدماغ كثيرا من العظام ، فأما هذه التى تعتاد عقيب الحمى فهى على ما قال « جالينوس » من أن حدوثها يكون اذا شاركت العروق التى تحدث فيها عـلة العصب ، وتزول عنه بزوال الفضل . وعجب مولاى من تكرّهه شم الفواكه ، ولا غرو اذا عرف السبب ، فان العفونة التى فى العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصـل اليهـا من الروائح الزكية يرد على النفس مغمورا بتلك الروائح الخبيثة فتكرهها ولا تقبلها ، وتأباها ولا تؤثرها . ألا يرى مولاى أن الأشياء الحلوة توجد فى فم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ، لامتلاء المرارة المضادة للحلاوة عـلى آلات الذوق والمضـغ والادارة . وهذا راجع الى مثل ما حكمنا به أولا من أن هنـاك فضلا لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يخشى من سقوط القوة ، وان كان مما لم يخرج لم يوثق بوفور الصحة ، وأنا أحمد الله اذ ليست شهوة سيدى متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخـلاط الفاسدة تغرى صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرض للمزاج الفاسد .

الا أن التغذى لا يجوز اهماله والتبرم به ضربة . فان البدن اذا احتاج اليه وجب للعليل أن يتناوله تناول الدواء الذى يصبر عليه ، وذلك أن فى دقة الحمية وترك الرجوع أول فأول الى عادة الصحة اماتة للشهوة ، وخيانة للقوة . و « جالينوس » يشرط فى العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذى يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، الا أن ذلك بازاء ما قال الحكيم الأول « بقراط » فى البدن السقيم : انك متى ما زدته غذاء زدته شرّا ، وهو فى نفسه يقول : ان الحمية التى فى غاية الدقة ليست بمحمودة ، فالطرفان من الاسراف والاجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم ، أغنى الله مولاى عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء [١] ..

ولسنا بعد ذلك نستطيع الجزم بمظنة هذه الثقافة الطبية التى حصلها الصاحب ، فاننا لم نقرأ أنه تلقى أصول فن الطب والعلاج على أحد من رجاله المعاصرين ، ولذلك فاننا نرجح أن هذه الثقافة الطبية لها مصدران : أولهما تجاربه فى حالة صحته وحالة سقمه ، والاستماع الى كلام أطبائه ونصائحهم ، ولعله كان يسائلهم ويفيد من علمهم وتجاربهم ، والمصدر الآخر فيما نظن هو قراءته واطلاعه على آثار فى الطبّ والعلاج وفى الكتب التى تدرس فن الطب ، سواء أكانت من آثار حكماء العرب الذين عاصروه والذين سبقوه أم من كتب الطب التى ألفها حكماء اليونان ونقلت الى اللسان العربى .

(١) يتيمة الدهر ٣/٢٠٢ .

آثار الصاحب

انك حين تقرأ آثار الصاحب التى حفظها التاريخ ، وسجلتها كتب طبقات الرجال ، لتروعك تلك القوة الخارقة ، والمعـرفة الفائقة التى وهبها هذا الرجل ، على الرغم من الجهود المضنية التى تفل عزم الرجال ، والتى كان يبذلها فى تدبير شئون الملك ، والتجهز للحرب ، وتفقد أحوال الرعية ، وفى مجالسه التى كان ينصبها للعـلماء والأدباء ، يستمع اليهم فيهـا ، ويناظرهم فى قضاياها ، وفى اتقاء الأذى ودفع الضرر الذى كان يحاوله أعداؤه وحسّاده ، وهم كثيرون ..

ومن شأن تلك التبعات الكبرى ألا تدع لحاملها وقتا يصرفه فى التأمل والمطالعة ، والبحث والتنقيب ، وفى الكتابة والتأليف ، بل من شأنها ألا تدع له وقتا يخلد فيه لراحته ، ويسكن فيه الى أهله وعشيرته ..

ان كثرة تصانيف الصاحب ، وتنوع مباحثها ، واختـلاف فنونها ، لتدل بأنصع برهان على ما آتاه الله من المواهب المنقطعة النظير ، وتشهد بما منحه من وفرة العلم ، وسعة العقل ، ونفاذ البصيرة .. فلم يكن الصاحب الوزير من أولئك الذين يلمون بالمسائل الماما ، ولا من الأدباء الذين يجتزئون من كل فن بطرف ، وانما كان من أولئك الأفذاذ الذين يغوصون الى قرارة المعرفة ، ومنابت الحكمة .

وهذه آثاره فى منظوم الأدب ومنشوره ، صناعة وتأليفا ،

ومعرفة ونقدا ، ثم فى علم اللغة ، وعلم الكلام ، وعلم الأصول ، وفى الفرق ، وفى التاريخ والأخبار والسير .. شاهدة بكل ما ذكرنا من آيات نبوغه وتحصيله وعبقريته ، ومن هذه الآثار :

١ — كتاب المحيط فى اللغة ، ذكر ياقوت أنه عشرة مجلدات [1] ، وقال ابن خلكان : هو فى سبع مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، كثّر فيه الألفاظ وقلّل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر [2] ..

٢ — كتاب ديوان رسائله — عشرة مجلدات .

٣ — كتاب « الكافى » — رسائل .

٤ — كتاب الزيدية .

٥ — كتاب الأعياد وفضائل النوروز .

٦ — كتاب الامامة ، يذكر فيه فضائل على بن طالب رضى الله عنه ، ويثبت امامة من تقدّمه .

٧ — كتاب الوزراء .

٨ — كتاب « عنوان المعارف » فى التاريخ .

٩ — كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .

١٠ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .

١١ — كتاب العروض الكافى .

١٢ — كتاب جوهرة الجمهرة .

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٦٠ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٢٥ .

١٣ — كتاب « نهج السبيل » فى الأصول .
١٤ — كتاب أخبار أبى العيناء .
١٥ — كتاب نقض العروض .
١٦ —كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول .
١٧ — كتاب الزيدين .
١٨ — كتاب ديوان شعره .
١٩ — كتاب « الروزنامجة » مما اتفق له مع أبى محمد الوزير المهلبى ، حين ورد الصاحب بغداد [١] .
٢٠ — كتاب « الوقف والابتداء » ذكره الأنبارى فى « نزهة الألباء » وقال ان الصاحب لما صنف كتاب الوقف والابتداء كان ذلك فى عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر بن الأنبارى وقال له انما صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت فى سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنّك ؟ فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت فى النيف وسبعين التى نظرت فيها ، ونظرت فى كتابك أيضا [٢] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٣/١١٥ .
(٢) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٠ ـ قلت : ولأبى سعيد السيرافى كتاب فى « الوقت والابتداء » .



الفصل السابع

أبو حيان والصاحب

أبو حيان والصاحب

كان على بن محمد بن العباس ، المكنّى أبا حيان ، والملقب « التوحيدى » [١] من أهل شيراز [٢] ، وقدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى الى الرىّ ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل ابن عباد ، وقبله أبا الفضل ابن العميد ، فلم يحمدهما ، وعمل فى مثالبهما كتابا سماه « ثلب الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » أو « أخلاق الوزيرين » ! ..

وكان أبو حيان متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه .. فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف فى الأدباء ، وأديب فى الفلاسفة ، ومحقق فى الكلام ، ومتكلم فى المحققين [٣] .. ولكنه كان — كما يقول ياقوت — سخيف اللسان ، قليل الرضا عند الاساءة اليه

---

(١) التوحيدى نسبة الى نوع من التمر يسمى «التوحيدى» وقال شيخ الاسلام ابن حجر : يحتمل أن يكون الى التوحيد الذى هو الدين . فان المعتزلة يسمون أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » .

(٢) وقيل من نيسابور .

(٣) ويعده بعض العلماء زنديقا ، قال ابن الجوزى : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو حيان التوحيدى . قال : وشرهم على الاسلام التوحيدى ، لأنهما صرحا ولم يصرح !

والاحسان ، الذمّ شانه ، والثلب دكانه . وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية .

وكان مع ذلك محدودا محارفا [١] يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه ، قال ياقوت : ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا دمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب [٢] ..

ولعل السبب فى هذا الاغفال الذى يشير اليه ياقوت ما رمى به أبو حيان من الزندقة والالحاد فتهيّب الناس ذكره ، لما حاروا فى أمره ، فقد صرح صاحباه — المعرى وابن الراوندى — برأيهما فقال فيهما من شاء ما شاء ، أمّا هو فكما يظهر من كلام ابن الجوزى كان يخلط السّم بالشهد ، ويخفى طوية نفسه ، وحقيقة معتقده ..

وليس المجال هنا على كل حال مجال البحث فى عقيدة أبى حيان ، أو الاطمئنان الى صحة اعتقاده .

وقد يكون السبب فى اهماله وعدم العناية بأخباره وآثاره ما اشتهر به من الاساءة الى الناس ، وانكاره احسانهم اليه ، ومعروفهم لديه .

* * *

وقد يكون حسده لأولى النعمة فى الثراء والجاه والعلم

---

(١) المحدود المحارف : المحروم .

(٢) معجم الأدباء ١٥/٦ .

والأدب — وقد كان أبو حيان « مجبولا على الغرام بثلب الكرام » — مما زهد الناس فى علمه وأدبه . فقد عرفوا غروره وتعاظمه ، وعرفوا أن الخلق الذى يتميز به كل مدع للعلم ومنتسب اليه هو فضيلة التواضع ، وقد جرّده الله من هذه الفضيلة ، وسلط لسانه على أنداده فى العلم والمعرفة ، وعلى من يسبقونه فى ميدان الذوق والفهم والتحصيل ، فقلّ منهم من نجا من لذعه ، وسلم من عيبه ونقده . وكأنه يجد فى هذا الثلب لذة عجيبة ، ومتعة غريبة ..

ولا يتكلف أصحاب الأخبار نسبة هذا الخلق اللئيم اليه ، بل ان أبا حيان نفسه يعترف فى صراحة أن النيل من الناس ، وشهوة انتقاصهم طبع ركّب فيه ، لا يستطيع الخلاص منه . وذلك فى حديث جرى بينه وبين أبى سعيد السيرافى ذكره أبو حيان فى كتابه « المحاضرات » وقال فيه : كنت بحضرة أبى سعيد السيرافى، فوجدت بخطه على ظهر كتاب « اللمع فى شواذ التفسير » وكان بين يديه ، فأخذته ونظرت — قال : ذمّ أعرابى رجلا فقال : ليس له أول يحمل عليه ، ولا آخر يرجع اليه ، ولا عقل يزكو به عاقل لديه ، وأنشد :

حسبتك انسانا على غير خبرة
فكشّفت عن كلب أكبّ على عظم
لحى الله رأيا قاد نحوك همتى
فأعقبنى طول المقام على الذم

فقال لى : يا أبا حيان ، ما الذى كنت تكتب ؟ قلت الحكاية

التى عــلى ظهر هــذا الكتاب ، فأخذها وتأملها ، وقال : تأبى الا الاشتغال بالقــدح والذم وثلب النـــاس ؟ فقلت : أدام الله الامتاع ، شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع اليه [1] !!

فالولوع بهجو الناس وانتقاصهم داء ابتلى به هذا الرجل ، وتمكن من قلبه حتى أصــبح خلقا من أخلاقه ، وسجية من سجاياه ، وأصبح لا يخص به رجلا دون رجل ، ولو كان ممن تفضلوا عليه ، وأحسنوا اليه ..

* * *

وقد نال أبو حيان من الصاحب نيلا عظيما ، حاول به أن يحطم مجده ، وأن ينتزع من قلوب الناس وعقولهم ما وقر عندهم من فضله ، وما عرفوه من علمه وسياسته وأدبه ، وكأنه مسلط لاستخراج مخازيه ، واذاعة مساويه ، فكتب تلك الرسائل الطويلة التى بث فيها سمومه بالقدح والثلب الذى افتنّ فى ابرازه افتنان الكاتب الصناع ، والمصوّر الماهر ، بدرجة تنتزع الاعجاب من قلوب أهل الفن ، وان كانت تأباها مكارم الأخلاق وما ينبغى أن يكون بين أهل العلم والمعرفة من التواصل والتقدير ..

وأبو حيان يذكر لحملاته على الصاحب أسبابا ، وكل هذه الأسباب تكشف عن حقــد دفين كان صــدى لما أحسّ به من الحرمان ، وسوء التقدير ، وخيبة التأميل .

وهاك شيئا مما كتبه أبو حيان عن اتصاله بالصاحب ، وعما جرى بينهما مما رآه سببا للموجدة والحفيظة ..

---

(١) معجم الأدباء ٩/١٥ .

(١) قال أبو حيان : وأما حديثى معه — يعنى مع ابن عباد — فاتنى حين وصلت اليه :

قال لى : أبو من ؟

قلت : أبو حيان ..

فقال : بلغنى أنك تتأدّب ..

فقلت : تأدّبَ أهل الزمان !

فقال : « أبو حيان » ينصرف أو لا ينصرف ؟

قلت : ان قبله مولانا لا ينصرف !

فلما سمع الصاحب هذا تنمر ، وكأنه لم يعجبه ..

ثم قال لى : الزم دارنا ، وانسخ هذا الكتاب .

فقلت : أنا سامع مطيع ..

ثم انى قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : انما توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة !! فنمى اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا ..

(٢) وقال لى ابن عباد يوما :

— يا أبا حيان ، من كنّاك بأبى حيان ؟

قلت : أجلّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته ؟

قال : ومن هو ؟ ويلك ..

قلت : أنت !

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلت : حين قلت : « يا أبا حيان ، من كناك بأبى حيان » ؟ !

فأضرب عن هذا الحديث ، وأخذ فى غيره ، على كراهة ظهرت عليه ..

(٣) وقال لى يوما آخـر : — وهو قائم فى صحن داره ، والجماعة قيام ، منهم الزعفرانى وكان شيخا كثير الفضل جيد الشعر ممتع الحديث ، والتميمىّ المعروف بسطل وكان من مصر ، وصالح الوراق ، وابن ثابت ، وغيرهم من الكتاب والندماء — : يا أبا حيان ، هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية ؟ قلت : نعم ، من أقرب ذلك « أبو حيان الدارمى » من أهل البصرة .. وبعد أن روى شيئا من أخباره وأشعاره .. قال : فلما وفيت الشعر ، ورويت الاسناد ، وريقى بليل ، ولسانى طلق ، ووجهى متهلل ، وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب الشباب [1] وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا ، فحين انتهيت أنكرت طرفه [2] ، وعلمت سوء موقع ما رأيت عنده !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : ابن الجعابى الحافظ ، يكنى بأبى حيان ، رجل صدق ، وهو يروى عن التابعين !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : روى الصولى فيما حدثنا عنه المرزبانى أن معاوية لما احتضر أنشد يزيد عند رأسه متمثلا :

---

(١) غرب الشباب حدته ونشاطه .

(٢) أى رأيت فى نظره ما لا يروق الناظر اليه .

لو أن حيّـــا نجا لفـــات أبو

حيـــان لا عاجـــز ولا وكل [1]

الحـــوّل القلَّب الأريب وهـــل

يدفع صرف المنيـــة الحيـــل [2]

قال الصولى : وهذا كان من المعمرين المغفلين ..

وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا أريحية ، بل على اكفهرار وجه ، ونبوّ طرف ، وقلة تقبل !

(٤) وقال لى الصاحب يوما — وهو يحدث عن رجل أعطاه شيئا فتلكأ فى قبوله — : « ولابد من شىء يعين على الدهر » ؛ ثم قال :

— سألت جماعة عن صدر هذا البيت ، فما كان عندهم ذلك ..

فقلت : أنا أحفظ ذاك ..

فنظر بغضب ، وقال : ما هو ؟

قلت : نسيت !

فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك !

قلت : ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة نسيت !

قال : وما حيلولتها ؟

---

(١) الوكل البليد الجبان العاجز .

(٢) الحول ذو القوة والقدرة على التصرف ، والأريب البصير بالأمور .

قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب فى حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب !

قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هذا وهات ..

قلت : قول الشاعر :

ألام على أخذ القليل وانما
أصادف أقواما أقلّ من الذّر

وأدفع عن أموالهم ونفوسهم
ولابد من شىء يعين على الدهر

فسكت !

(٥) قدم الىّ نجاح الخادم ، وكان ينظر فى خزانة كتبه ، ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان ، فقلت بعد ارتياء [1] : هذا طويل ، ولكن لو أذن لى لخرجت منه فقرا كالغرر ، وشذورا كالدرر .. لو رقى بها مجنون لأفاق ، أو نفث على ذى عاهة لبرأ ، لا تملّ ولا تستغث ..

فرفع ذلك اليه — وأنا لا أعلم — فقال : طعن فى رسائلى وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرنّ منى ما عرف ، وليعرفنّ حظه اذا انصرف !

كأنى طعنت فى القرآن ، أو رميت الكعبة ، أو عقرت ناقة صالح ..

وما ذنبى يا قوم اذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا

---

(١) أى بعد تدبر وامعان .

الذى يستحسن هذا الكلب ، حتى أعذره فى لومى على الامتناع ؟ أينسخ انسان هذا القدر ، وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره ؟ أو ينفعه ببدنه ؟

(٦) وفى كتاب « الهفوات » لابن الصابىء : حكى أبو حيان قال : حضرت مائدة الصاحب بن عباد ، فقدّمت مضيرة [١] ، فقال لى : يا أبا حيان ، انها تضر بالمشايخ ! فقلت : « ان رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل » ! .. فكأننى ألقمته حجرا وخجل واستحيا ، ولم ينطق الى أن فرغنا ..

(٧) قال الصاحب يوما : « فَعْل » و « أفعال » قليل [٢] ، وزعم النحويون أنه ما جاء الا زند وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، وفرد وأفراد !

فقال أبو حيان : أنا أحفظ ثلاثين حرفا كلها فعْل وأفعال [٣] .

فقال الصاحب : هات يا مدّع !

قال أبو حيان : فسردت الحروف ، ودللت على مواضعها من الكتب ، ثم قلت : ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم الا بعد التبحر والسماع ، وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة والقياس مطردا . وهذا كقولهم : « فَعِيل » على عشرة أوجه ،

---

(١) المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير أو الحليب ، واللبن المضير الحامض منه .

(٢) يريد أن ما جاء من الأسماء على وزن « فعل » مجموعا على وزن « أفعال » قليل .

(٣) أى أعرف ثلاثين اسما على وزن « فعل » جمعت على وزن « أفعال » .

وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجها ، وما انتهيت فى التتبع الى أقصاه . فقال له الصاحب : خروجك من دعـواك فى « فَعْل » يدلنا على قيامك فى « فعيل » ولكن لا نأذن لك فى اقتصاصك [1] ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك فى مجلسنا ، وتبسّطك فى حضرتنا ..

(٨) وقال أبو حيان فى كتاب « أخـلاق الوزيرين » : طلع ابن عباد على يوما فى داره ، وأنا قاعد فى كسر ايوان أكتب شيئا كان قد كأدنى به [2] ، فلما أبصرته قمت قائما ، فصـاح بحلق مشقوق : اقعد فالوراقون أخسّ من أن يقوموا لنا !..

فهممت بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر : اسكت ، فالرجل رقيع !.. فغلب علىّ الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه ، لأنه كان قد قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنج أنفه ، وأمال عنقه ، واعترض فى انتصابه ، وانتصب فى اعتراضه ، وخرج فى تفكك مجنون قد أفلت من دير جنون .. والوصف لا يأتى على كنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك الا باللحظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ .

(٩) ما ذنبى اذا قال لى : هـل وصلت الى ابن العميـد أبى الفتح ؟ فأقول : نعم رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت

---

(١) أى فيما تقصـه علينـا .

(٢) كأده بالشىء كلفه به .

ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا .. فينزوى وجهه ، وينكر حديثه ، وينجذب الى شىء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له .. ثم يقول : أعلم أنك انما انتجعته من العراق ، فاقرأ علىّ رسالتك التى توسلت اليه بها ، وأسهبت مقرظا له فيها ، فأتمانع ، فيأمر ويشدد ، فأقرؤها فيتغير ويذهل ؟..

(١٠) ثم ما ذنبى اذا قال لى : من أين لك هـذا الكلام المفوّف المشوّف [١] الذى تكتب به الىّ فى الوقت بعد الوقت ؟ فقلت : وكيف لا يكون كما وصـف مولانا ، وأنا أقطف ثمار رسائله ، وأستقى من قليب [٢] علمه ، وأشيم بارق أدبه ، وأرد ساحل بحره ، وأستوكف قطر مزنه [٣] ؟ فيقول : كذبت وفجرت ، لا أمّ لك ! ومن أين فى كلامى « الكدية » و « الشحذ » و « التضرع » و « الاسترحام » ؟ كلامى فى السماء ، وكلامك فى السماد ..

هذا ، أيدك الله ، وان كان دليلا على سوء جدى ، فانه دليل أيضا على انخلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه !..

وقال أبو حيان عند قربه من الفراغ من كتابه فى ثلب الوزيرين

(١) المفوف : الرقيق ، والمشوف : المجلو .

(٢) القليب : البئر .

(٣) استوكف : استمطر واستدعى جريانه .

— وقد حكى عن ابن عباد حكايات وأسندها الى من قال انه أخبره بها — : فما ذنبى ، أكرمك الله ، اذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان .. على أنى قد سترت شيئا كثيرا من مخازيه ، اما هربا من الاطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح ، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ..

هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فانى فارقته سنة سبعين وثلثمائة ..

ثم يلتمس أبو حيان الأسباب التى حملت على ذلك الفحش والاقذاع فى قوله : ما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرّعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحمل عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والظن الحسن ، حتى كأنى خصصت بخساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى ..

وانظر كيف يستحيل معى عن مذهبه الذى كان هو عرقه النابض ، وسوسه [1] النابت ، وديدنه المألوف ؟ ..

وهكذا أجرانى مجرى التاجر المصرى والشاذباشى [2] وفلان وفلان ؟ !

* * *

ذلك شيء مما ساقه أبو حيان فيما كان بينه وبين الصاحب

---

(١) السوس الأصل .

(٢) منسوب الى « الشاذباش » وهو فارسى ، ومعناها أجرة المغنى .

ابن عباد ، أو تلك هى الأسباب التى أحفظت صدر أبى حيان على الصاحب ، وفيها ما أحفظ صدر الصاحب على أبى حيان .

ويستفاد من هذه الروايات والأخبار :

أن أبا حيان ، وهو من هو فى العلم والأدب ، كان يطمح أن يجد فى رحاب الصاحب ما كان يطمح اليه من عزة وتكريم ، ومودة وتقريب ، مما يلائم مواهبه وطموحه ، وقد عرف أن حضرة الصاحب كعبة القصاد ، وأمل الوافدين من رجال العلم والأدب ، الذين يدفعهم طموحهم ، أو سـوء ما يجدون فى أوطانهم الى الرحلة الى رحاب أوسع ، وآمال أكبر ، فتوجه من العراق الذى كان يحترف فيه حرفة الوراقة التى لقبها « حرفة الشؤم » الى هذا الباب ، وزاحم منتجعى هذا الربيع ، وانما يسقط الطير حيث يلتقط الحب ..

فماذا كان يريد أبو حيان أن يكون ؟

أكبر الظن أنه كان يريد أن يكون صاحبا للصاحب ، وأنيسا له ورفيقا ونديما ، يستظل بكنف الصاحب ، ويستمع الى الأدباء ، ويحكم بين الشعراء ، ويناقش العلماء ، ويفضى فى حضرته بمكنون علمه ، ليطير ذكره فى الآفاق ، ويودع حياة الخمول التى قاساها ، وحرفة الوراقة التى كان يمتهنها قبل أن يلقاه .

ومما لا نشك فيه أن أبا حيان — بعد الذى عرفناه عن علمه الواسع ، وثقافته المتنوعة العميقة ، واطلاعه على كل دقيق من العلم والفن ، وآثار قلمه الرائعة فى التصوير والبيان ، والغزارة المنقطعة النظير التى نقرأ آثارها فى كتبه ، ولا سيما فيما استطعنا

أن تقف عليه كامــلا فى تلك الآثار ، وفى مقــدمتها كتــاباه « المقابسات » و « الامتاع والمؤانسة » اللذين نقرأ فيهما فيضا زاخرا ، وسيلا متصلا من العجب العجاب الذى يدهش العقول ويحير الألباب ، ويدلّ على توقد الذهن ، وقوة الخاطر — لا شك بعد هذا كله فى أن أبا حيان كان جديرا كل الجدارة بما كان يطمح اليه ، وما كان يتطلع الى بلوغه من هذه المنزلة فى صحبة الصاحب ..

فلم لم يحله الصاحب هذه المنزلة ؟ ولم لم يبلغه ما يريد من العزة والجاه ؟ أكانت تلك المعرفة المتبحرة التى كان أبو حيان يتمتع بها يمكن أن تخفى على مثل الصاحب ، وهو المشهود له بمعرفة الرجال ، وانزالهم منازلهم من حضرته التى تزدان بالنابهين من العلماء والأدباء ، وطالبى الحاجات ؟

ذلك افتراض فى رأينا بعيد !.. حتى لو لم يكن الصاحب يعرف عن أبى حيان شيئا قبل شخوصه اليه ، وقدومه عليه ، فقد وقف بنفسه على ما عند الرجل من معرفة وفهم وتحصيل فى تلك الأحاديث والمناقشات التى دارت بينهما فى مجلسه ، وفى اجابات أبى حيــان الشافية عن الأسئلة التى وجههــا اليه الصاحب ، وفيما وجده مما لم يجد عند غيره من أهل الرواية والدراية ..

ولم يكن الصاحب بعد كل هذا فى حاجة الى سؤال أحد ، أو استطلاع أخباره من أهل الرواية والأخبار .

لعل الصاحب كان يرى فى أبى حيان رجلا متطلعا لا يرضى

بعطاء ، ولا يقنع بما يمكن أن يصله به كما يقنع نظراؤه من قصّاده ..

ان الذى يذكره أبو حيان فى ذلك أنه لم ينــل من عطــاء الصاحب كثيرا ولا قليلا ، وذلك فى قوله : « انى فارقت بابه سنة سبعين وثلثمائة راجعا الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد » ! وذلك خبر اذا صح غريب ، فان معناه أن أبا حيان لم ينل فى تلك السنين الثلاث الا طعامه الذى يقيم أوده ويحفظ عليه حياته ، وثوبه الذى يستر به جسده . وذلك جزاء من مثل الصاحب قليل ، بل أقل من القليل ..

ولسنا نظن أن واحدا من أدنى خدم الصاحب فى القصر كان يرضى أن يكون ثمن خدمته طعامه وثوبه ، من غير أن يكون له حظ من موفور العطاء يعود به على أهله ، أو يحفظه من عاديات الزمان ، فتلك دائما غاية الذين كانوا ينتجعون أبواب الملوك والأمراء والوزراء ، ويشدون اليهم الرحال ، ويركبون فى سبيلهم الأهوال ..

* * *

ولم يكن أبو حيان فى تلك السنين الثلاث رجلا من العاطلين فى بلاط الصاحب ، بل انه كان يزاول عملا من أصعب الأعمال وأشقها على نفسه ، وهو النسخ والوراقة لما يحب ولما قد يكره ، فلا أقل من أجر العمل ، وهو عمل يحفظ علم الصاحب وأدبه ،

ولن يرضى أن يكون هذا الأجر طعاما وثيابا ، فليس هذا أجر السّراة العالمين لذوى المعرفة الحاذقين .

وذلك شيء عجيب حقا ، اعترف به أبو حيان ، وعرفه كثير من أعيان العصر ، فليس سرًّا أن أبا حيان قد عاد من رحلته الى الصاحب صفر اليدين خالى الوفاض . فقد سأل الوزير أبو عبد الله العارض أبا حيان ، فقال له : انى أريد أن أسألك عن ابن عباد ، فقد انتجعته وخبرته ، وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ، فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهمذان لما وافى ، ولكنى لم أعجمه ، لأن اللبث كان قليلا ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا ..

ويكون جواب أبى حيان : انى رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وان وصفته أربيت منتصفا ، وانتصفت منه مسرفا . فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق [1] ..

ولم تكن حفيظة أبى حيان على الصاحب وحقده عليه سرّا من الأسرار ، بل لقد ذاع خبر هذه الموجدة وشاع ، وأصبح حديث العام والخاص ، فالشيخ أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٥٤ .

بالوزير أبى عبــد الله العارض يمن على أبى حيان صنيعه فيه واحسانه اليه بقوله : « انك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرىّ الى بغــداد فى آخر سنة سبعين بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين [1] — نضر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، مغيظا منه ، مقروح الكبد لما نالك من الحرمان المرّ ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفــاء الفاحش ، والقدع المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخــدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولفظة [2] ..

* * *

ولقد أطلق أبو حيان لسانه بالقدح فى الصاحب والتشهير به . وحاول الصاحب فيما يذكر أبو حيان — والعهدة عليه — أن يردّه اليه للاحسان اليه ، أو ليكفّ لسانه عنه ، وذلك فى قول أبى حيان : ان ابن عباد رجل أساء الىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب اليه ثانيا ، وكنت أكره ذلك ، وما كنت آمن ما يكون منه ومنى ، والمجنــون المطاع مهروب منه بالطباع [3] ..

(١) ذو الـكفايتين لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد ، ، ويعنون بالكفايتين كفاية السـيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سـنة ٣٦٦ هـ .

(٢) الامتـــاع والمؤانســة ١/٤

(٣) الامتاع والمؤانسـة ١/٥٣ .

وهذا الخبر خبر محاولة الصاحب ارجاع أبى حيان الى حضرته للاحسان اليه ان صدق يدلّ على ندم الصاحب فى تفريطه فى حقه ، وخوفه من أن يبسط لسانه فى العيب فيه ، فيشيع عنه ما يكره أن ينسب اليه ، ويذيعه عنه فى العالمين .

وليس لنا بعد ذلك أن نشك فى سوء منقلب أبى حيان عن حضرة الصاحب ، ولكننا محتاجون الى تفسير لذلك التجهم الذى استقبله به ، والصدود الذى لقيه منه طول ثوائه عنده .. وفى الأخبار التى سلفت والتى ذكرها أبو حيان نستطيع أن تستشف شيئا من تلك الأسباب :

(١) ان الصاحب كان يرى نفسه — أو كان يحب أن يكون — فرد زمانه أدبا وعلما ومعرفة ، وكأنه كان لا يقنع بمنصب الوزارة الذى رقى اليه ، بل كان حريصا على أن يضم المجد من أطرافه ، وكان يكره أن يكون فى الناس ، بل أن يكون فى مجلسه الذى يتصدّره من يراه الناس رأى العين أعلم منه .

وقد رأى عند أبى حيان علما واحاطة ، ورواية ودراية ليست عنده . كما رأينا فى كلامه عن « فَعْل » و « أفعال » .. وكما رأينا فى عجز البيت « ولابد من شىء يعين على الدهر » الذى أخبر الصاحب أنه لم يجد من يدلّه على صدره ، فاذا أبو حيان يذكر فى بداهة صدره ، ويفعل أكثر من هذا فيروى البيت الذى قبله ..

ثم رأينا أبا حيان بعد أن يروى ما يروى فى « فَعْل » و « أفعال » من الحروف الثلاثين التى لم يعرفها النحويون ،

ولم يعرفها الصاحب ، رأيناه يسترسل من غير أن يُسأل فينتقد النحاة فى حصرهم أوجه « فعيل » فى عشرة ، وهو يعرف منها ما يربو على عشرين وجها ، ولا يسمح له الصاحب فى هــذا الاسترسال ، بل يقطع حديثه فى تعسف ظاهر بقوله : « لا نأذن لك فى اقتصاصك ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك فى مجلسنا ، وتبسطك فى حضرتنا » ..

وفى هذا الردّ القاسى ما يؤكد ما قلناه من أن الصّاحب كان يكره أن يكون فى مجلسه من هو أعلم منه .

أو لعل الصاحب ، وهو سيد المجلس ، كره من أبى حيان أن يتكلم كما يشاء ، والصاحب رب الدار ورئيس المجلس وهو الذى يدير الحــديث ، ويوجهه على حسب ما يشــاء ، فرأى فيما كان من أبى حيان اخلالا وتجاوزا لا يليق ..

ولكن ذلك لا ينهض عذرا فى مجلس ينصبه للعلم ، يستطرد فيه البحث الى آماده .. وربما كانت طريقة أبى حيان وأسلوبه فى عرض ما يريد لم تكن طريقة العالم المتواضع فى علمه ، بل ربما كان أسلوبه فى الكلام أسلوب المتعالم المستعلى المتعجرف الذى يرى أن عنده ما ليس عند غيره فيملؤه الزهو والغرور ، وكان زهوه وغروره هو الذى نفّر منه الصاحب ، وأطلق فيه ألسنة الحاسدين ..

ويصف أبو حيان فى بعض كلامه أسلوبه فى القول وطريقته فى الالقاء ، عندما كان الصاحب يسأله عمن اسمه « أبو حيان » .. فيقول : « وفّيت الشعر ، ورويت الاسناد ، وريقى بليل ، ولسانى

طلق ، ووجهى متهلل . وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب الشباب ، وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا » ..

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن ينكر نظرة الصاحب اليه ، ويعرف سوء موقع ما أنشد عنده ، وأن ينتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا أريحية ، بل باكفهرار وجه ، ونبّو طرف ، وقلة تقبّل ..

حتى عبارات الملق التى كان يفتن فيها أبو حيـان كانت لا تجد لها صدى فى قلب الصاحب ، فاذا سأله الصاحب عن سر بلاغته وجودة كلامه ، وأجابه أبو حيان بأنه يقطف من ثمـار رسائله ، ويستقى من قليب علمه ، ويشيم بارق أدبه ، ويرد ساحل بحره ، ويستوكف قطر مزنه .. يكون جواب الصاحب فى خشونة وصلف : كذبت وفجرت لا أمّ لك ! كلامى فى السماء ، وكلامك فى السّماد !

* * *

والذى لا نشك فيه أن السعاية قد بلغت مداها بين الرجلين ، وأن السعاة لعبوا دورا كبيرا فى توسيع الهوة وفى احداث الفرقة بينهما ، ولا نشك كذلك فى أن أولئك السعاة وجدوا فى صراحة أبى حيان ، وفى بثه ضجره بالمقام ، وضيقه بالعمل واطلاقه لسانه فى نقد بعض ما كان يجد من الصاحب ، وسائل أعانتهم على بلوغ ما يريدون ، وقد أحسّ أبو حيان بأثر صراحته وشكواه ، وما فعل به السعاة فى قوله « قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : انما توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هـذا

الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة .. فنمى اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا » .

وتلك احدى حماقات أبى حيان ، اذ كيف يخفى عليه أن قصور الخلفاء والوزراء كانت تعج بالعيون والرقباء على كل اشارة وحركة ، لا سيما فى ذلك الزمن الذى كثرت فيه الدسائس والمؤامرات ، وهو رجل أيا كان علمه وأدبه غريب ؟ !

ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الأخبار أن أبا حيان كان صاحب أمل عريض يلائم معرفته وطموحه ، وقد تبدد هذا الأمل ، وكان مصيره أن يعود الى حرفة النسخ والوراقة التى فر منها ببغداد ، فقضى تلك السنين الثلاث قلق المضجع ، نابى الوساد ، بعد أن خاب فأله وأخفق سعيه ، فتحول أمله يأسا ، وانقلب رضاه سخطا ، وعاش على هون ذليلا فى كسر الايوان ينسخ ما يرضى وما يكره ، وما يستطيع وما لا يستطيع ، ولم تكن حرفة النسخ لتشبع نهمه الى المجد الذى يحلم به . ويمكن تشبيه أبى حيان فى آماله وفى موقفه من الصاحب بآمال المتنبى وموقفه من كافور .. كما يمكن أن يقال ان اعتداد أبى حيان بنفسه وعلمه وأدبه كان يقابله حرص من الصاحب على ألا يبدو غيره أعلم منه أو أعرف منه بما يجهل ، ثم سعاية السعاة وقد كانت ذات أثر بعيد فى القطيعة بين الرجلين ، وفقدان الثقة بينهما .

وبعد فهل من الممكن الذهاب الى القول بأن الصاحب وجد فى أبى حيان منافسا يخشى خطره على منصبه ، بعد أن عرف

علمه وأدبه ، وأنه يستطيع أن يزاحمه فيهما ، اذا كانا عدة المنصب ووسيلة بلوغه ؟ .

* * *

ثم هل من الممكن أن نفسر تلك الحملات الظالمة التى شنها أبو حيان على الصاحب بأنه كان ينشد الانسانية الكاملة ، والمثالية البشرية فى الصاحب فلم يجدها ، ووجد فى شخص الصاحب أو فى خلقه وأدبه هنوات جسّمها هذا التجسيم ، وأجرى بها قلمه البارع فى الهجاء والثلب على ذلك النحو المثير من العيب والانتقاص ؛ فسجل تلك الصور التى تنبىء عن المهارة والحذق فى فن الوصف والتشهير ؟

قد يذهب هذا المذهب من ينخدع بقول أبى حيان عندما قارب الفراغ من كتابه فى « أخلاق الوزيرين » : ولولا أن هذين الرجلين — أعنى ابن عباد وابن العميد — كانا كبيرى زمانهما ، واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد . ولكن النقص ممن يدّعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب » !

ثم من يقرأ قوله فيهما بعد ذلك : « لو أردت مع هذا كله

أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجيل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد [1] ..

وكان أبا حيان يقول فى هذا الكلام ان حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولكن هل يسلم له هذا القول ؟ وهل يمكن أن يكون هو العذر الذى يطمئن اليه قارىء بعدما تقدم من الكلام الذى يكشف عن أحقاد نفسية ، ودوافع ذاتية ، بلغت مداها فى عقل أبى حيان وفى قلبه ، واستحالت سموما سال بها لعاب قلمه ، فأحالت كل مكرمة من مكارم الصاحب وكل حسنة من حسناته مثلبة وعيبا ؟

* * *

وليت هذا الايذاء وقف على الصاحب ، بل انه ليتجاوزه الى خاصة المتصلين به فينال به من علمهم ، ولا تسلم منه أعراضهم ، كما يقول عن الداركى [2] : « أما الداركى فقد اتخذ الشهادة مكسبة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللواط ، ولا يرجع الى ثقة وأمانة ، ولقد تهتك بنيسابور قديما ، وببغداد حديثا . هذا مع الفدامة والوخامة .. وهو اليوم قاضى الرى ، وابن عباد يكنفه ويقربه ، ليكون داعية له ونائبا عنه ، وليس له أصل ،

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٣٢ .

(٢) لعله يريد أبا القاسم الداركى ، نسبة الى دارك ، قرية فى أصفهان ، وهو أحد فقهاء الشافعية،وهو بغدادى أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس اليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها . مات سنة ٣٧٥ هـ .

وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاحا ، ولقد رأيته ، الا أنه يأتى لابن عباد فى سمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت رتبته فى الكلام حتى لا مزيد عليها ، الا أنه مع ذلك نغل الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين [1] ..

وبعد ، فقد عرف السابقون من المحققين أخلاق أبى حيان ، وتشككوا فيما نمقه من أحاديث وما سطره من روايات لا يمت كثير منها الى الصدق بسبب من الأسباب . فقد قال السبكى فى « طبقات الشافعية » ما صورته : قال الذهبى : كان أبو حيان سيىء الاعتقاد ، ثم نقل قول ابن فارس فى كتاب « الفريدة والخريدة » [2] : كان أبو حيان كذابا قليل الدين والورع .. ولقد وقف سيدنا الصاحب كافى الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله ، فهرب والتجأ الى أعدائه ، ونفق عليهم بزخرفه وافكه ، ثم عثروا منه على سوء عقيدته ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات فى الاستتار .. وفى « لسان الميزان » عن بعض العلماء أنه قال : لم أزل أرى أبا حيان معدودا فى زمرة أهل الفضل حتى صنع

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/١٤٢ .

(٢) هكذا فى النسخة المطبوعة ، ولم نجد هذا الكتاب فى مؤلفات ابن فارس ، وفى ميزان الاعتدال « قال ابن رانى فى كتاب الفريدة» وفى لسان الميزان« قال ابن مالى» ا.هـ من تعليق السيد محسن الأمين الحسينى العاملى (أعيان الشيعة ١١/٣٣٨) .

رسالة منسوبة الى أبى بكر وعمر ، وقال انهما راسلا بها عليًا ، وقصد بذلك الطعن على الصدر الأول . وحكى الذهبى عن أبى سعيد المالينى أنه قال : « قرأت الرسالة ، يعنى المنسوبة الى أبى بكر وعمر مع أبى عبيدة الى علىّ ، على أبى حيان فقال : هذه الرسالة عملتها ردًّا على الرافضة ، وسببه أنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء — يعنى ابن العميد — فكانوا يغلون فى حب علىّ ، فعملت هذه الرسالة » !

ان رجلا يبلغ به العبث الى هذه الدرجة من الافتراء على الصدر الأول من الصحابة الراشدين فى تأليف رسائل كاذبة يؤلفها ثم ينسبها اليهم ، ليس كثيرا عليه أن يفترى على مثل الصاحب بن عباد ، وأن يخترع روايات مكذوبة ينسبها الى بعض العلماء والرواة فى النيل منه ، ليرضى من الناس من يشاركه فى الحقد على الصاحب ، والغيرة الحمقاء من أفضاله ومكارمه . ومن الصاحب وغير الصاحب بالقياس الى أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة ؟ ! ومن هذا كله ينبغى على قارىء أبى حيان أن يضع بين عينيه هذه الحقائق ، وألا يأخذ بكلامه كلّه قبل أن يعرضه على عقله وفكره ، ويقرنه بكلامه بكلام غيره من أهل الثقة فى الأخبار والروايات .

وأخيرا فلا بأس أن ننقل فى ختام هذا الكلام احتمالات السخط على الصاحب التى كتب بسببها أبو حيان ما كتب :

(١) لأنه كان يأمل منه أكبر مما وصله به .

(٢) أو لأنه طبع على التأفف والسخط .

(٣) أو لأن الصاحب طلبه ليقتله كما قيل .

ويقول صاحب « أعيان الشيعة » [1] ان أبا حيــان هجا الصاحب ، وهو ذو لسان ذلق وبلاغة . وقد كان هــذا دأب الشعراء يهجون من لم يرضوا عن جوائزه بأقبح الهجو ، ويمدحون الناس بما فيهم وبما ليس فيهم طلبا لجوائزهم . وأبو حيان كان كاتبا بليغا أكثر منه شاعرا ، فهجا الصاحب لما لم يرض عنه بنثره البليغ ، كما يهجو الشاعر بشعره ، فذمه للصاحب وابن العميد لا قيمة له فى عالم الحقيقة ، كما لا قيمة لهجو الشعراء فى عالمها ، نعم له قيمته الأدبية التى تترك أثرا فى النفوس على ممر الدهور..

وفاة الصاحب

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٨٥ هـ : فى هذه السنة مات الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالرىّ ، وكان واحد زمانه علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأى وكرما ، عالما بأنواع العلوم ، عارفا بالكتابة وموادها . ورسائله مشــهورة مدونة ، وجمع من الكتب مالم يجمعه غيره ، حتى أنه كان يحتاج فى نقلها الى أربعمائة جمل ..

ولما حضره الموت قال لفخر الدولة : قد خدمتك خــدمة استفرغت فيها وسعى ، وسرت سيرة جلبت لك حسن الذكر ، فان أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل اليك

(١) اعيان الشيعة ١١/٢٤٠ .

وتركت أنا ، وان عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية اليك ، وقدح ذلك فى دولتك ، فكان هذا نصحه له الى أن مات [1] ..

وذكر الثعالبى فى اليتيمة أن الصاحب لما بلغت سنه الستين اعترته آفة الكمال ، وانتابته أمراض الكبر ، جعل ينشد قوله :

أناخ الشيب ضيفا لم أرده ... ولكن لا أطيق له مردّا
رداء للردى فيه دليل ... تردّى من به يوما تردّى

ولما كنى المنجمون عما يعرض له فى سنة موته قال :

يا مالك الأرواح والأجسام ... وخالق النجوم والأحكام
مدبر الضياء والظلام ... لا المشترى أرجوه للانعام
ولا أخاف الضر من بهرام ... وانما النجوم كالأعلام
والعلم عند الملك العلام ... يا رب فاحفظنى من الأسقام
ووقّنى حوادث الأيام ... وهجنة الأوزار والآثام
هبنى لحب المصطفى المعتام[2] ... وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التى دلت على انقضاء عمره :

أرى سنتى قد ضمنت بعجائب
وربى يكفينى جميع النوائب
ويدفع عنى ما أخاف بمنّه
ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣٨/٩ .
(٢) المعتام : المختار المصطفى .

اذا كان من أجرى الكواكب أمره
معينى فما أخشى صروف الكواكب
عليك أيا ربّ السماء توكلى
فحطنى من شر الخطوب الحوارب
وكم سنة حذرتها فتزحزحت
بخير واقبال وجد مصاحب
ومن أضمر اللهم سوءا لمهجتى
فردّ عليه الكيد أخيب خائب
فلست أريد السوء بالناس انما
أريد بهم خيرا مريع الجوانب
وأدفع عن أموالهم ونفوسهم
بجدى وجهدى باذلا للمواهب
ومن لم يسعه ذاك منى فاننى
سأكفاه ان الله أغلب غالب

وبلغته عن بعض أصحابه شماتة ، فقال :

وكم شامت بى بعد موتى جاهلا
بظلمى يسلّ السيف بعد وفاتى
ولو علم المسكين ماذا يناله
من الظلم بعدى مات بعد مماتى

ووجد فى بعض أيام مرضته التى توفى فيها خفة ، فأذن للناس ، وحل وعقد ، وأمر ونهى ، وأملى كتبا تعجب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها ، وقال :

كلامنـــا من غـــرر وعيشنا من غَـــررِ [1]
انى وحق خـــالقى عـــلى جنـــاح السفر

ثم لما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة انتقل الى جوار ربه ، ومحل عفوه وكرامته ، ومضى من الدنيا بمضيه رونق حسنها ، وتاريخ فضلها [2] .

وكانت وفاة الصاحب بالرّى ، ثم نقل الى أصبهان ، ودفن فى قبة بمحلة تعرف بباب دَرِيه ، قال ابن خلكان [3] : وهى عامرة الى الآن ، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض [4] ..

* * *

وكانت وفاة الصاحب مظهرا فائقا رائعا لما كان له من رفيع المنزلة فى قلوب رجال الدولة وعامة الشعب ، وما حلّ بهم من الجزع لفقده ، حتى قيل انه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان فى حياته غير الصاحب بن عباد ، فانه لما توفى أغلقت له مدينة الرىّ ، واجتمع الناس على باب قصره ، ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدومه فخر الدولة وسائر القواد ، وقد غيروا لباسهم ، فلما خرج نعشه الى الباب على أكتاف حامليه للصلاة عليه قام الناس بأجمعهم اعظاما ، وصاحوا صيحة واحدة ، وقبلوا الأرض ، وخـــرقوا ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبالغوا فى البكاء والنحيب عليه

---

(١) الغرر ــ بضم ففتح ــ المحاسن ، وبفتحتين الخطر .
(٢) يتيمة الدهر ٣/٢٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٢/٢٢٧ .
(٤) توفى القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان سنة ٦٨١ هـ أى بعد وفاة الصاحب بنحو ثلثمائة عام .

جهدهم ، وابتدر الديلم الى تقبيل الأرض قدام جنازته ، ثم حملت الى موضع الصلاة ، وصلى عليه أبو العباس الضبى الذى تولى الوزارة بعده ، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياما ، وبعد أن صلوا عليه علقوا نعشه بالسلاسل فى سقف بيت ، ورفعوه عن الأرض الى أن حمل الى أصبهان ، ودفن هناك [1] .

ولقد أطلقت وفاة الصاحب ألسنة شعراء العصر ، فكثرت مراثيه ، وطالت وجادت ، ووجـد الشعراء فى عظمة الصاحب وشخصيته ، وفى مروءته وسماحته ، وفى شعره وكتابته ، وفى تدبيره وسياسته ، وفى تقواه وعفته ، معينا لا ينضب من المعانى المتزاحمة الجياد ، جعلت مراثيهم فيه من خرائد الشعر المصونة ، ومن نماذجه العالية ، حتى لقد كان أحدهم يلقى عليه الشعر فى رثاء الصاحب ويلهمه فى منامه ، قال أبو القاسم بن أبى العلاء الشاعر الأصبهانى : رأيت فى المنام قائلا يقول لى : لمَ لمْ ترث الصاحب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : ألجمتنى كثرة محاسنه ، فلم أدر بمَ أبدأ منها ، وقد خفت أن أقصر وقد ظن بى الاستيفاء لها !! . فقال لى : أجز ما أقوله ، فقلت : قل ، فقال :

« ثوى الجود والكافى معا فى حفيرة » فقلت :

« ليأنس كل منهما بأخيه » فقال :

« هما اصطحبا حيين ثم تعانقا » فقلت :

---

(١) ابن خلكان ٢/٢٢٩ وياقوت ٦/٢٧٥ وأعيان الشـيعة ١١/٣٢٤ .

« ضجيعين فى لحد بباب دزيه » فقال :

« اذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم » فقلت :

« أقاما الى يوم القيامة فيه » ..

ورثاء الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى النقيب بقصيدة طويلة ، ذكر منها الثعالبى فى يتيمة الدهر خمسة وستين بيتا ، وأول ما ذكره منها قول الشريف :

أكذا المنـــون يقطر الأبطـــالا
أكذا الزمــان يضعضع الأجبــالا

أكذا تصاب الأســـد وهى مدلة
تحمى الشــبول وتمنع الأغيــالا

أكذا تقام عن الفرائس بعـــدما
ملأت هماهمها الورى أو جــالا

أكذا تحط الزاهرات عن العــلا
من بعد ما شاق العيــون منــالا

أكذا تكب البزل وهى مصاعب [1]
تطوى البعيد وتحمل الأثقـــالا

أكذا تغاض الزاخـــرات وقد طغت
لججا وأوردت الظمـــاء زلالا

---

(١) البزل جمع بازل وهو الجمل اذا بلغ واشتد ، والمصاعب جمع مصعب وهو الجمل الفحل ويقال أصعبت الجمل فهو مصعب اذا تركته فلم تركبه ولم يمسسه حبل .

يا طالب المعروف حلق نجمـــــه
حط الحمول وعطل الأجمـــالا

وأقم على يأس فقـــد ذهب الذى
كان الأنام على نداه عيـــالا

من كان يقرى الجهل علما ثاقبـــا
والنقص فضـــلا والرجـــاء نوالا

ويجبن الشـــجعان دون لقـــائه
يوم الوغى ويشجع الســـؤالا

وهى من أروع المراثى فى الأدب العربى ، ومن أروع ما جادت به شاعرية الشريف الرضى ، ولولا خوف الاطالة لأتينا على أكثرها ، فما من بيت فيها الا وفيه القوة وأثر الفجيعة على الصاحب وتسجيل مآثره الفريدة ، فليطلبها من شاء فى « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » للثعالبى (٣/٢٨٣ — ٢٨٥) .

ولأبى العباس الضبى ، وقد مرّ بباب الصاحب :

أيها الباب لم علاك اكتئـــاب
أين ذاك الحجـــاب والحجاب ؟

أين من كان يفزع الدهـــر منه
فهو اليـــوم فى التراب تراب ؟

ولأبى القاسم بن أبى العلاء الأصفهانى :

يا كافى الملك ما وفيت حظـك من
وصف وان طـــال تمجيد وتأبين

فت الصفات فما يرثيـك من أحد
الا وتزيينه اياك تهجـين
ما مت وحـدك لكن مات من ولدت
حواء طرا ، بل الدنيـا ، بل الدين
هذى نواعى العـلا مذ مت نادبة
من بعد ما ندبتك الخـرّد العين
تبكى عليك العطايا والصـلات كما
تبكى عليك الرعايا والسـلاطين
قام السعاة وكان الخـوف أقعدهم
فاستيقظوا بعد ما متّ الملاعين
لا يعجب الناس منهم ان هم انتشروا
مضى سليمان وانحل الشـياطين
ما أحسن هذا المثل ، وما أمكن موقعه ! ومن قصيدة أبى سعيد الرستمى :
أبعد ابن عبـاس يهش الى السرى
أخو أمـل أو يستماح جـواد
أبى الله الا أن يمـوتا بموته
فما لهمـا حتى المعاد معـاد
ومن قصيدة أبى الفرج ميسرة :
ولو قبل الفداء لكان يفـدى
وان جل المصاب عـلى التفادى

ولكن المنـــون لها عيـــون

تكد لحاظها فى الانتقـــــاد

فقل للدهـــر أنت أصبت فالبس

برغمـــك دوننـــا ثوبى حداد

اذا قدمت خاتمة الرزايـــــا

فقـــد عرضت ســـوقك للكساد

ورثاه ختنه أبو الحسن على بن الحسين الحسنى بقوله من قصيدة :

ألا هل أتى الآفاق أية غمـــــة

أطلت ، ونعمى أى دهـــر تولت

وهل تعلم الغـــبراء ماذا تضمنت

وأعـــواد ذاك النعش ماذا أقلتِ

فلا أبصرت عينى تهـــلل بارقٍ

يحاكى ندى كفيـــك الا استهلتِ

ولو قبلت أرواحنا عنـــك فدية

لجدنا بها عنــــد الفداء وقلّتِ

* * *

ونجتزىء بهذا القدر مما قيل فى رثاء الصاحب ، فانه من الكثرة والجودة بدرجة لا تتسع لها هذه الصفحات ، ولكنها جميعا تدل على مدى الحسرة وألم الفجيعة بموته ، وأكثر هذا الرثاء نقرأ فيه العاطفة الصادقة ، والاحساس العميق بهول الكارثة وكأن أصحابه كانوا يقولونه ، وقلوبهم تضطرم وأكبادهم تحترق .

والى جانب هذه الصور المشرقة للوفاء وعرفان الجميل ، رأينا بعد وفاة الصاحب صورا للجحود ونكران الجميل ، ونسيان الفضل ، وهى صورة للخسّة وما طبعت عليه بعض النفوس من اللؤم وسوء الطبع ، وكان القاضى « عبد الجبار بن أحمد » صورة من صور هذا الجحود والتنكر للمعروف ، فقد قدّره الصاحب واستدعاه من بغداد ، وأكرمه وقدّمه ، وولاه قضاء الرىّ ، ولم يكتف الصاحب فى اكرامه بهذا ، بل عينه قاضيا للقضاة فى جرجان وطبرستان وما يليهما من الأعمال ، ويذكر فى خطاب توليته ما يرفع عبد الجبار هذا الى الذروة من العلم والفضل والورع والنبل ما نصه « هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين الى عبد الجبار بن أحمد حين ألفاه الكافى فيما استكفاه ، الوافى بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضاته ، بما أحمد فيه رضىّ مسعاته ، مؤديا حق الله فى الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والامضاء على سنن الشرع ومفضاه ، لا يميل به هواه عند الارتياد ، ولا يختلف مغزاه فى الاعتبار والاجتهاد . الورع مركبه وسبيله ، والحق مقصده ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدّت الى اقتباس علمه الرحال . فرأى أن يضيف له الى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آنف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، الى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالهما ويعدّ من سفوحهما وجبالهما ، برّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، ممتّعا رعية هذه البلاد بكفايته ،

قاسما لهم حظوظهم من رعيته ودرايته ، فأولى الولاة من جمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه فى العلم والتقى ، والله ولىّ الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، انه سميع بصير ، وعلى كل شىء قدير [1] .

وهذا القاضى «عبد الجبار بن أحمد» الذى أحسن اليه الصاحب هذا الاحسان وولاه هذه التولية ، وقال فيه مثل ذلك الكلام لما توفى الصاحب كان الناس يترحمون عليه الا هـذا القاضى عبد الجبار فانه كان يقول أمام الناس « أنا لا أترحم عليه ، لأنه لم يظهر توبته » ! فطعن عليه فى ذلك ، ونسب الى قلة الرعاية والوفاء للمعروف ، فلا جرم أن فخر الدولة قبض عليه بعد موت الصاحب ، وصادره فيما قيل على ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعزله عن قضاء الرىّ ، وولى مكانه القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى العلامة صاحب التصانيف والفضائل الجمة .. وقيل ان عبد الجبار هذا باع ألف طيلسان مصرى فى مصادرته ، وهو شيخ يقول ان المسلم يخلد فى النار على ربع دينار ، وجميع هذا المال الذى حصله من قضاء الظلمة بل الكفرة عنده ! .

وذمه كذلك أحد الشعراء — كما ذكر أبو حيان ولعله هو « أحد الشعراء » — فذم سجعه وخطه وعقله :

متلقب كافى الكفاة وانمـــــا
هـــو فى الحقيقة أكفـــر الكفار

(١) رسائل الصاحب بن عباد ٣٤ .

السجع سجع مهوّس [1] والخط خ
ط منقرس [2] والعقل عقل حمـار

فيا سبحان الله ! ولكن :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم المـاء من سـقم

ولكن هنالك ما يدعو الى العجب العجاب ، وما هو أشد من هذا ظلما وعذرا ، وذلك فيما رواه ابن الأثير فى قـوله : لما توفى الصاحب بن عباد أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله وداره ، ونقل جميع ما فيها اليه .. ثم ان فخر الدولة قبض على أصحاب ابن عباد ، وأبطل كل مسامحة كانت منه ، وقرر هو ووزراؤه المصادرات فى البلاد ، فاجتمع له منها شيء كثير ، ثم تمزق بعد وفاته فى أقرب مدة ، وحصل بالوزر وسوء الذكر ..

قال ابن الأثير متعجبا : فقبح الله خدمة الملوك ، هذا فعلهم مع من نصح لهم ، فكيف مع غيره [3] ؟ !

ثم انظر بعد ذلك ما فعل مالك الملك بفخر الدولة ، فقد أدركته منيته بقلعة طبرق فى شعبان سنة ٣٨٧ هـ ، ولما مات كانت مفاتيح الخزائن بالرىّ عند أم ولده مجد الدولة ، فطلبوا له كفنا فلم يجدوه ، وتعذر النزول الى البلد لشدة شغب الديلم ، فاشتروا

---

(١) أى مصـاب بالهوس ، وهو خفـة العقل ، وطرف من الجنون .

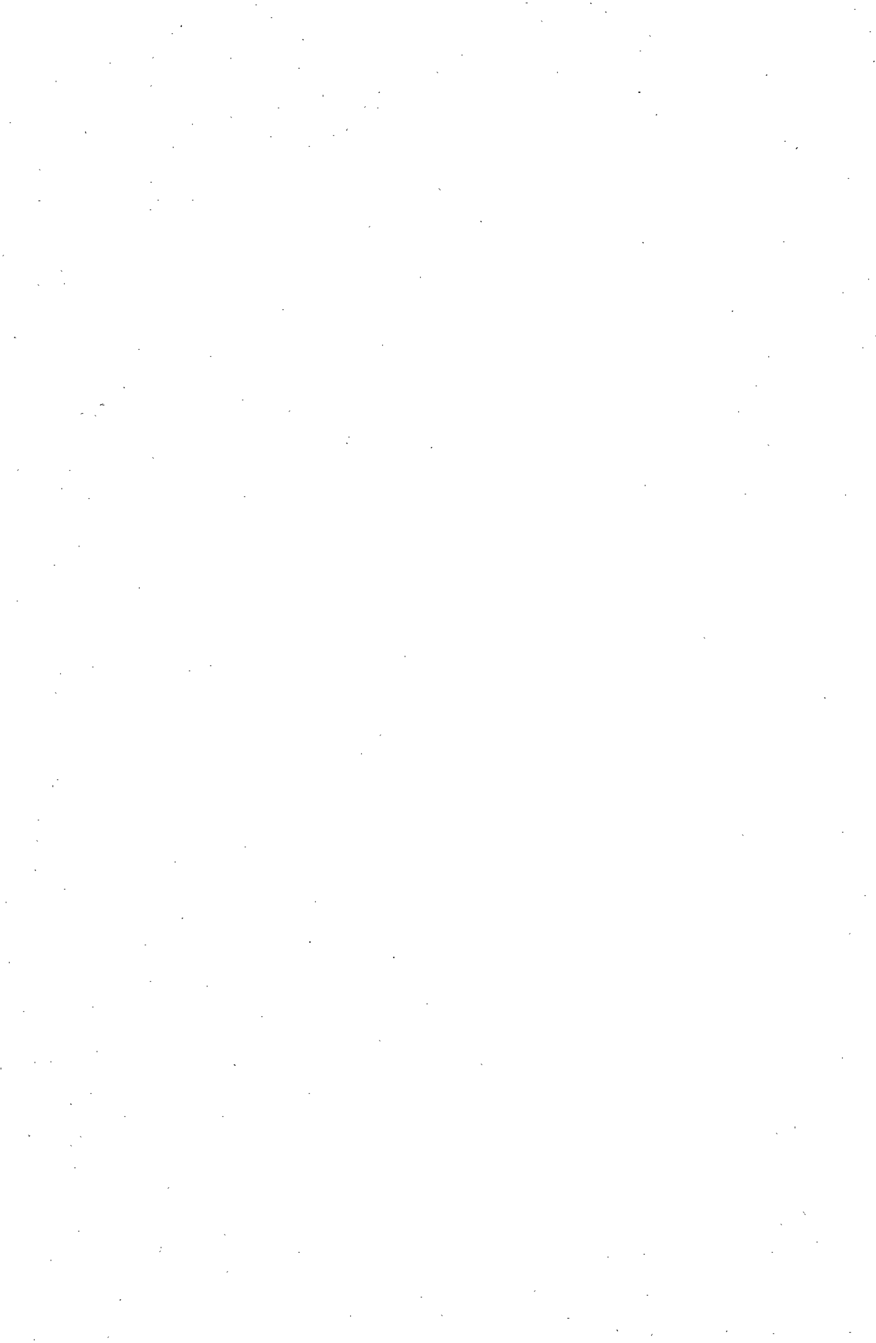
(٢) أى مصاب بالنقرس ، وهو مرض فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

(٣) الكامل لابن الأثير ٣٨/٩ .

له من قيم الجامع ثوبا كفنوه فيه ، وزاد شغب الجند ، فلم يمكنهم دفنه ، فبقى حتى أنتن ، ثم دفنوه [1] ..

وتفصيل غدر فخر الدولة بالصاحب بعد وفاته أن أبا محمد خازن الكتب كان ملازما دار الصاحب فى مرضه على سبيل الخدمة ، وكان عينا لفخر الدولة عليه . فلما توفى الصاحب بادر باعلامه الخبر ، فأنفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن، ووجدوا كيسا فيه رقاع أقوام بمائة وخمسين ألف دينار مودعة له عندهم ، فاستدعاهم فخر الدولة وطالبهم بالمال فأحضروه ، وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ، ونقل جميع ما كان فى الدار والخزائن الى دار فخر الدولة ، ثم قبض على أصحاب ابن عباد ..

(١) المصدر السابق ٩/٤٥ .



خاتمة

وبعد ، فلعل فى هذا القدر من الدراسة ما يكفى لرسم صورة واضحة لمعالم شخصية أبى القاسم الصاحب بن عباد ، واذا كان لابد من كلمة ننهى بها هذه الدراسة تتصل بما فيها ، وتنبّه الى غيرها مما له وثيق الصلة بموضوعها ، فان من أهم ما نريد أن نلفت اليه نظر القارىء هو أننا لم يكن من همنا تتبع حياة الصاحب وتدرجه فى سلم الحياة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة . فقد كان حسبنا من ذلك أن نذكره كاتبا ووزيرا ، وأن نشرح مقامه فى الكتابة ، ومقامه فى الوزارة ، ونصف ما استطاع أن يحقق فى هذين المجالين من المجالات الرسمية التى اتصلت بحياته ، وقامت على أساسهما صفته العامة أو حياته العامة .

ومن المعروف أن الأعمال الكبار والمهام الجسام كان يناط تدبيرها كما كان يناط تنفيذها اذ ذاك بأولئك الرجال من الكتاب والوزراء ولكن التاريخ لم يكن ليتتبع حياة أولئك العاملين ولا ينسب اليهم الأعمال المجيدة التى قاموا بها ، والمخاطر الشداد التى تعرضوا لها ، بقدر ما كان يستقصى حياة سادتهم من الملوك والسلاطين ويعرض للخطير والتافه من شئون هذه الحياة ، وينسب اليهم الأمجاد والبطولات التى حصلت تحت بنودهم والوقائع والأحداث التى

جرت فى أيامهم ، ومن ثم تضيع تلك الأمجاد أو تضيع نسبتها الى أصحابها وفاعليها الأصليين .

ولكننا على الرغم من ذلك استطعنا أن نعرف كثيرا من مظاهر العظمة والتوفيق فى الحياة العامة للصاحب بن عباد ، واستطعنا أن نقرأ بين سطور ذلك التاريخ بعض مظاهر البطولة فى السياسة والقيادة التى تولاها الصاحب ، فقد عرفنا أعماله الكبار فى تثبيت ملك آل بويه ، وما مكن به لمؤيد الدولة ، وما مهّد به لفخر الدولة حتى أصبح ملكا وسلطانا بعد أن عاش بعيدا طريدا أيام أخويه ، وقد ذكر التاريخ أن الصاحب فتح لمخدومه فخر الدولة خمسين قلعة لم يكن لأبيه ولا لأخيه شىء منها ، عدا مالم يذكره التاريخ أو ما ذكره منسوبا لغيره .

ولم تكن هذه الحياة الفانية التى درسنا منها ما درسنا لتعنينا بالقدر الذى كان يعنينا من دراسة العوامل والأسباب التى هيأت له الحياة الباقية ، حياة الذكر والخلود ، وهى فضائله ومكارمه التى عرف بها ، والتى تعدّ بطبيعتها أهم مقومات شخصيته التى قام عليها مجده التاريخى وهى علمه المتبحر فى صنوف كثيرة من المعرفة ، وفنه الأدبى الذى برز فيه كاتبا فى طليعة الكتاب وشاعرا فى مقدمة الشعراء ، وناقدا صاحب أداة من الثقافة والخبرة والذوق . وأعتقد أن هذا الجانب قد استوفى حقه من العناية فى هذا الدرس ، كما استوفت حظها من تلك العناية الأجواء التى أحاطت به والتى كان لها بعض الآثار فى منهجه وسلوكه العام ، ولم تقتصر دراستنا فى هذا الجانب على الأولياء الذين ناصروه

وأخذوا بيده الى مكان الصدارة والسلطان ، بل انها فتحت قلبها للحسّاد والمعوقين الذين حاولوا بكل ما أوتوا من البيان أو من سلاطة اللسان أن يهدموا الصاحب ويثلوا مجده الراسخ كأبى حيان التوحيدى الذى شرحت هذه الدراسة عوامل سخطه وحنقه ومظاهر تحامله على الصاحب أو على علمه وفنه ؛ ومدى ما يمكن من الثقة بأقواله الحاقدة التى انبعثت من قلبه الحاسد الموتور .

وأعتقد أولا وأخيرا أن عظمة الصاحب وكرامته التى أشرنا الى شيء ليس بالقليل من مظاهرها وشواهدها كانت فى حقيقتها عظمة للعلم الذى احتفل به ، والأدب الذى حصله وجاد به ، والمكارم التى بنى عليها وتشبث بها ، ثم كانت من بعد كرامة لأهل المعرفة والفن وبناة المكارم من بنى البشر على مرّ الزمان .

* * *

ولقد عرف القارىء من ثنايا هذه الدراسة فى الفصل الذى عقدناه للحديث عن « الصاحب الأديب » أنه تلقى أصول فنه الكتابى عن أبى الفضل بن العميد الذى كان يلقب بالأستاذ والشيخ والرئيس ، ولكل لقب من هذه الألقاب دلالته على الأستاذية والزعامة ، وهى زعامة اعترف بها التاريخ الأدبى عند هذه الأمة فى فن الكتابة ، حتى أصبحنا نجد الى جانب المدارس المعروفة : مدرسة عبد الحميد ، ومدرسة الجاحظ ، ومدرسة ابن المقفع ، مدرسة جديدة ذات خصائص متميزة ، وهذه الخصائص فى جملتها مستمدة من الحياة الحضارية فى المشرق التى

ظهرت آثارها فى التفكير ، كما ظهرت آثارها فى التعبير فى قوة ووضوح وجمال يجارى الحياة المتأنقة التى عاش فيها هذا الفن وأصحابه ، وكانت هذه الطريقة المتميزة هى طريقة ابن العميد التى تلقى الصاحب أصولها عن صاحبها ومبتدعها وهو ابن العميد نفسه ، والتى تجمع الى الاحتفال بالقالب والصياغة جودة المعنى والمضمون ، لوفرة المعانى وتزاحم الدواعى التى تدفع الى التعبير . ولم يكن أدبها أدب تسلية أو تزجية فراغ ، فقد كان هناك من مستلزمات الجـد ما لا فراغ معه للهزل — كما قال الصاحب نفسه — وكما كان الصاحب عميديا فى صناعته وتأنقه الحضارى كان جاحظيا فى احتفاله بالمعانى وتفصيلها ؛ كما كان جاحظيا فى كلامه وفى اعتزاله .

ولقد خلف الصاحب هذا الأسلوب الكتابى فى قوته وعنفوانه ، يحتذيه من يملكون قوة الفكرة كما يملكون أداة التعبير الفنى المتأنق الجميل ، وقد ترسم خطا الصاحب عدد من زعمـاء فن الكتابة وفى مقدمتهم ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر ؛ كما تأثر بها القاضى الفاضل زعيم الطريقة الفاضلية التى طغت تعاليمها وتلقفها كتاب بغـير أداة من الفكر والثقافة فغالوا فى الزخرف والطـلاء ليخفوا عجزهم وكلالهم فى عصـور الظلام والاقفار ، حتى شوّه الفن الجميل ، وقبحت الصناعة فى نظر كل مطلع على كتابات المتأخرين .

* * *

وبعد ، فان كان قد بقى من أمجاد الصاحب شىء لم تحققه هذه الدراسة لأنه يخرج عن نطاقها وطبيعتها ، فان هذا الباقى يتمثل فى آثار الصـاحب ومصنفاته التى أشرنا اليها ، وعرّفنا بموضوعاتها ، والتى نحسّ بالحاجة الملحة الى موالاة الجهود فى البحث عن مظانها وكشفها للناس حتى تضم الى تراث العروبة الحافل ، وتعظم الفائدة والانتفاع بما حوت من آثار المعـرفة والبصيرة ، وما ذلك على أولى العزم بكثير .

والحمد لله على ما هدى اليه ، وأعان عليه . له الحمـد فى الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير .

بدوى احمد طبانة



مراجع البحث

١ ـ الآثار الباقية من القرون الخالية : أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى

٢ ـ ارشاد الأريب الى معرفة الأديب = معجم الأدباء : ياقوت الحموى

٣ ـ أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين العاملى

٤ ـ الامتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى

٥ ـ انباه الرواة الى أبناء النحاة : على بن يوسف القفطى

٦ ـ البداية والنهاية فى التاريخ : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير

٧ ـ بغية الوعاة : جلال الدين السيوطى

٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان

٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى : أحمد الاسكندرى

١٠ ـ تاريخ الأمم الاسلامية : محمد الخضرى

١١ ـ تجارب الأمم : أحمد بن محمد بن مسكويه

١٢ ـ رسائل الصاحب بن عباد : تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقى ضيف

١٣ ـ شذرات الذهب : عبد الحى بن العماد الحنبلى

١٤ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا : أبو العباس أحمد القلقشندى

١٥ ـ الصناعتين : أبو هلال العسكرى

١٦ ـ الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : أحمد بن فارس

١٧ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر = تاريخ ابن خلدون :عبد الرحمن بن خلدون

١٨ ـ العقائد : عمر عنايت

١٩ ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهرى الأندلسى

٢٠ ـ فقه اللغة وأسرار العربية : أبو منصور الثعالبى

٢١ ـ الفهرست : محمد بن اسحاق النديم

٢٢ ـ الكامل فى التاريخ : ابن الأثير

٢٣ ـ الكشف عن مساوىء المتنبى : الصاحب بن عباد

٢٤ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير

٢٥ ـ مختصر تاريخ البلدان : ابن الفقيه

٢٦ ـ مسالك الممالك : الاصطخرى

٢٧ ـ الملل والنحل : الشهرستانى

٢٨ ـ المنتزع من كتاب التاجى : أبو اسحاق الصابى

٢٩ ـ المنتظم : ابن الجوزى

٣٠ ـ نزهة الأنباء فى طبقات الأدباء : الأنبارى

٣١ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : التنوخى

٣٢ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان

٣٣ ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر : أبو منصور الثعالبى

فهرس

صفحة

الفصل الثالث : الصاحب الوزير

الفصل الرابع : أخلاق الصاحب

صفحة

الفصل الخامس : الصاحب الأديب

صفحة

(٣) الصاحب الناقد :

الفصل السادس : الصاحب العالم

صفحة

الفصل السابع : أبو حيان والصاحب

وفاة الصاحب

